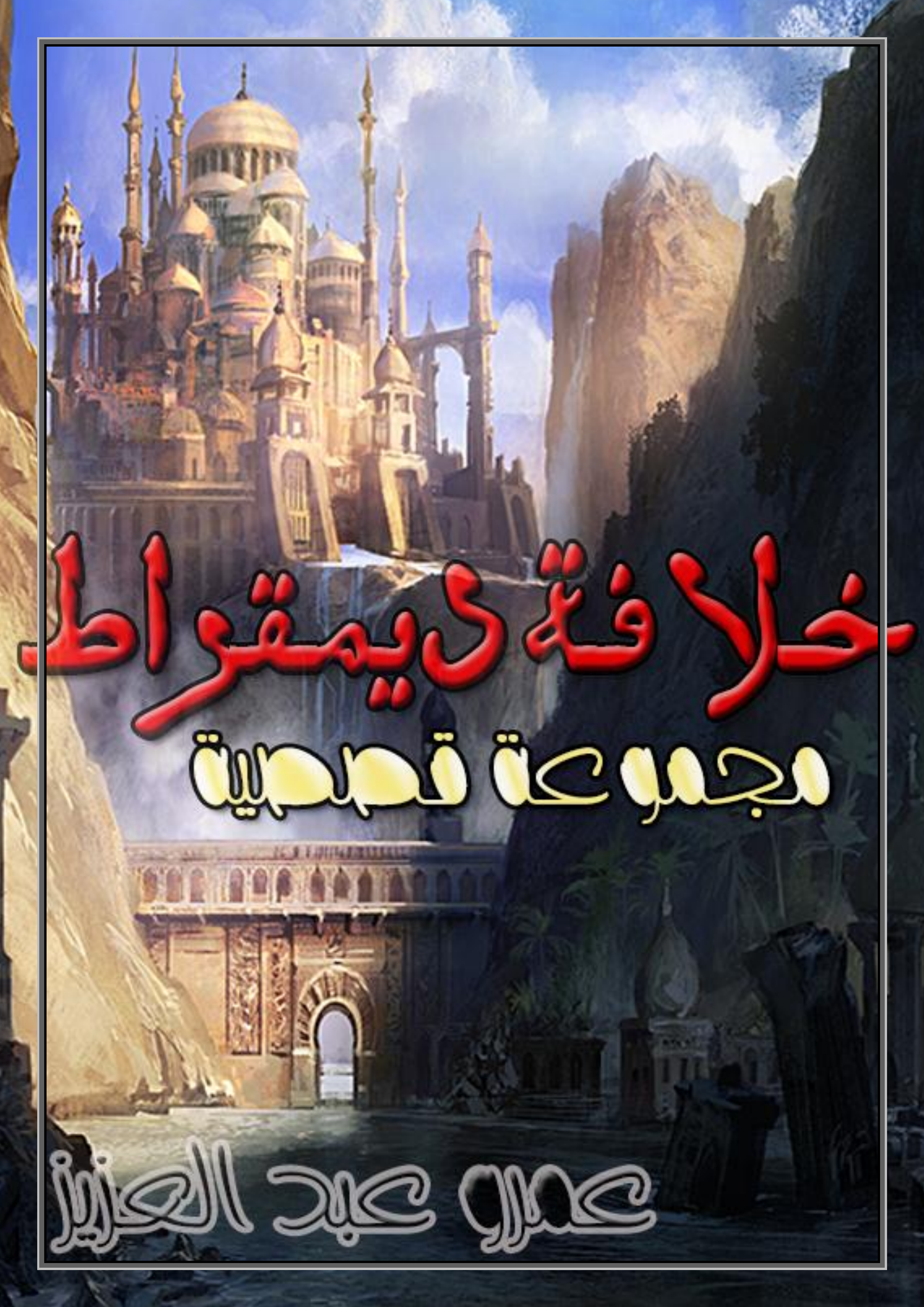

خلافة ديمقراط
مجموعة قصصية
عمرو عبد العزيز

تم كتابة هذه المجموعة و تعديلها بين منتصف ٢٠١٢ و سبتمبر ٢٠١٣

إلى أصدقاء و رفاق الفيسبوك الذين قرأوا لي و شجعوني على الاستمرار .. و كثير منهم اليوم بين مُعتقل و مُطارَد و منتظر لشهادة ربه في أي لحظة على يد فرعون مصر الجديد ..

أهديكم هذه المجموعة .. عسى أن نجتمع قريباً إن شاء الله في الفردوس الأعلى

الفهرس

كن من الساجدين

١

يوم آخر في العمل ، ممل كالسابق رتيب كاللاحق .. لا جديد في عصر وصلنا فيه إلى نسبة من الرخاء جعلتنا نشيد ناطحات السحاب في كل مكان من الصحراء .. عذراً .. ما كان يسمى قديماً بالصحراء ..
عاد العماليق للجزيرة العربية .. من اسمنت هذه المرة بدلاً من اللحم و الدم .. أسكن بداخل فرد منهم و أعمل بداخل واحد آخر !
عندما أتحرك كل صباح ذاهب إلى عملي تمر سيارتي وسطهم فأشعر بالرهبة من صورتهم المهيبة ، عماليق مشيدة بطول الكيلومتر أحياناً !
و الناس يحبونها ، يعشقون حسنها و تمدهم بالقوة و الثقة في النفس .. يصر زميل لي على أنها أصنام كبيرة الحجم يعبدها الناس و يتسابقون لتشييدها مكررين بذلك عهد الجاهلية ، و أخالفه في هذا التشبيه المتطرف ..
لكني يومياً أتسائل : أليست تلك بالفعل أصنام شيدوها لتمنحهم بركة الشعور بالنجاح و التوفيق و الإستعلاء على الآخرين ؟
في العمل كنت أقوم بإنجاز كل شئ على حاسوب آلي .. أصنام أسمنتيه و عقول الكترونية و أفراد يظنون أن كل هذا طوع أيديهم .. هكذا نحن .. لكني دائماً أشعر بسخف هذا الإفتراض المنطقي .. إننا نحن عبيد الأصنام ذات العقول الإلكترونية .. يوماً ما سنكتشف هذه الحقيقة و نرجع إلى حالتنا الأولى .. إلى الصحراء و الخيام .. لكن الغريب أنني لا أتمنى أن أتواجد في ذلك اليوم ، فحياتي هكذا أسهل بكثير !
وجدت تنبيه على سطح مكتب جهازي فتوقفت عن العمل ، هو من المدير الذي يستطيع الوصول إلى كافة أجهزة المؤسسة
" توجهوا نحو التلفاز المركزي فوراً "
عقدت حاجبي ، الساعة الآن العاشرة و النصف صباحاً و لا شئ مهم في التلفاز ، ناهيك أن المدير لا يطلب منا إلا العمل و العمل ثم العمل !
نهضت من مكتبي و قد استبد بي القلق بينما نافورة الإحتمالات المخيفة تغمر عقلي بالسيناريوهات : إنقلاب ؟ زلزال ؟ إغتيال الحاكم ؟ زوجتي خرجت تشكوني في التلفاز الوطني ؟!
في الممر المزدحم كان الجميع يتحرك في همة دون كلام كثير ، وصلنا إلى القاعة الرئيسية فوجدنا المدير و قيادات المؤسسة واقفين أمام الشاشة الكبرى في صمت ، كان التلفاز ينقل مشهد مئات الآلاف ، بل ملايين الجنود يرتدون زياً موحداً أسوداً و غطاء رأس قماشي غريب الشكل ..
النقل من قناة غريبة بصوت فخم يذكرني بمشاهد الأفلام الدعائية لأربعينيات و خمسينيات القرن العشرين ، و اللغة شبيهة بالعبرية ! آلاف الطائرات الغريبة الشكل تحلق محيطة بواحدة عملاقة تبدو كأنها قرية طائرة .. مركبات عملاقة و أسلحة لا نعرف شكلها !
ـ قال أحد الزملاء في استنكار : فيلم خيال علمي بالعبرية ؟ على قناتنا المحلية ؟
انتبهت إلى شعار القناة المحلية الموجود ، إنها تنقل عن هذه القناة العجيبة .. إلتفت إلينا المدير في حيرة و هو يقلب القنوات قائلاً :
ـ ليس خيالاً .. و ليست قناتنا المحلية وحدها !
تنقل بين القنوات .. الجميع ينقل نفس المشهد .. نفس التعليق .. عشرات القنوات بنفس التزامن ..

دوى صوت صفارة الإنذار في مدينتنا فنظر الجميع إلى بعضهم في ذعر .. هرولنا كل إلى سيارته بلا حرف واحد .. لابد أن ذهب لأسرتي فوراً .. ما هذا ؟
في الطريق كانت المساجد ترفع الأذان في غير وقته ، زاد هذا من حالة الذعر ، الناس يركضون في الشوارع و فوضى عجيبة منتشرة بينما الشرطة نفسها مضطربة لم تستوعب بعد ماذا هناك ..
وصلت لمنزلي فدخلت لأجد زوجتي و والدي يلتفتون إلى في إهتمام مذعور يسألونني عما هناك .. هرعت فوراً إلى الشاشة و أخبرتهم أنني لا أفهم شيئاً .. على التلفاز كان هناك رجل غريب الهيئة يتحدث بصوت أجش ، وجهه صنع نفوراً مخيفاً في نفسي و بعث رعشة بداخلي ، إنه شبيه بشخص ما أعرفه من الماضي السحيق لكني لا أستطيع تذكره ، يتحدث بالعربية في قوة و فصاحة ، علمت فيما بعد أن كافة قنوات الأرض الفضائية و المحلية عرضت نفس البث قهراً و لم تجدي محاولات عسكرية و مخابراتية لإيقافه ، كان هناك شئ مجهول يمنع المساس بما يحدث ! الغريب أن كل أمة سمعته يتحدث بلغتها الخاصة في نفس التوقيت !
" إنني لست المبعوث المنتظر ، فلا أحد بعثني ، فأنا الأول الآخر ، أنا الغائب الحاضر في التاريخ ، أنا الذي يحمل لكم نهاية الكون بجنة أرضية لمن تبعني و نار لاهبة لمن عاندني ، آمنوا بي تأمنوا ، أسجدوا لي تدخلون جنتي و تنعمون بما أعددت لكم ، المكابر مغتراً بماله مكانه الجحيم ، المعاند منتفخاً بسلاحه سيحرق بلا رحمة ، أنا المال و السلاح و مانح كل شئ ، أنا القوة و العلو و مانح كل شئ "
كلام هزلي ؟ نعم بالتأكيد ، لكنه لم يصل لنا بهذا الشكل ، لقد إرتجفت القلوب في كل مكان ، هناك طاقة نفسية تخرج كالشعاع من هذا الرجل مخترقة الزمان و المكان و الأبعاد كلها فتصل رسالته ذات النبرة المخيفة إلى الأعماق السحيقة في نفوسنا ..
" الآن .. تجسد إلهكم .. أسجدوا لي "
بدون تأخير سجد ملايين الجند أمامه ..
و إهتزت الأفئدة في أرجاء الأرض ..

٢

أيام مخيفة مرت بعد هذا الإعلان الإستعراضي ، أغلقت أبواب الأبنية على ساكنيها ، غابت الحكومات في أنحاء الأرض ، صوت الأذان فيه شفقة على الجميع يسألهم الحضور لكن لا مجيب ، منذ زمن بعيد و مجتمعنا لا يعرف الصلاة الجامعة ، كان الكثيرون في البداية يؤمنون بعماليق مدينتنا و قوة تسليحنا و النووي الذي نملكه ، لكن الإرتياع ظل يشتد ساعة وراء الأخرى و التلفاز يبلغنا بتحرك هذا الحاكم الجديد من دولة إلى أخرى ، الكل يسقط ، عرفنا أن خروجه من وسط آسيا ، هو على مرمى حجر منا ، لكنه لم يأت إلينا فوراً ، قام بتركيع القوى العظمى أولاً ..
النشرات تنهمر و حكومتنا غائبة ، في اليوم الأول تحركت مركبات عسكرية في الشوارع تطمئننا بالمذياع أن جماعات إرهابية سيطرت على مراكز البث في العالم و أن قادة الأرض كلها إتفقوا على سحق هذا المأفون ..
لكن غابت هذه الطمئنة بعد أيام قليلة ..
زوجتى وأبنائي ووالدي هما كل من أملك ، أغلقت باب منزلي جيداً و أخرجت سلاحي .. لن أسمح لأحد بإنتهاك بيتي .. لن أسمح لأحد بنزع زوجتى و أبي و أولادي مني ..

الجنون في الشوارع ، المؤن تكفينا لكن في الظلام عاث المجرمون بلا رقيب ينتهكون منازل من يقدرون عليه .. هرب رجال الأمن من عماليقنا الأسمنتية إلى منازلهم فأضطررت مع السكان لصنع بوابة حديدية ..
الأخبار تتوالي .. التلفاز يعرض مشاهد لا تصدق له و هو يشق ودياناً في الصحراء لمن آمنوا به .. يحول بؤسهم إلى سعادة فاتنة في لحظة .. و يحول أسعد الناس إلى كومة لحم مفروم أو محروق في لحظة إن هموا رفضوا ألوهيته ..
هناك شئ يدق في رأسي ، هذا المشهد أشعر بأنه مألوف جداً برغم أنه لا مثيل له في التاريخ .. لكن ما هو ؟
مقدمو برامج التلفاز لا يفتئون يستعرضون إنجازات الإله المتجسد و عدم جدوى رفضه ، أنتم آمنتم بالقوة ، فهو القوة مجسدة .. أنتم آمنتم بالعالم الفردوسي حيث لا مشاكل ، فبيده يخلق لكم هذا الفردوس الأرضي .. أنتم آمنتم بالنجاح و البقاء للأصلح ، وهو بمقدوره إفنائكم ليبقى وحيداً لكنه لا يفعل .. هو الأقوى .. هو الأصلح .. هو مالك الفردوس .. فكيف بكم لا تؤمنون به إلهاً ؟
في وسط هذا بدأت زوجتي تتسائل :
- ما يمنع أن يكون هو الله ؟
صرخت في غضب هادر :
- أخرسي !
تراجعت منكمشة في صمت فإذ بوالدي يوبخني :
- أجبها برفق ولين فهي ثائرة الأعصاب ..
استدرت إليه في ضيق :
- أنت يا أبي ؟ أجيب عن ماذا ؟ أيتجسد الله ؟
- قرر النزول ..
- ألسنا مسلمين ؟
- و هو قد قرر النزول و تغيير الخطة ..
- ألسنا مسلمين ؟ ألا يخبرنا القرآن بالخطة مقدماً .. إن الله ليس بشري .. و لن يكون .. الله لا يتجسد في إنسان ..
- الحقيقة يا بني أني أتساءل !
- أبي !
هتفت مستنكراً فأجابت زوجتي :
- الكل يتساءل يا زوجي و لن يفيدك كتمان الأمر .. ما الذي يمنع أن يكون هذا هو الله ؟
إعتمل الغضب بداخلي كثورة بركان ، ماذا أجيب أعز الناس لدي ؟ نظرت إلى الشاشة .. إلى مشهد لبعض قادة جيش الإله المزعوم و هم يستمعون له في إهتمام و خنوع .. على صدورهم شعار صغير ..
قمت و اقتربت من الشاشة .. لطالما حيرني عدم وضوحه .. تركتهم يتسائلون و رحت أكبر حجم الصورة ..
نعم .. كنت مصيباً ..
هذه نجمة داوود ..

***

نشرت الخبر لجيراني .. لكن لم يعد أحد يهتم كثيراً .. فوجئت أن البعض علم هذه المعلومة قبلاً ..
- اليهود يقاتلون معه .. صدقوني أنا أتذكر شئ كهذا قرأت عنه سابقاً ..
- دعنا من التاريخ الآن .. نحن في كارثة ..
- لابد أن نواجهه ..

- نواجه من يا أحمق ؟ القوى العظمى تتساقط دفاعاتها أمامه و المجتمعات التي يتوجه إليها لا تصمد كثيراً ..
- علينا ألا نؤمن به ..
- و لن نفعل ..
نظرت لجاري القائل في قلق .. لقد قال الجملة الأخيرة بصوت منخفض و بغير اقتناع .. باقي الجيران تحاشوا نظراتي .. إنتهى الاجتماع اليومي على لا شئ .. هذه المباني الكبرى لم تزدنا إلا فرقة و بعداً .. كلنا لا يريد التعرف على الآخر و لا يريد الإجتماع معه و لو للحظات ..
صعدت إلى منزلي .. فليذهب الحمقى الآخرين إلى الجحيم .. ما يهمني هو إيمان أغلى الموجودات ..
لم يفهم أحد مني تلميح كون اليهود هم جيشه .. أخبرني والدي أن الملايين يتبعونه الآن و الأمر أكبر من اليهود ..
أريد التذكر لكن حاجز مرتفع يحول بيني و بين ذلك !

٣

جاء اليوم المريع ، أظلمت السماء و تخللها نور أحمر جهنمي ، صوت تفجيرات بعيدة استمرت لدقائق .. في النهاية أعلن الخبر في التلفاز المقتنص بدعاة الغامض .. مدينتنا سقطت ..
الآن حان موعد الإختبار المألوف .. لابد أن يخضع الجميع له و إلا فالمختبئ سيتحول داره إلى عامود من النار .. لم أستطع تحمل المخاطرة فخرجت بزوجتي و أبنائي و أبي .. أهل المدينة يتحركون في الشوارع بينما وجوههم شاحبة من الخوف .. الكل يحاول تحاشي النظر للآخر و بكاء الأطفال و عويلهم لا ينقطع .. المطلوب منا هو التجمع في أكبر الميادين .. نفس ما فعله في كل مكان سابق ..
لن أساوم على ديني .. لكن من يضمن لي زوجتي و أبي ؟
في الطريق شعرت بالقلق يزداد حرارة في صدري من بعض الهمسات .. أحمق رفع رأسه ليؤكد بصوت مرتفع أنه لابد أن نسمع الرجل قبل أن نحكم عليه .. لن نصدر أحكاماً مسبقة ! بالتأكيد يحاول الحصول على مكانة عند الرجل ، تضايق منه الكثيرون ورفعت عقيرتي أنا الآخر هاتفاً أن الرجل يطلب مننا أن نكفر بالله ونتبعه هو واليهود .. كيف نستمع له ؟ نظرة مرتعدة لمعت في عيون الجميع حتى زوجتي .. البعض فضل الابتعاد عني و صاحب الصوت لم يتكلم عندما لم يجد تشجيعاً له .. ولا لي !
وصلنا للساحة الكبرى للمدينة .. مئات الآلاف لكن الميدان أصبح في اتساع قارة ! لا أفهم هذا لكن أنى الفهم و كل شئ عجيب غريب لا مثيل له من قبل ؟!
الرجل يجلس على عرش مقابل الحشود بينما جنده اليهود يحيطونه .. لكن أي يهود ؟ اليوم لا يهودية و لا دين آخر غير دين الرجل و محاولات بعض المؤمنين لصده و إيقافه بلا جدوى ..
وقف الرجل يخطب فينا ، كلامه ساحر مؤثر ، قام بخلق جنة في الهواء ثم قام بتحويلها إلى نار ، قام بخلق هيئة بشري ثم ذبحه ثم أحياه مرة أخرى ! جنون وراء جنون .. واقع وراء واقع .. امتدت الأيدي تتلمس ما يصنعه من العدم .. ليس جنوناً و ليس وهماً .. هذه الحقيقة بلا زيادة و لا نقصان .. الرجل يصنع كل ما آمن أتباع الديانات أن الإله وحده هو القادر عليه !
صرخة هائلة من وسط الحشود هتفت" إنه الدجال ! انه الدجال ! ألا تبصرون ؟ ألا تعقلون ؟ "

الدجال ؟ لا أعرف الكثير عن هذه القصص القديمة ولا أظن أحداً من الواقفين يعرف عنها شيئاً إلا النذر اليسير ! كنا جميعاً نتذكر بصورة ضبابية أقوال بعض الشيوخ لنا في الصغر عن أن هناك رجل اسمه الدجال واجب علينا الحذر منه .. لكن .. لحظة .. نعم ! هذا الرجل بالفعل يحمل الصفات التي وعيتها قديماً جداً ! الآن أتذكر تلك الصورة للمسخ المرسوم على كتاب (فتنة الدجال) الذي قرأته في طفولتي قبل أن تقوم الحكومات بحظره ..
الرعدة تسري في أوصالي فما أتذكره عن الرجل مخيف !
هتف كهل معترضاً : تقصد المسيح الدجال ؟ من أدراك أنه هو يا رجل ؟
- انه أعور .. ألا ترون ما بين حاجبيه ؟ الكفر مكتوب بين حاجبيه ! تماماً كما وصفه رسولنا في السنة .
نظرنا الى الرجل .. نعم هو أعور .. هذا غريب !
بثقة حازمة و صوت صارم رد الرجل من فوق عرشه المرتفع في الهواء " بالكذب نطقت .. من أدراك أن الدجال أعور ؟ من أدراك أن راوي السنة هذا كان صادقاً ؟ من أدراك أن السنة كلها صحيحة ؟ كتابها بشر يخطئون ! "
- رواة أحاديث الدجال ثقات معروفون .. وهم موجودون في البخاري ومسلم ..
- قدستم البخاري ومسلم ؟ أليس من الوارد الخطأ والتدليس في أي شئ ؟ فلنأخذ القرآن حكماً بيننا ، وأخبرني ، أين صفاته في قرآنكم يا مسلمون ؟
وقعت في حيرة ، لقد تم نقد السنة و تجاهل كتب الأحاديث منذ عهد بعيد ، كان رأي مفكرينا أن القرآن هو الأصح و هو الجامع .. إن عدنا إليه وحده بالفعل فلماذا لا نصدق هذا الرجل ؟
ارتفع الرجل فوق العرش إلى مسافة كافية في الهواء .. أفعال بهلوانية مخيفة و ليست مضحكة .. قال بصوت خشن جهوري له تردد عجيب يهز النفوس " أنا ربكم منزل القرآن و الانجيل و التوراة .. أنا الحي الذي لا أموت أنا الأول الآخر .. رأيتم معي المعجزات و رأيتم صفات الله في و رأيتم عجز أقوى البشر عن مواجهتي .. آمنوا بي أمنحكم جناتي أكفروا بي أعذبكم العذاب الأليم "
بحركة بطيئة فتح يديه و هو ينظر لنا من عل قائلاً بصوته المخيف " جنتي" !
وجدنا أنفسنا فجأة وسط أنهار وجداول .. طيور زرقاء وخضراء تشدو في جذل بين الأشجار ..
اهتزت النفوس انبهاراً .. كثيراً ما بث دعاته صوراً لمثل هذا الذي نراه لكن التواجد وسطه يجعل أشد العقول ثباتاً تصاب بلوثة المتعة ..
يتحسسون الأشجار ، يطالعون منازل أنيقة منحوتة بداخلها .. هتف بعضهم أن المنزل الشجري من الداخل في اتساع مدينة ! خدم وحسان .. طيور ونباتات زينة ذات ألوان و أشكال لم أر لها مثيل من قبل ..
وسط هذا الإنبهار راح البعض يهتف مؤيداً للرجل بينما ضج البعض الآخر بكلام التشكيك تبعاً للشاب الهاتف بأن الرجل هو الدجال ..
" و الآن .. جحيمي" !
ووووه .. زفير جهنمي و لهيب حارق ، المتشككين خطفتهم آلات حادة قطعت جسدهم في لحظة ، الدماء تفور من الأرض التي تحولت إلى حمم .. صرخت زوجتي مع الجميع فأمسكت بيدها و احتضنتها مع طفلاي و أنا لا أعرف كيف النجاة .. أنا أحترق لكن لا أحترق .. أتعذب لكن لا أموت .. تحلق فوق رؤوسنا أطياف سوداء لها عيون زرق و فم أحمر تطلق صرخات حيوانية حادة تخرق طبول الآذان .. واحد منا ينصهر حياً فيصرخ بلا أمل و لا نجدة فكلنا نموت .. رائحة اللحم المشوي و طبقات عضلات وجهه الحمراء الملتهبة تذوب كاشفة عظامه ..
كفى كفى .. أرجوك نجنا يا إلهي ..
" نعم أنجيكم "

توقف كل شئ بغتة .. عاد الجميع كما كانوا .. زوجتي ترتعش في أحضاني وأولادي يصرخون بلا انقطاع بينما والدي راكع على الأرض يخفي وجهه باكياً ..
الصمت يخيم على الجميع ..
الرجل في الهواء صامتاً .. ينظر إلينا من عل في صرامة ..
" إما جنتي .. أو جحيمي .. بي فآمنوا و لي فاسجدوا .. و لكم الخيار"
- الحق أحق أن يتبع .. رأينا المعجزات بأم أعيننا فكيف لا نتبع الحق ؟ من يحيي ويميت غير الله ؟
- لكن هناك من قال بأنه المسيح الدجال ..
- خرف لا أكثر ! لقد حسمنا الأمر من قديم و فصلنا القرآن عن أحاديث الماضي .. ما هذا المتعالم إلا متعصب لعلوم الأقدمين ينكر التقدم ..
- من أمامنا هو الله .. يمتلك التقدم ويمتلك المعجزات بينما نحن جهلة عاجزين .. فلنؤمن بما نراه .. فلنؤمن بما نلمسه ..
- العلم و الواقع مع ربوبيته .. فلنترك الأحاديث جانباً ..
- و خطة الله للكون التي أنزلها في القرآن ؟
- أليس الله على كل شئ قدير ؟ أعتبره غيرها !
نقاش بدأ يخفت تدريجياً .. السجود بدأ متدرجاً بطيئاً .. لكن الكل يشجع بعضه ..
تفلتت مني زوجتي بأولادي .. هتفت فيها و عيناي تدمع أن لا تفعل .. "أولادي" قالتها بحسم و سجدت .. لم أقو على ردها بينما صوت والدي الساجد يطلب مني ألا أكثر العناد " آمن يا ولدي و لا تكن شاذاً وسط الجموع " .. تأملت المشهد المهيب .. الكل ساجد ماعدا قلة لا تذكر .. الرجل يحلق مبتسماً في رضى و هو ينظر إلي منتظراً ..
" ما يمنعك أن تسجد لي ؟ لا تكن كالشيطان الذي خلقته يوماً فتكبر "
نعم .. ماذا يمنعك سوى العناد ؟ تجاهل قلبك النافر وحاول إسكاته بتذكيره بالجنة الموعودة .. آمن بما تراه وما تلمسه .. آمن بعقلك وعقلك فقط .. تاريخك كله معجزات رواها آخرون ولم ترها .. معجزات لا ترقى إلى ربع ما يقدمه هذا الاله لك الآن ..
آمن بالهك الجديد يا رجل ..
و كن من الساجدين ..

٨ ماي

Non, Rien de rien
Non, Je ne regrette rien
Ni le bien qu'on m'a fait
Ni le mal tout ça m'est bien égal

***

باريس تحتفل.. هتلر انتحر .. الاحتلال الألماني انتهى .. فيشي العميل الى الجحيم ..
فرنسا حرة .. بلد الحرية و النور .. مهد الليبرالية لكل العالم عادت لانطلاقتها ..
هنا خرج مئات الآلاف من الجزائريين يحتفلون معنا .. كنا قد وعدناهم بأنه اذا انتهت الحرب لصالحنا فسنعطيهم الحرية .. بشرط أن يشترك آلاف الجزائريين معنا في حرب التحرير .. هكذا شاركوا بكل قوة .. ألف تحية لانجلترا على هذه الخطة العبقرية التي طبقوها مع المصريين قبلاً في الحرب العالمية الأولى !
بعد انتهاء الحرب الأولى خرج المصريون يطالبون انجلترا بتنفيذ وعدها بالجلاء ! ياللحماقة !
ثم هاهم الجزائريون يخرجون بنفس المطلب .. مظاهرات سلمية تحتفل بالانتصار و الجلاء كما وعدناهم !
نفس سذاجة المسلمين في كل مكان !
قام المصريون بثورة عنيفة يوماً قابلها الإنجليز المخنثون بقمع محدود ثم استسلموا في النهاية و قرورا تصفية ثورتهم بألاعيب سياسية طويلة الأمد ..
نعم نجحوا في النهاية ..
لكننا لسنا انجليز يا حمقى !
لن نستخدم السياسة أيها الهمج !
ليكونن انتقامنا بشعاً يا ناكري الجميل ..
لقد تحررت فرنسا مرة أخرى ..
و لتدفعن الثمن على طمعكم ..

***

"الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا"
الكشافة الاسلامية الجزائرية

***

اسمي (سعال بوزيد) .. عمري ٢٢ عام .. و اليوم أشعر بالفرح ..
نهضت لأصلي الفجر .. سطيف اليوم تستعد لأولى خطوات التحرير .. لقد وعدنا الفرنسيون بالرحيل إن هم انتصروا .. قررنا أن نصدقهم .. لقد فشلت عشرات المحاولات للثورة على هؤلاء بسبب أساليبهم المجنونة في القمع .. لقد تغلغلوا في نفوسنا .. غيروا لغتنا .. غيروا هويتنا .. انهم يعتبروننا مقاطعة فرنسية ..
لكن الجزائري الحر لم يكن يؤمن بهذا .. كنا ننتظر الفرصة .. و قد اعتبرنا سقوط فرنسا أمام هتلر درساً لهم كي يذوقوا واحداً على مليون من الذل الذي أذاقوه لنا ..
انهم دائماً و أبداً احتفلوا بأن أوروبا هي الحضارة .. و الحضارة تعني (العقل) .. تعني (الشرف) ..
ماداموا كذلك فلابد أن عقلهم اعتبر مما حدث لهم .. لابد أن وعدهم لأمة كاملة هو ميثاق شرف لن يجرؤ أي منهم على اختراقه ..

الآن نحتفل بهزيمة النازية .. اليوم نحتفل بولادة الجزائر الحرة المسلمة ..
نعم يا جند فرنسا و مُنصّريها .. لم تغيروا هويتنا برغم مرور عشرات السنوات .. جعلتم في علم ولايتي الصليب لكن لم تنجحوا في زراعته بداخل قلوبنا ..
انتهيت من صلاة الفجر و خرجت مبتسماً بعدما قبلت والدتي .. لقد عملت قبلاً في خدمة الفرنسيين الأوغاد الذين اعتبروا نفسهم أسيادنا .. اضطررت يوماً أنا الآخر أن أعمل عندهم .. لكن هذا الزمن قد انتهى الى الأبد ..

***

في طريقي الى المسيرة الكبرى التي نظمها أهل سطيف .. الجزائر كلها خرجت اليوم ترفع رايات التحرير .. من حظي أنني الوحيد في المسيرة الذي حمل راية الجزائر الحرة .. حذرني بعض رفاقي في المسيرة من خطورة استفزاز القوات الفرنسية ان لوحت بهذا العلم ..
لكني لم أبالي ..
الآن نتنسم الحرية ..
وصلت المسيرة الكبيرة الى نقطة تمركز قوات فرنسية ..
الأناشيد تهز السماء .. حرية حرية ..
ينظرون لنا في اشمئزاز .. تقدم قائد فرنسي إلينا وطالبني بانزال راية الجزائر الحرة ..
لا والله .. لقد تعلمنا في الكشافة الاسلامية أن لا ننكس راية جزائر الإسلام العربية ..
هكذا علمني قائدي (محمد بوراس) الذي أعدمتموه غيلة في أول الحرب ..
رفضت طلبه .. تحفزت الجماهير .. تحفز الجنود من الجهة الأخرى ..
صوت بومة تنعق في السماء .. الصمت للحظة واحدة ساد سطيف كلها ..
رفع الفرنسي سلاحه وبلا تفاهم أطلقه في صدري ..

***

بين زغاريد النساء و دموعها كانت روحي تراقب المشهد المؤلم ..
لقد انطلقت الرصاصات الفرنسية تفرق الجميع بكل همجية ..
فرنسا الليبرالية .. فرنسا النور و التنوير .. فرنسا الحضارة .. فرنسا الشرف ..
حاولت النزول مرة أخرى لكن نظرة الى أعلى جعلتني أعدل عن رأيي ..
اصمدوا يا أهلي ..
ووداعاً ..
فقط تذكروا اسمي ...
(سعال بوزيد)

***

Avec mes souvenire
J'ai allumé le feu

***

تريدون الحرية يا مسلمي الجزائر ؟
خذوا حرية !
سنحرر أرواحكم نفسها من أجسادكم !
مثير للسخرية أنه بعد قرابة مائة عام من الاحتلال لم تفهمونا بعد !
اننا أهل الفلسفة و الفكر ..

و أهل الفلسفة لديهم مفاهيم كثيرة للحرية قد لا تفهمونها أنتم بعقولكم القاصرة المسلمة !
أنظر مثلاً لهذا العجوز و أولاده .. يسكنون في الصحراء و مع ذلك لم يردع هذا ابنه الأكبر عن المشاركة في التظاهرات بداخل المدينة !
لقد قررنا تحرير هذا العجوز و أولاده !
سنحررهم من هذه العيشة المقرفة ! من هذا الذي يعيش في الصحراء بتلك الصورة البدائية يا رجل ؟ فلتتحرر ..
هكذا أوقفناه و أولاده وبناته ثم أطلقنا النار على الجميع !
كنا نضحك في هيستريا .. في الظروف العادية كان جنودنا يأخذون النساء لمزيد من المرح فيما بعد .. لكن الأوامر جاءت هذه المرة صارمة : استخدموا خيالكم الحر ولا تبقوا أحياء قدر الإمكان !
هكذا قتلنا الجميع ثم أشعلنا النار في خيمتهم ..
تؤمنون أن هناك إله قادر و جنة ؟ تؤمنون أن الحرية في الشهادة ؟ اذن فخذوا المزيد منها عن طريق أسيادكم الفرنسيين !
أليست هذه حرية ؟
آه يا ناكري الجميل .. بعد سنوات ستغني اديت بياف بصوتها الباكي أغنية توضح أننا لسنا نادمين عن ماضينا في التنوير برغم نكران الجميل ..
لها كل الحق طبعاً .. بعد كل هذه السنوات من التنوير ترتدي نساؤكم تلك الخيمة المسماة بالحجاب ؟
تستحقون القتل طبعاً !

***

الكثير من النساء المحجبات وقعن في الأسر بعدما قتل أزواجهن على أيدي جنود فرنسا الحرة ..
ماذا نفعل بهن ؟ تذكر الأوامر ..
أخرج روح الفرنسي الأوروبي الحر بداخلك ..
هكذا أمرت جنودي بتحميل سيارتي نقل عسكري بهن .. غريب أنهن أصررن على عدم رفع حجابهن حتى لو قتلن !
تحركت السيارات وسط الجبال .. نظرت للهاوية بجانبي فوجدت أخدوداً واسعاً عميقاً ..
أمرت السيارات بالتوقف ..
نزلت و أشرت لسيارات النقل التي تحمل النساء بالتحرك كي تجعل خلفيتها المفتوحة تطل مباشرة على الأخدود ..
بصوت عال أمرت النساء بالقفز !
يالأشكالهم القبيحة بهذا الحجاب الأبيض .. يظنون أنهم يبدون كالملائكة .. اذن فلنجعلهم ملائكة موت !
ظلت النساء واقفات بلا حركة و إن علا نشيج بعضهن .. هناك أربعة أطفال رضع .. حاولت احداهن الاستغاثة فأثارني هذا بصورة أشد ..
" افتحوا النار "
هكذا أمرت جنودي بعصبية فانطلقت الرصاصات كالمطر .. تعمد جنودي أن تكون الرصاصات للتخويف فقط .. لا يريدون قتلهن بالرصاص و تفويت المشهد الممتع القادم !
هكذا راحت النساء تقفز من السيارات الى الأخدود العميق .. الوقوف معناه الموت المؤكد والقفز معناه ....
لا أدري ما معناه ! لكن من قال أن هؤلاء المسلمات يفكرن أساساً !
قفزت آخر امرأة مع طفلها وصرخاتها تدوي بين الجبال فأمرت الجنود بالصعود للسيارات ..

أمامنا عمل شاق ..
تحركت نحو حافة الأخدود و نظرت الى الهوة السحيقة بين الجبلين .. عشرات منهن في الأعماق وقد تلوث ردائهن باللون الأحمر ..
لكن الأخدود لم يكن مزدحماً بجثثهن فقط ..
كانت هناك عشرات الجثث الأخرى المتحللة لكل من قررت اعدامهم بهذه الطريقة !
ان فرنسا أمرت كل قائد وجندي أن يستخدم مخيلته في القتل الجماعي .. و الحقيقة أنني وجدت هذا هو الأسلوب المفضل بالنسبة لي ..
ليس كالذبح مثلما يفعل البعض وليس كالدفن حياً مثلما انتهج البعض الآخر ..
يبدو أسلوبي أكثر مرحاً بكثير ..
بل هو بالتأكيد أكثر رقة من الحرق الجماعي الذي يؤمن به بعض الجنرالات الفرنسيين كوسيلة لقمع الجزائريين ..
مهلاً !
هناك شئ يتحرك بالأسفل ..
طفل عمره عامان نجا من السقطة ويتحرك ؟!
لابد أن أمه استخدمت جسدها كدرع لتحميه أثر السقطة أو أي شئ !
يا للحمقاء ..
ضحكت ساخراً من هاته المغفلات المسلمات .. ان الطفل جالس بجوار أمه ليبكي .. لابد أنه يطلب منها أن تصحو لتنجده من المشهد البشع لعشرات الجثث المحيطة به ... دعك من أوضاعهن الغريبة تشريحياً .. لابد أنه سينهض ليلاً ليجد الجثث المتحلله و المتعفنه ..
ياله من مشهد !
لا أحب أن أرى هذا المشهد أكثر من هذا .. قلبي ليس بهذه القسوة ..
استدرت و أمرت الجنود بالتحرك .. يوماً ما سيكتبون عن هذه الأفعال و المذابح .. أنا واثق من هذا ..
لكني واثق كذلك أن أغلب البشر لن يصدق أبداً أننا قد صنعنا هذا الهول !

***

Balayés pour toujours
Je repars à zero

***

وسط دوي مدافع البحرية الفرنسية التي قررت ابادة أهل احدى المدن الساحلية بمساعدة الطيران الذي يقصف من الجو بلا هوادة ..
كنا قد أكملنا عام كامل ..
عام كامل من الابادة ..
الجبال و الصحاري امتلأت بالدماء ..
فرنسا أقامت احتفالاً تاريخياً جباراً بنهاية الحرب العالمية الثانية ..
قتل الفرنسيون حوالي خمسون ألفاً من أهلنا الجزائريين المسالمين الذي تجرؤوا و طالبوا بحريتهم كما تحررت أوروبا ..
عقاب فرنسا شديد همجي كالمعتاد .. لا تفهم السياسة و المكائد و لا تحبها كجيرانها الانجليز .. تؤمن بأن باقي البشر و خاصة المسلمين هم مجرد حيوانات بدائية متوحشة ..

هكذا انتهى عام ٤٦ و قد وعينا الدرس ..
لا رحيل لمحتل دون تضحية لا تتوقف ..
و الآن ..
أقسم بربي يا فرنسا أنك سترحلين ..
لا تفاوض بعد اليوم يا فرنسا ..
و انما جهاد ..
نصر ..
أو شهادة ..

***

نحن جند في سبيل الحق ثرنا
و إلى استقلالنا بالحرب قمنا
لم يكن يصغى لنا لما نطقنا
فاتخذنا رنة البارود وزنا
و عزفنا نغمة الرشاش لحنا
وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر
فاشهدوا... فاشهدوا... فاشهدوا...

*

يا فرنسا قد مضى وقت العتاب
و طويناه كما يطوى الكتاب
يا فرنسا إن ذا يوم الحساب
فاستعدي وخذي منا الجواب
ان في ثورتنا فصل الخطاب
و عقدنا العزم أن تحيا الجزائر
فاشهدوا...
فاشهدوا...
فاشهدوا...

في مركز الكون

كانوا يدورون أمامي .. بينما المنشد يشدو بصوت عذب بلا توقف ..
رائحة البخور العطرة .. الجو البارد المنعش ..
لم أستطع منع نفسي .. انضممت اليهم وبدأت أدور حول نفسي .. أدور .. أدور وأدور .. غبت عن الدنيا كما نعرفها .. فقد جسدي الوجود والتماسك .. روحي اندمجت بذرات الكرة الأرضيه .. أدور معها بلا توقف وسط الكون الهائل اللانهائي..
و من أبعد مسافة من الفضاء ..
من الأبدية الغامضة ..
جاء الصوت العذب الشجي :

مولاي صل وسلم دائماً أبداً
على حبيبك خير الخلق كلهم
محمد سيد الكونين والثقلين
والفريقين من عرب ومن عجم
مولاي صل وسلم دائماً أبداً
على حبيبك خير الخلق كلهم

***

أين أنت يا رسول الله ؟
هل نحبك حقاً ؟
انهم يسبونك يا رسول الله .. يهزئون بشريعتك .. يهزئون بسمتك وفعالك وسمت زوجاتك .. انني على قيد الحياة لازلت يا رسول الله .. سمعت كل هذا ولم أمت كمداً .. انني ميت يا رسول الله فأين أنت ؟ هل تحبني يا رسول الله ؟ انني لا أموت فألقاك .. لا أعرف كيف أواجهك يوم القيامة .. هل أنت غاضب مني يا رسول الله ؟ لا لم أمت عندما سخروا من دينك .. لا لم أمت عندما احتقروا شريعتك .. لا لم أمت عندما سبوا زوجاتك .. لا لم أمت عندما افتروا على صحابتك .. لا لم أمت عندما رأيت منا من يطلب الحوار مع كل السابقين .. لم أمت يا رسول الله وليتني فعلت ..
انني أدور يا رسول الله .. انني ثور يدور في الدنيا بلا توقف .. أخاف التوقف والتفكير يا رسول الله .. أخاف التأمل حتى لا أموت ..
يا حبيب الله .. يا رسول الله .. تأمل ورطتي في هذه الدنيا .. سامحني يوم لقياك يا خير الخلق .. سامحني عندما أتشكك في حبي لك .. كيف أصدق حبي لك وأنا على قيد الحياة في مجتمع يأنف أبو جهل من العيش وسطه ؟ كيف أصدق حبي لك و المسلمين من عرب و عجم يذوقون الهوان والذل وأنا في مكاني لا أفعل شيئاً سوى البحث عن رزق حياتي ؟ أبنائك يا رسول الله يُذبحون وأنا مشغول عنهم .. مربوط بحدود وهمية رسمها بيننا أعدى أعدائك .. لن أنقذ أبنائك يا رسول الله لأنهم ليسوا من جنسيتي التي أعطاني اياها فرنسي وانجليزي !
هكذا أنا كاذب في صدق محبتي لك يا رسول الله .. سامحني يا رسول الله ..
أحاول انقاذ روحي في مدينتك يا رسول الله .. فلا أرى فيها سوى بلاط فاخر وأضواء مبهرة و محلات متعددة ..
أنت لست معنا يا رسول الله .. حتى في مدينتك غبت عنا يا حبيبي .. فسامحني يوم ألقاك ..

***

أدور أدور أدور .. أنا مركز الكون ..
والصوت الشادي لا يتوقف أبداً :

هو الحبيب الذي ترجى شفاعته
لكل هول من الأهوال مقتحم
مولاي صل وسلم دائماً أبداً
على حبيبك خير الخلق كلهم
***

أرجو شفاعتك ؟
لا .. لا أظنك سترضى ..
أتدري يا رسول الله .. انني أعيش في بلد فيه عجائز ينامون في البرد تحت المطر .. ومع ذلك أنام قرير العين .. لا أرق لهم و لا أشفع يا رسول الله فكيف استحق شفاعتك ؟
أتدري يا رسول الله .. انني أعيش في بلد فيه أطفال لا يجدون قوت يومهم يدورون في الشوارع يومياً يشحذون مني ولو لقمة فأكتفي بأن أعطيهم مبلغاً ضئيلاً وأرحل الى وجهتي .. أعرف أنهم سيموتون أو سيكونون مجرمين .. أعرف أنهم لا يملكون ديناً لأنهم لا يملكون مكاناً ينامون فيه أصلاً سوى مقالب القمامة ..
ومع ذلك لا أرق لهم ولا أشفع يا رسول الله فكيف أستحق شفاعتك ؟
لماذا أستحقها يا رسول الله ان كنت بهذه القسوة مع أخواني وأبنائك من المسلمين ؟
أخاف لقياك يا رسول الله .. هذه هي الحقيقة ..
***

أدور بلا توقف .. لا أشعر بالرغبة في العودة الى جسدي .. انني كوكب يسبح في الفضاء .. لماذا أتوقف ؟

النشيد هو الآخر لا يتوقف :

ثم الرضا عن أبي بكر وعن عمرٍ
وعن علي وعن عثمان ذي الكرم
مولاي صلي وسلم دائماً
على حبيبك خير الخلق كلهم
***

دائماً ما أتصورك يا سيدي أبي بكر في صورة الجد الأشيب العجوز الطيب ، ذلك الرجل الهادئ الصديق الذي عرف الحق مبكراً فوقف بجواره حتى في أشد لحظات الفتنة ..
ما قولك يا جدي و يا حبيبي في حفيدك الذي يضع يده في يد من يسبك ؟ ما قولك يا جدي ويا حبيبي في حفيدك الذي لا يعرف عنك أكثر من اسمك ؟ ما قولك يا جدي ويا حبيبي في حفيدك التائه الذي يضطرب ويتحرك صوب الالحاد لمجرد فتنة بسيطة يتعرض لها ؟ أنت الصديق الثابت كالطود جاء من نسلك أحفاد بهذه الهشاشة ..
هل تُصدق ضعفنا الحالي يا جدي ؟ هل تُصدق قلة ايماننا هذه يا حبيبي ؟ ألا ترغب في أن تعاقبنا يا سيدي ..
تعال يا جدي وعلمنا الايمان والثبات ..
ألم تدري ما أحدثنا بعدك يا سيدي عمر ؟ لك الحق أن تنظر لي في ضيق .. أكاد أشعر بالألم من درتك .. أعلم أنه لولا غيابك عنا لأقمت فينا الحدود بلا رحمة .. نستحقها يا فاروق بين الحق والباطل .. تعال يا فاروق علمنا

كيف نعرف الحق من الباطل .. علم أحفادك الذين أصبحوا لا يعرفون الحق من الباطل .. أصبحوا لا يدركون الرايات فينضم بعضهم تحت لواء معاد لشرع نبينا وحبيبنا .. أصبحوا ينكرون الفرق بين المسلمين وغيرهم أيها (الفاروق) ! أنقذنا بدرتك فنحن نستحقها .. أنقذنا بدرتك فما شردنا الا غيابها ..

عثمان .. سيدي وحبيبي .. تعال علمنا الحياء فقد نسيناه ، لقد استحى منك رسول الله يوماً يا حبيبي وجدي .. فتعال وشاهد معي اليوم أحفادك لا يستحون من ارتداء ما يكشف عوراتهم .. انهم ذكور يا جدي فلا تندهش .. يقومون باسقاط بنطالهم كمسايرة لمفاهيم الجيل .. نعم يا جدي هم ذكور .. لن أحكي لك على النساء يا جدي الحيي .. لو رأيتهن لتبرأت مني ومنهم الى الأبد .. لم يغب الحياء يا جدي وسيدي .. بل مات .. تعال يا جدي وتحملنا أرجوك .. تحملنا وعلمنا ما هو الحياء ..

يا سيدي علي .. أيها الحكيم .. أنقذنا يا علي ممن يدعون أن الحكمة هي في السجود لغير الله .. تعال أيها الحكيم لتعلمهم أن السجود لغير الله مذلة .. علمهم الحكمة يا امامنا فقد تعبنا من حكمتهم التي يدعونها .. علمهم يا منبع التمسك بالحق وبالكلمة وسط الأخطار والأهوال .. يا من خضت بحر الفتنة شاهراً سيفك لا تبالي سوى بالحق وحده .. علمهم

أن الحكيم كثيراً ما يكون شاهراً سيفه وليس العكس ..

نحتاجكم يا صحابة رسول الله .. نحتاجك يا سيدي أبو بكر و يا سيدي عمر ويا سيدي علي ويا سيدي عُثمان .. أنجدونا ..

****

شارفت الأرض على التوقف .. انها النهاية تقترب .. هل يجئ الموت بعد التوقف ؟ هل سيكون بمقدوري ان توقفت أن أراك يا رسول الله ؟ هل سيكون بمقدوري أن أراكم يا أسيادنا الخلفاء الراشدين ؟ هل ستحبونني كما أحبكم ؟ هل ستعرفوني كما أعرفكم ؟

قبل التوقف تماماً كانت رائحة البخور تغيب بينما الصوت يشدو مبتعداً :

يا ربي بالمصطفى بلغ مقاصدنا
واغفر لنا ما مضى يا واسع الكرم
مولاي صلي وسلم دائماً أبداً
على حبيبك خير الخلق كلهم
مولاي صلي وسلم دائماً أبداً
على حبيبك خير الخلق كلهم

آخر الطابور

اليوم انتخابات ..
نزل الملايين بفرحة وسعادة ..
الجميع عقدوا النية على إنجاح التيار الإسلامي في البرلمان هذه المرة ..
سيكسرون أسطورة أصنام أعداء الإسلاميين ..
في هذا البرلمان سيكتب الجميع نهاية حكايتهم في هذا البلد ..
و اليوم .. بالصناديق المؤدية للبرلمان .. ستكون نهاية البداية ..

***

وقف (منسي) في الطابور المؤدي للجنة الإقتراع ..
كانت على وجهه إبتسامة حالمة .. التيار الحبيب قادم .. الإسلاميون قادمون .. في سبيل الله نمضي .. رددي يا جبال رددي يا سهول ..
ساعات يا أوغاد و الإسلاميين يجتاحون كالموج المتدفق بلا نهاية ..
الإسلام قادم ..

***

إقترب منه شاب ملتح ، على وجهه إبتسامة مرحبة أنيقة ، بدأه بالسلام فرد عليه ببشر وسعادة ..
- من ستنتخب يا أخي ؟
- لم أحدد بعد.. سأنتخب التيار الإسلامي عامة ..
- إذن فعليك بحزب (الشعلة) .. هو الحزب الوحيد الثائر الذي صمد أمام الطواغيت حين باع الجميع القضية ..
- لكن ..
قاطعهما شاب ملتح آخر كان واقفاً بالقرب منهما ، قائلاً لمندوب (الشعلة) في ضيق :
- لا تتاجر بثوريتك .. إن كنت تعتبر حزبك ضد الطواغيت فلماذا نزلت معنا العمل السياسي ؟
في عصبية رد عليه الشاب الأول :
- نزلت لأغير الواقع المرير الذي أفسدتموه ..
- لولانا ولولا عقلاؤنا في حزب (المصابيح) ما كان لك أن تعيش هذا الواقع ..
- بل لولا ثوريتنا التي أوقفت الطواغيت لكان حالكم الآن في المعتقلات ..
اقترب شاب ثالث غير ملتح على صدره شعار حزب (الحضارة) قائلاً :
- نحن من كنا في الثورة منذ البداية .. نحن كنا قبل أن توجدوا أصلاً ..
رد عليه مندوب حزب (الشعلة) :
- لكنكم بعتمونا من أجل الطواغيت ..
تكهرب الموقف .. رد مندوب حزب (المصابيح) :
- بل أنتم من عقولكم تأبى إحترام الإختلاف في الرؤية .. نحن لم نبع أحداً .. أنتم بتهوركم كنتم ستضيعوننا جميعاً ..
في حزم قال مندوب حزب (الحضارة) :
- هذا صحيح .. إننا نقبل الجميع ونحتضن الجميع لكنكم تدفعوننا لمعارك ليس وقتها الآن ..
هتف مندوب (الشعلة) في غيظ :

- دائماً ليس وقتها .. منذ قديم ونحن نتلقى الصفعات المتتالية ولا يوقفها نجاح وراء نجاح كما تدعون .. بل كلما زادت النجاحات الزائفة ازداد الأذى وإشتد ..
في صوت واحد قال مندوبا حزب (الحضارة) و (المصابيح) :
- الغد أفضل لا محالة .. الصبر أيها المتهور ..
- لا صبر ..
- ما دمت لا تعرف الصبر .. لماذا نزلت الإنتخابات ؟ لماذا لم تُكملها ثورة حتى النهاية ؟ إن نزولك معناه قبولك بالصبر من أجل التغيير و إعتراف منك بعدم جدوى إكمال الأمر ثورة دائمة ..
- أنتم من دفعتمونا لهذا ..
- لا تتحجج بنا .. إن تاريخك معنا ما هو إلا رفض لكلامنا في التهدئة .. قلنا لابد من التهدئة حتى جعلها إسلامية بالكامل ..
هنا تدخلت فتاة عارية الشعر هاتفة في انتصار :
- ها أنتم يا حمقى تعترفون أمام الجميع أنكم تريدونها إسلامية و أن الغد سيحمل المزيد من هيمنتكم ..
بسرعة تراجع مندوب حزب (الحضارة) هاتفاً :
- إن قيمنا الإسلامية لا تعني الصدام معكم .. اننا وسطيون ولسنا مثل حزب (المصابيح) المتشدد ..
هتف مندوب حزب (المصابيح) في غيظ :
- تباً لك أيها المتساهل .. أتخوننا عند أقرب فرصة ؟
في غيظ أشد رد مندوب (الحضارة) :
- أي تساهل يا رجل وحياتي كلها ضاعت من أجل ديني ؟ أي خيانة يا رجل و قد رأيتك تحادث العسكري الذي يؤمن اللجنة من أجل تسهيل دخولك اليها متى شئت !
- أتُنكر عليّ ما فعلته بينما رأيتك بالأمس مع هذا العسكري تتناولان العشاء ؟
هنا هتف مندوب حزب (الشعلة) :
- ها أنتما تعترفان بأنكما أصدقاء العسكري ..
- ألهذا تتهمنا بمجاورة الطواغيت ؟ الأيام قادمة يا عزيزي وسنعرف قريباً من الذي سيتنازل بلا توقف !
هتفت الفتاة في الواقفين :
- أنقذوا بلدنا من هؤلاء .. الإسلام يعني العودة لعصور التخلف .. أنقذونا من التعصب والجهل ..
بابتسامة سريعة قال مندوب الحضارة :
- أقسم لك أننا نؤمن بوسطية الإسلام .. إن الشريعة عندنا متسعة وسطية حتى ان الحدود التي تخيفكم قابلة للحوار والتوافق ..
هنا ظهر مندوب حزب (الشمس) فجأة ليهتف بعصبية بالغة :
- لا توافق ولا وسطية .. أنتم أبعد الناس عن الوسطية ..
ثم اقترب مندوب (الشمس) من الفتاة ليمسك يدها قائلاً :
- حزب (الشمس) هو الوحيد الباحث عن توافق حقيقي .. اننا أهل الوسطية ولا نقبل أي متشدد من أي تيار .. عندنا الشيوعي والقومي والإسلامي يعيشون معاً في سلام ..
ظهر شاب من حزب آخر ونزع يده من الفتاة هاتفاً :
- بل مرجعيتكم في النهاية شبيهة بمرجعية هؤلاء .. اننا أهل الوسط الحقيقي .. أن تاريخنا كله هو التوافق بلا فرض لمرجعية معينة ..
أمسك مندوب (الحضارة) بيد الفتاة ليواجههم هاتفاً في غضب :

- كنتم منا وتركتمونا .. كُفوا عن هذه الألاعيب الصبيانية فما تعلمتم الوسطية إلا منا !
كشر مندوب (المصابيح) عن أنيابه هاتفاً :
- أترغبون حقاً في التنافس على لقب أنتم أبعد الناس عنه ؟ إننا أهل الوسطية الحقة ..
وسط بين المفرطين ..
و استدار بسرعة هاتفاً وهو يشير الى رجل ملتح جالس على الناحية الأخرى من الرصيف :
- وبين المتطرفين ..
ابتسم الملتحي الجالس في سخرية وأخرج من جيبه مسدساً كبيراً قام بتنظيفه متجاهلاً المعركة الدائرة ..
شعر (منسي) بالضيق الشديد من الجدال الدائر ..
-أنا وسطي ..
- بل أنا الوسطي ..
- معنا التوافق ..
- أثبت التاريخ أن التوافق مرتبط بنا ..
- أنا ثوري ..
- أنا حكيم ..
- معي مشاريع بناء المستقبل..
- لا بناء دون هدم الباطل .. معي مشاريع هدم الباطل ..
- أي هدم للباطل وقد تحالفتم مع أهله سابقاً ؟
- أنت متهور ..
- أنت عميل ..
- هذا لا يعمل الا لمصلحته ..
- أنتم متطرفون .. نحن الوسطيون ..
- كلكم متطرفون .. (هُبل) هو الحل ..
- الإسلام هو الحل ..
- انه شعارنا التاريخي ..
- و تركتموه لنستعمله نحن ..
- هل تمزح ؟
- لا أمزح .. مع شيخنا وملهمنا سنعمل على تطبيقه ..
- بل مع جماعتنا بدأ التطبيق فعلياً ..
- والله لا إسلام بلا دعوة .. بالدعوة ينجح التطبيق ..
- لا تطبيق لمفاهيمكم .. الإسلام أصلاً مُطبق .. لو كنتم وسطيون لفهمتم هذه الحقيقة البديهية منذ زمن !
- دعوكم من كل هذا الغثاء .. (هُبل) هو الحل ولا حل سواه ..
خرج منسي من الطابور المُصاب بالإرتباك ، تحرك نحو الجالس يُنظف مسدسه .. شعر بأنه مُختلف .. قابله الرجل بوجه جامد ..
- لماذا لا تُشاركنا عُرس الديموقراطية هذا ؟ ألا ترغب في عودة الإسلام ؟
أشار الرجل بسبابته الى الجمع المُشتبك في الناحية الأخرى قائلاً في سخرية :
- وهل سيعود الإسلام بهذه المعركة أمام الطابور الحائر ؟
- و كيف سيعود ؟

رفع مسدسه قائلاً في صرامة :
- بهذا فقط سيعود ..
- لكن ضد من ستستخدمه ؟
- لن أستخدمه ..
- لكن مادمت لن تستخدمه .. ماذا ستفعل الآن ؟
- أُراقب و أسخر من هذه المسرحية السخيفة ..
- تُراقب ؟ ألن تعمل أنت الآخر ؟
أشار الملتحي الى عسكري تأمين اللجنة قائلاً في اشمئزاز :
- هذا يمنعني من العمل .. يُخبرني أنه مادمت لا أملك حزباً ديموقراطياً ممنوع علي التحدث لمن في الطابور ..
- والحل ؟
- الصبر ..
- أي صبر ؟ الكل يعمل بمجهود رهيب و أنت جالس للسخرية !
- يعملون للسراب ..
- وهل من وراء جلستك هذه إلا السراب ؟
- لن أستخدم سلاحي ..
- وأنا أرفض أن تستخدمه ..
- اذن لن أعمل !
- لا عمل دون سلاح ؟
- لا عمل دون سلاح .
- والحل ؟
- القيامة قريبة .. الدجال قادم و الملاحم ارهاصاتها تملأ الأجواء ..
- أتنتظر القيامة ؟
- في الملاحم يبدأ العمل !
- أتتفرغ للسخرية من العاملين و الرثاء على الطابور ؟
-ليس أمامي غير ذلك .. والا الرحيل من هذا الرصيف ..
- وما مشروعك ؟ ما هو البديل الذي تقدمه ؟
- بالسلاح أهدم .. وبالسلاح أبني ..
- لكن .. أين مشروعك ؟ أين البديل ؟
- بالسلاح أهدم .. وبالسلاح أبني ..
اقترب من الجالس رجل آخر يرتدي السواد هتف فيه غاضباً :
- أنت أحمق ! أيها الجالس أفق ! بالسلاح اقتل العسكري و الدجالين !
- لا أقدر .. لقد وجدته يقرأ في المصحف منذ قليل .. والواقفون حمقى لكن أبرياء ..
- لا أحد برئ .. لا أحد برئ ..
تركهما (منسي) و رجع مبلبل الفِكر .. كان الجدال لازال مُستمراً بين الجميع .. الطابور بدأ بالإشتباك مع بعضه البعض .. كل شخص يسأل الآخر عن الحزب الذي اختاره .. و ما إن يجده حزب مُخالف حتى يشتبك معه في معركة لفظية .. وجد (منسي) الطريق مفتوحاً للجنة الانتخاب .. تحرك وسط التراشق ليجد العسكري يقوم بعد عملات ذهبية و على وجهه ابتسامة ساخرة لا مبالية متجاهلاً المعركة الساخنة ..

دخل (منسي) الى اللجنة فوجدها مزدحمة بالأجانب !
ارتفع حاجبيه في دهشة ، قال له رئيس اللجنة بلكنة غربية واضحة :
- ضع صوتك في الصندوق للحزب الذي ترغبه !
شعر (منسي) بالغرابة و الذعر يتسرب بداخله ، صرخ ملتاعاً :
- أين أنا ؟ من أنتم ؟ أريد إعادة الإسلام ..
نهض رئيس اللجنة قائلاً وعلى وجهه ابتسامة فيها مكر و سخرية :
- جميل .. ضع صوتك للحزب الإسلامي الذي تريده ..
و سنعيد إلى بلدك الإسلام !

ماهي

(ماهي) هي أجمل من في الكلية .. هذا متفق عليه بلا جدال ..
بل هي أجمل من في جامعة القاهرة كلها .. عشرات الآلاف من الفتيات موجودات لكنها أجملهن جميعاً ..
و إن كنت لا تثق برأي ريفي بسيط مثلي فلتثق برأي أساطين الجامعة من الشباب (الثري) و (الوسيم) الشبيه بممثلي السينما .. كلهم يؤمنون بهذا دون جدال أو شك .. كلهم يحاولون معها بلا أمل .. هناك جمال معين يتحول الى رمز يرفض الخصخصة .. ويحافظ الجميع بإتفاق سري غير شفهي أن تظل بلا خصخصة !
شقراء بيضاء ذات أعين عسلية .. هناك آلاف الفتيات مثلها في العالم لكن حتى أكثر الشباب سفراً و ترحالاً يقسم أنه لم ير مثلها .. ملامحها غير طبيعية فعلاً .. ثرية من أسرة معروفة جداً .. مازال اللغز الأكبر لدينا هو كيف سمح أهلها بأن تجئ لتختلط بنا نحن طلبة (التعليم المجاني) و عندها الجامعات اللائقة بمستواها الإجتماعي .. و الجمالي !
اتفقنا على جمالها الخلاب الغير طبيعي ؟ اتفقنا على ثرائها ؟
أنا (خالد منصور سعيد بيومي) .. شاب من أرياف الشرقية .. من قرية تعتبر السكنى في مدينة (الزقازيق) رفاهية كبرى .. متدين بشدة لي توجه معين أفخر بالإنتماء اليه .. لحيتي الغير مهندمة و بشرتي المشققة و لهجتي الريفية القوية يمنعون سهولة اختلاطي مع الجميع منذ أتيت الى القاهرة للدراسة .. حياتي غالباً من المدينة الجامعية الى المحاضرات و العكس .. في غرفتي بالمدينة شابان لهم نفس توجهي و شاب ثالث (شبه منحرف) !
اسمي غير مميز كما ترون .. وجهي غير مميز .. ثقافتي عادية مقتصرة على بعض الكتب الدينية البسيطة .. مستواي العلمي متوسط أو أقل من المتوسط .. حالتي المادية بالنسبة لقريتي معقولة و بالنسبة لهذه المدينة في أدنى الدرجات !
هذا أنا و هذه ماهي ..
أظن أنه لم يعد صعباً عليكم فهم الفكرة التي أكتب من أجلها : أنا أحب ماهي ..
بل الحقيقة .. أنا أعشقها .. لا أستطيع النوم منذ رأيتها .. و لا أتصورها مع أحد غيري !

***

و ماذا بعد ؟ ان كنت تنتظر مني قصة عن محاولاتي للتعرف عليها أو عذابي كل ليلة فسأخيب أملك ..
الأمر أبسط من هذا .. لن أحاول التعرف على فتاة حتى لو رضت بي ووقعت أسيرة في هواي و أتى والدها يعرض على نصف ممتلكاته و التعيين ملكاً لجزر القمر مقابل الزواج بها ، فرقبتي ستطير فور معرفة أهلي بالخبر و رؤية والدي لرأسها الأشقر الغير متوج بحجاب ملكات العفة ..
و كذلك برغم أن قلبي يشعر بإنقباضة تعصره عندما أتذكرها ، إلا أن الحياة أبسط من الأفلام و الروايات و أقل عذاباً مما تبدو فيهما .. الأمر حقيقة لا يستأهل الحكي لأنه لا عذاب مروع هنا ..
سأحكي لك عن محاولتي التخلص من حب فتاة لم تعرفني يوماً و لن تعرفني أبداً ! و مع ذلك تُعذبني !

***

نظر لي محمود في دهشة ساخرة قائلاً :
- هذه جديدة يا عم الشيخ !
قلت له في سخرية مماثلة :
- كنت أظنك ستخبرني بأنك شاهدتها في ألف فيلم سابق يا خبير السينما !

- ليس بين شيخ و فتاة كهذه .. ربما فيلم الإرهابي ؟ لكن لا .. أنت لست ارهابياً و حالتك فريدة .. لست تافهًا إمعة مثل أحمد عيد في (أنا مش معاهم) و لست كحالة هنيدي في ابن العمدة في الجامعة الأمريكية ! أنت حالة جديدة حتى بالنسبة للأفلام يا صديقي !
- و أنا لم أبح لك بهذا لتبحث في الأفلام عن شبيه .. أخبرني ما الحل ..
اتسعت عينا محمود قائلاً :
- هل تتكلم بجدية ؟ تسألني عن حل لماذا ؟! أنت تحب فتاة لا يكافئها إلا رئيس اتحاد طلاب المجموعة الشمسية ! هناك شباب أفضل منك مليون مرة في الكلية يشعرون بأنهم أقل من أن ترضى ماهي بهم .. ثم تطلب مني أنا الحل ! لو عرفت حلاً لأستخدمته و تقدمت أنا شخصياً لها يا عبقري زمانك !
- أنا لا أريد وصالها بل أريد نسيانها ! ثم انني كنت أعتقد أنك خبير في الأمور النسائية !
- أي خبرة يا معتوه ؟ أنا زنديق وسط المتدينين متدين وسط الزنادقة ! أحب رؤية البنات و أطوف حولهن مع بعض الأصدقاء الخبراء لكني لا أحب التعرف عليهن و الانخراط في صداقات كاذبة في نفس ذات الوقت لأني مؤمن بحرمتها ! أنت و (إجماع الشيخان) فقط من تعتقدون زندقتي و خبرتي لأني أقف في مجموعات مختلطة !
كان يطلق على (عبد السلام بيومي) و (محمود السنوسي) زميلانا في الغرفة ، الشيخان و رأيهما عنده (اجماع الشيخان) و إن كان يتحاشى ذكر هذه الكلمة أمامهما كيلا يوبخانه .. خاصة (عبد السلام) سريع الإنفجار ..
لماذا أخبرت محمود ؟
لأنه برغم كل (زندقته) هذه - كما يسخر دائماً من نفسه - أكثر انبساطاً و تقبلاً لغريب أقوالي من (الشيخان) فعلاً !
(بيومي) و (السنوسي) منخرطان في العبادات و طلب العلم يظهران الجدية و الصرامة كضرورة لا مفر منها .. أنا نفسي غير قادر على مجاراتهما في التحصيل بسبب انشغالي بالجامعة وجعلي الأولوية لها في المذاكرة بينما هما يفعلان العكس ..
و برغم أن بيومي له مع ذلك (انحرافات) بسيطة مثل تعاطفه مع قضية الجهاد و هو ما يحاول (السنوسي) و شيخنا ضبطه .. تعاطف نعم لكن بلا تفريط .. لابد من طلب العلم و العمل الدؤب كي يتحقق الإنتصار .. كيف تنتصر أمة لا تصلي الفجر في المسجد ؟
الخلاصة أن كليهما متجهم أكثر الوقت يخيفاني أنا شخصياً في بعض الأحيان .. واحد يرى الضحك جريمة في حق أمتنا المنكوبة و الآخر يعتبر الضحك بدون داعٍ منقصة للرجال و لطلاب العلم .. و متى يأت الداعي للضحك عنده ؟ لا أدري بصراحة ! أغلب الأفعال الطبيعية التي يقوم بها شيخنا نفسه أحياناً لا يقبلها على نفسه بإعتبارها من (خوارم المروؤة) و ما أكثر (الخوارم) عند السنوسي .. و كم من مشكلة دبت بين (محمود) و (السنوسي) برغم الإنسجام العام بيننا بسبب كلمة (خوارم) هذه التي يستعملها (محمود) بطريقة ماكرة في أحيان كثيرة !
لهذا أحب (محمود خضيري) زميلنا الثالث و أتبسط معه برغم ملاحظاتي الكثيرة عليه .. طبعاً غير أمانته الشخصية و هو شئ أُثمنه بشدة .. ثم إنه بعيد عن جو طلاب العلم الذي أقضي فيه وقتاً غير قصير وهو جو لو اشتم خبر فعلتي هذه من حب (ماهي) لجعلني أكبر (خوارم) في الجلسة !
- محمود .. قد لا تصدق هذا لكني أتألم .. الأمر لا هزل فيه ..
قلتها و قد ظهر على وجهي أثر هذا الإعتراف من هزيمة .. إعتدل محمود فوق سريره و قال بجدية بالغة و هو يشير الى مكتبي الصغير الذي علقت فوقه ملابسي الداخلية كي تجف :

- هذه هي ملابسك الداخلية يا خالد .. و هي تشبه ملابسي .. مهترئة يا صديقي و مع ذلك نرتديها يومياً و إن أردنا تغييرها لابد من توفير يرهق ميزانيتنا و م يرهق أهالينا .. عندما تراها و يغمرك هذا الحب العجيب تذكر ملمس ملابسك المهترئة فوق جلدك لتعرف حجم الفارق ..
- و كيف سيساعدني هذا ؟ أنت تزيد من مصيبتي !
- بل أساعدك في أن تتذكر مصيبتك متى نسيتها ! لابد أن تتذكر كي تبعد هذه الحماقة عن تفكيرك ..
ظللت صامتاً قليلاً في عدم اقتناع قبل أن يقاطعني مستفسراً:
- لكن أخبرني .. كيف لشيخ مثلك أن يقع في حب متبرجة سافرة كهذه ؟ حتى لو كنت من نفس مستواها لم تكن لتقبلها أبداً .. أليس كذلك ؟
نظرت له و قد ثار الجرح الحقيقي نازفاً بلا انقطاع !

***

كنت أعبث في طبقي شارداً .. حبات اللوبياء المطبوخة بجوار المكرونة و اللحم المسلوق .. نعم أنا ريفي من منطقة فقيرة لكن حتى بالنسبة لي هذه الوجبة غير متناسقة ! مأساة مطعم مدينتنا الجامعية معدوم الحس ..
لكن شكوانا لا تخرج بعيداً عن غرفنا .. المسئولون في المدينة الجامعية يتعاملون معنا كأننا حيوانات أليفة لن تشكو من أي خلطة طعام توضع .. ان تحدثنا سيقال لنا ألا يكفيكم أكل اللحم و الفراخ بصورة يومية .. و سيكون معهم الحق للأسف ! أغلبنا لا يتناول الفراخ و اللحم بصورة متبادلة يومية في منزله كما نفعل هنا .. إذن علينا الصمت و عدم الشكوى و لنتعود على هذا (العك) في أصناف الطعام .. ناهيك أن بعضنا يعتبره إبداعاً مميزاً !
" أليس عيب عليك يا عم الشيخ ! "
رفعت رأسي مندهشاً ، كان جالساً أمامي شاب أسود البشرة لا أعرفه ينظر لي مبتسمًا !
- نعم ؟! هل تحدثني ؟
- نعم أنت ..
- عم تتحدث ؟
- أتحدث عن مجيئك كثيراً (مُصادفةً) لمكان كلية تجارة مع الآتين ! كنت أظن الشيوخ لا يُغرمون بماهيتاب هانم !
دلو ماء بارد انسكب في قفاي منعني من الكلام .. ماهيتاب ؟ أكيد يقصد ماهي هذه ! غريب أنني لم أحاول معرفة اسمها الأصلي و لم أسمع من قبل بإسم ماهيتاب العجيب هذا ! لكن .. كيف ؟
رفع معلقته الى فمه ليكمل طعامه و هو يقول لي مشيراً الى طعامي :
- أكمل يا شيخ طعامك و لا تندهش هكذا ! أنا فقط كنت أحب التعرف عليك لأن مشهدك باللحية وسط الحجيج الطائف بماهي كان يثير دهشتي دائماً ..
الماء البارد لازال يجمد عمودي الفقري بينما عقلي و أذناي وصلا لدرجة الإحمرار من الغليان .. حاولت إنكار كلامه متلعثماً فأكدت ظنه ، أشار لي بأن أكمل طعامي و هو يقول :
- بالله لا تجعلني أشعر بالضيق لإفساد شهيتك ! انه طعامك و بعد الغداء سنتجول قليلاً نحو الملعب ..
- أي طعام ؟
قلتها في غيظ و أنا أقوم من مجلسي مُغضباً مُفارقاً المطعم .. ركض الشاب ورائي ليمسك بذراعي و يعتذر و راح يقسم مُخلصاً أنه لم يكن يريد سوى التعرف علي بصورة مرحة ..
- يا عم الشيخ كلكم تغضبون بسرعة هكذا ؟
- اسمي (خالد) و أنا لست بشيخ .. أنا شاب مثلك يا أخي .. تجاهل اللحية في وجهي و عاملني بصورة طبيعية ..
ثم تنهدت عندما ابتسم مؤمناً على كلامي محاولاً مراضاتي قبل أن أكمل بصوت منخفض :

ـ ثم بفرض أنني كنت أفعل ما تظن أني أفعله .. كلنا أصحاب أخطاء يا أخي و لم يكن من حقك أن تفضح ما أحاول مداراته ..
ـ لا .. أنت حكاية .. تحب نكمل الغداء أم نذهب للملعب كي نتحدث قليلاً .. اسمي حمزة النوبي بالمناسبة ..
ـ فقدت شهيتي يا حمزة ..
تحركنا الى الملعب وهو يحكي لي عن نفسه و أصوله النوبية و سبب فعلته التي أغضبتني .. انه يشعر بالوحدة في كليته بل في كل هذه المدينة .. فأعتقد أن (شيخاً) مثلي سيتحمله و يتفهم (مزاحه) الثقيل !
تجاذبنا الحديث مع الوقت و عرفت أنه برغم صغر سنه ذو ثقافة عالية جداً جداً ..
ـ لم الوحدة و شاب في ثقافتك يسهل عليه التغلغل في أي مجموعة ..
ـ ما علاقة الثقافة بالمهارة الإجتماعية ؟ ثم انك تنسى أنني أسود !
عقدت حاجبي مستنكراً و رحت أوبخه على حمله لهذه العقدة في مجتمع مسلم ..
ـ يا شيخ (خالد) .. بالله عليك أنا الذي أعرف ما لا تعرفه أنت .. اننا مجتمع عنصري جداً لكنه لا يعترف بذلك ..
ـ يا أخي لا داعي لهذا الحديث .. اتق الله ..
ـ حسناً .. ان تقدمت لأتزوج من أسرة قاهرية ليست سوداء و حالي متيسر .. كم تبلغ نسبة قدرتي على النجاح في هذا ؟ أكاد أقسم أنك أنت نفسك يا شيخ لو تقدمت لواحدة من أسرتك لكنت من الرافضين بسبب لون بشرتي !
لم أعلق و إن ظللت أدير الأمر في رأسي .. يمكنني الإنكار بشدة و إنشاء خطب عصماء عن المساواة لكن الحقيقة أن الرجل في كلامه صدق ..
ـ أتعرف لماذا لاحظتك في الكلية يا شيخ ؟
نظرت اليه مستفسراً فأردف :
ـ لأنني أحب متابعة المنافسين ! نعم أنا أحب ماهي يا شيخ ! لكن مشكلتي أكثر تعقيداً ! مشكلتي في لوني و هذا أمر لن تُحسنه أموال الدنيا !
نظرت له في استغراب انقلب الى رثاء لنفسي و لحاله ثم الى ضحكة خفيفة جاوبها بضحكة مماثلة ..
ـ اسمي خالد فقط يا حمزة .. ان كنا سنصبح أصدقاء فلا تناديني بلقب شيخ بعد هذا ..

***

قال لي الشيخ :
ـ فلتعلم أن الحلول التي قدمها لك الله و رسوله أهمها غض البصر أي ايقاف جهاز التصوير الموجود في عقلك عن العمل و شغله بصور أخرى ، و الصوم أي حرمان نفسك من شهوة الطعام كي يشغلك البحث عن ارضائها بعيداً عن البحث عن شهوة أخرى .. و شهوة الطعام أقوى .. تخيل نفسك بعد يومان من الجوع أمام امرأة جميلة و مائدة طعام بأيهما ستبدأ ؟
قلت ضاحكاً :
ـ بالجميلة طبعاً ..
ضحك الشيخ ثم تابع :
ـ سهل هذا الحكم ما دمت لم تجرب .. لكن حاول أن تظل لمدة يومين بدون طعام على الإطلاق ثم اذهب للكلية محاولاً التفكير في فتاتك .. ستجد النتيجة تدهشك ! شهوة الطعام أقوى لهذا استخدم الرسول الحرمان منها كوسيلة مقاومة للحرمان من شهوة أقل و هي الجنس ..
ـ لكنني لن أصوم ليومين يا شيخي .. ساعات و أفطر ووقتها ستعود الخواطر ..
ـ ضع هذا مع غض البصر بجوار شغل نفسك بالعبادة و الرياضة ستجد أن لا مكان في عقلك لهذه الفتاة .
ـ لكنني لا ألعب الرياضة ..

نظر لي نظرة لائمة ثم تابع في جدية شديدة :
- لابد أن تعلم يا خالد أن لا حل نهائي في هذه المسألة .. أنت تريد انهاء الموضوع و هذا مستحيل دون إرادتك الشخصية .. أنت متعلق بها برغم أنه من المستحيل زواجك منها لقلة دينها و أخلاقها و للفارق الكبير بينكما .. لابد أن تنهي هذا التعلق .. هذا هو الهدف الرئيسي و لابد لإنجاحه من تقديم إرادتك الشخصية قبل إتباع الوسائل التي أمرك ربك بإستخدامها .. ازرع الرغبة في نزع تعلقك بها أولاً و ستجد الأدوات التي يقدمها لك الدين أكثر من كافية لمساعدتك في تنفيذ هذه الرغبة ..
ظللت صامتاً أحملق في الأرض شارداً و شيخي جالس ينتظر ردي .. انتبهت لإنتظاره فرفعت رأسي فوراً أعتذر له و أخبره بأني سأفعل ما قاله لي ..
بلهجة الخبير قال لي :
- أعلم أنك ستحاول لكن الشيطان يحاول منذ الآن ايجاد مخرج يمنعك من نزع التعلق .. حاول أن تجرب نصيحة ابن مسعود :إذا رأيت امرأة أعجبتك فتذكر مناتنها ..
نظرت له متسائلاً فأردف :
- تذكر مشهد المرأة التي تعجبك و هي في الحمام مصابة بإسهال مثلاً .. تذكر رائحة فمها الكريهة .. لا تخلو امرأة من مناتن كأي كائن حي و هي الحقيقة التي يفطن لها كل رجل عاشق بعد الزواج فيصاب بالهم و يعتقد أنه خُدع بصورة ما لكن خدعة أبدية ..
قالها و ضحك فضحكت لهذا التشبيه و في عقلي جاءت صورة ماهي في الحمام .. ياله من مشهد قذر فعلاً !
استأذنت شيخي في الرحيل بينما كان يشير لشاب آخر كي يقترب ليحادثه ..

***

نعم أثق – صدق أو لا تصدق – في شيخي و في تحمله لي و لإعترافي بينما لا أثق في تلاميذه من أصدقائي !
ليتهم يخلعون أقنعة الجدية و يأخذون الأمر ببساطة مثله .. لكن اجابتهم كالمعتاد أن الشيخ يحق له هذا لأنه وصل و هم مازالوا في بداية الطريق !
صارحته بعدما تعبت ولم ترشدني نصائح محمود لأي حل ..
لا بديل عن تجربة نصائح الشيخ ..
هي الملاذ الأخير ..

***

- شاهدت فيلماً بالأمس شبيه بحالتك .. أتريد أن تعرف ما أسمه ؟
- لا .. لا أريد أن أعرف ..
- حسناً .. اسمه كان (هي أعلى من مستواي) .. أتحب أن تعرف قصته ؟
- يا أخي أخبرتك بأني لا أريد هذا ..
- كما تحب .. قصته تتلخص في أن شاباً أحمقاً مثلك أحب فتاة جميلة فوق الخيال و مع ذلك أعجبت به و أحبته .. لكن تذكر يا صديقي .. هذا فيلم أمريكي يدخل في نطاق الخيال العلمي !
نظرت اليه متضايقاً أقول :
- ياللظرف ! يا أخي أخبرتك أنني لا أريد معرفة قصص أفلامك ..
رفع (عبد السلام بيومي) رأسه من فوق الكتاب قائلاً في ضيق أشد :
- ليت الأفندي اقتصرت معاصيه على الأفلام .. سيادة المحترم يشرب السجائر الآن !
نظرت له في استنكار فتلعثم قائلاً :
- مرة واحدة فقط كنت أجربها و لا مشكلة .. لكن حظي العاثر أوقعني في نوبة مرور (بيومي) بيك !

- اتفقنا يا (محمود) أن هذا الأمر بالذات لا مزاح فيه .. السجائر إدمان .. ألم نتفق على هذا ؟
أكمل (عبد السلام) :
- و أنت كاذب في دعواك أنها المرة الأولى يا أفندي .. انما سترك الله و لم يفضحك عدة مرات قبلها ..
احتقن وجه (محمود) قائلاً :
- أنت over يا عبد السلام ! قلت لك أنها مرة و لن تتكرر .. أنت لست ولي أمري ..
- مادمنا في غرفة واحدة فأنت أخ له واجب النصيحة .. و أحياناً لابد من الشدة فيها ..
- و هل هذا أسلوب نصيحة يا أخ ؟
قطعت تراشقهما قائلاً ل(محمود) :
- بالله عليك يا محمود لا تكررها ..
زفر في ضيق قائلاً :
- لن أفعل و الأمر لا يستحق .. شكراً على النصيحة يا شباب ..
ثم قفز من فوق سريره خارجاً من الغرفة فالتفت ل(عبد السلام) ألومه على أسلوبه .. كان متضايقاً خائفاً عليه فأخبرته أنه ليس ولي أمره حتى يعامله بهذا الأسلوب ..
- و ماذا عنك أنت أيضاً يا (خالد) أفندي ؟ ألا ترى أن قصة هذه الفتاة زادت عن الحد ؟ لقد تسرب سرك .
- عبد السلام .. لو سمحت .. لن أتحمل هذا الأسلوب ..
شعرت بتوتر .. السنوسي يضع سماعات في أذنه ليستمع للقرآن فاصلاً نفسه عنا و هو ممسك بكتاب شارد فيه و لن يتدخل ليفصل بيني و بين (عبد السلام) .. وشجارات عبد السلام معي عنيفة ..
- يا أخي اتق الله في نفسك .. لا أنت طالب علم مجتهد و لا حتى حامل لهموم أمتك .. ثم تذهب لتحب فتاة متبرجة سافرة ..
- يا أخي أنت لست ولي أمورنا .. و ربما كان عيبي أنني أعترف بمعصيتي كي أعالجها بينما تخفون أنتم مصائبكم .. ان الشيخ نفسه لم يحدثني هكذا ..
- شيخ مُخرف معادٍ للجهاد !
في حركة عنيفة نزع (السنوسي) السماعات من أذنه و قد جحظت عيناه ذهولاً ..
- ماذا تقول يا لعين ؟!
- الآن سمعتنا !
و تكهرب الجو بقوة ألف ألف فولط !

***

تضحك في دلال .. يتناثر شعرها لثوان ثم يعود لتصفيفته الفريدة .. جالسة على الرصيف مع ثلاثة شباب تتحدث كالمعتاد ..
أراقبها من بعيد و حرب دائرة بداخلي .. هناك جزء بداخلي يُحمل هذه الفتاة سبب كل ما حدث لي و لأصدقائي من فرقة !
لكن عندما أفكر مرة أخرى أتعجب من نفسي و من تحميلها ذنباً لم تقم به .. لكن هل حقاً لم تقم به ؟ أليس تبرجها فتنة لي و لغيري ؟ كم شاب مثلي مصاب بداخله و صامت لم يفضح نفسه مثلي ؟ أليس اختلاطها بنا هو السبب الأول ؟!
أظن ان الاختلاط أشد كارثية من تبرجها ! فلو كانت متبرجة في مكان نسوي لكان عقابها عند ربها على ما فعلته بمعصيته و هو أمر بينها و بين ربها .. أما هنا فالتبرج يجعله الاختلاط ناراً كارثية تحرق عقول و قلوب الكثيرين من الذكور و يزيد النار بالوقود ! انها مذنبة في حقنا و لن نسامحها !

أدرت عيني الى وجهة أخرى لأغض بصري .. لكن هل غض البصر يكون عن (ماهي) فقط ؟ إن ذهبت (ماهي) من أمام بصري فهناك (نيرمين) و (هناء) و (دنيا) يلبسون ما هو أشد و ألعن ! سيتعلق قلبي - و قبل قلبي ستتعلق هرموناتي - بإحداهن ! انه معرض في الجهات الست و مطلوب مني أن أغض بصري فيه ! ولا غض بصر هنا إلا بالعمى التام !
أتذكر مناتنها ؟ لكن يا شيخي و يا سيدي ابن مسعود الروائح العطرة تمنع حتى محاولتي لتذكر هذه المناتن ! المُنتن الوحيد هنا هو الشباب برائحة عرقهم المقرفة بينما الفتيات أمثال (ماهي) يضعن روائح جديرة بإثارة كافة ذكور الثدييات في كل القارات فلماذا يُطلب منا نحن مقاومتها ؟! هل كان خبراء العطور وقتها بنفس احترافية شياطين العصر الحاضر ؟!
جدير بالذكر أني صائم أيضاً ! قمت بعمل كل الوسائل .. لكن هذه الكلية تحول صيامي الى مهزلة !
انني أظلم (ماهي) .. ليست (ماهي) بشخصها هي الكارثة .. الأمر أكبر ..
انتصبت واقفاً في ضيق .. تذكرت كلمات الشيخ : الإرادة .. لا حل نهائي ..
من وسط كل ما ذكره ظلت هاتان الكلمتان في رأسي ..
نعم لا حل نهائي و صدق الشيخ .. (ماهي) كيان كامل للنسوية و ليست مجرد فتاة أحبها .. ان تخلصت منها لن أتخلص من باقي الماهيات !
فقط الإرادة في فصل نفسي عن هذا الكيان هي السبيل الرئيسي لمقاومته بالوسائل الدينية ..
تحركت نحو كليتي خارجاً من نطاق (ماهي) الرئيسية .. أنظر الى الأرض محاولاً بلا جدوى استخدام وسيلة غض البصر و تفعيل الصيام .. لا جدوى يا أحمق فالمهزلة مستمرة ..
اصطدمت بشاب راح يضحك .. رفعت رأسي فوجدته حمزة النوبي ..
- ألم تكتف بعد يا خالد ؟
بتصميم أجبت :
- أخرجني من هنا يا حمزة ..
- من الكلية ؟
- من الجامعة كلها .. ماهي في كل مكان !
- لكن لابد أن تنجح .. لابد أن تستمر .. ما الحل ؟
نظرت له في حيرة ..
- لا حل نهائي .. بل لا أرى حلاً على الإطلاق !

بتروف المجاهد

فلتعترف يا بتروف انه الدين الحق !
انها نهاية رحلة طويلة من البحث .. رحلة مُرهقة لكنها أخرجتك من التيه !
إنه الإسلام ولا دين سواه ..

***

عدة سنوات و بتروف يبحث .
إنه شخص كره حياة موسكو الملحدة القاسية التي لا تعرف رباً سوى المال و الشهوات ..
حياة هؤلاء لا تعرف أي سبيل للهدوء والسلام النفسي ..
هنا بدأ بتروف الطريق .. تفرغ من حياته كلها للبحث عن الدين الحق ..
مستحيل أن يكون هذا العالم بلا إله .. لابد أن يبدأ من هذه النقطة .. ان عالم بلا اله ، عالم مخلوق عبثاً لهو تفاهة سخيفة لا حدود لها يكذبها ذلك النظام البديع المخلوق به جسد الانسان قبل جسد الكون .. لا صدفة هناك على الاطلاق ..
هناك إله موجود ..
لكن أين هو هذا الإله ؟ أي دين هو الطريق للذهاب الى الاله الحق ؟

***

فليبدأ بما هو أقرب للالحاد .. في أديان مصنوعة بالكامل من العقل والفلسفة والفكر ..
ماذا عن البوذية ؟ ماذا عن الكونفوشيوسية وأديان آسيا ؟ ثنائيات الظلام والنور والخير والشر .. هيمنة السماء و سمو البراهما ..
كلها ديانات بلا توحيد .. بلا رأس أو ذيل .. مجرد تعاليم حكيمة يمكن أن يقولها أفذاذ عباقرة لكنها تحولت الى فلسفات و إلى دين كامل ! وهو قد قرأ كثيراً في الفلسفة الغربية و يعرف أن عقل الانسان عبقري بحق .. انه قادر على أن يقنعك بالشئ ونقيضه في نفس الوقت وكل شئ له منطق !
بل لكل فكرة في الكون مهما كانت شاذة : منطق !
هيجل نظريته التاريخية قائمة على أن الأفكار والفلسفات ستواجهها حتماً أفكار وفلسفات بشرية أخرى مضادة .. ثم تجئ موجة جديدة مضادة للموجة الثانية ثم تجئ ثالثة ترفض السابق كله ! هكذا التاريخ حرب فكرية لا تنتهي ..
اذن عقل الانسان عاجز وحده عن الوصول للإله القادر الحق .. لأن ما سيذكره من أطروحات سيواجه بأطروحات مضادة تنقضه .. و ساحة الفكر واسعة لا تنتهي ..
ومادام العقل عاجز فلابد من وحي .. ومادام لابد من وحي فأديان شرق آسيا ستتبخر كالسراب ..
ومادام قد بدأ البحث عن الوحي فلابد من الذهاب لمجموعة محددة من الأديان تخبرنا بأنها مستمدة من الوحي .. فليبحث هناك ..

***

تبدأ الرحلة في طريق الوحي من الكنيسة .. يشاهد بتروف عشرات الطقوس الأرثوذكسية الغريبة ، يحاول أن يفهم معنى وجود ثلاثة آلهة وفي نفس الوقت هم إله واحد .. ثم يحاول أن يفهم معنى نزول جزء من هذا الاله

ليتعذب ويُضرب ويُقتل ثم يعود مرة أخرى كأن لم يكن ! لماذا هذه المسرحية الدرامية ؟ ما هذا الإله العابث الذي يسمح لنا بضربه و البصق عليه وإهانته بكل الطرق ليستجدي منا العطف فنعبده ؟!
في النهاية يترك بتروف الكنيسة للأبد .. لم يستطع أحد أن يشرح له ما هو الاله الواحد المصاب بإنفصام ثلاثي في الشخصية !
الى معبد اليهود ذهب .. مزيد من الطقوس والتعاليم .. هناك وجد إله واحد بالفعل ووجد قانون يقوم بتسيير الدنيا ..
شعر (بتروف) بالراحة و ظن أنه وجد ضالته في التوحيد .. لكن مع المزيد من القراءة في التوراة وتعاليم الحاخامات بدأ الشك يتزايد بداخله .. أي اله هذا الذي يبكي ويندم ويُضرب ويخدع ويطالب بقتل الأطفال بهذه الطرق البشعة المذكورة في التوراة ؟ و أي شعب مُختار هذا الذي يحوز الفضل كله طوال التاريخ دون باقي شعوب الأرض ؟ انه روسي وهو غير قادر على أن يفهم سبب عنصرية إله اليهود هذا ضده وضد باقي الشعوب !
وداعاً أيتها اليهودية .. وداعاً أيها الحاخاميم !

***

في الاسلام وجد ضالته .. هناك قرآن بلا وسيط بينك وبين ربك .. في القرآن تعلم التوحيد وتعلم كيف يجمع الإله بين الحزم والرحمة .. بين الجهاد وبين الدعوة ..
في الاسلام الأمر بسيط .. هناك إله قادر خالق للكون غير مصاب بأمراض نفسية كإله المسيحيين و لا تذبذب في الشخصية كإله اليهود ..
حزم (بتروف) أمره أخيراً .. وفي تلك الليلة التي قضاها بين الصلاة المستمرة التي تعلمها من الفيديوهات الكثيرة .. كانت دموعه في السجود هي نهاية الرحلة ..
انه الاسلام ولا دين سواه ..
أشهد أن لا اله الا الله .. وأشهد أن محمد رسول الله ..

***

لم يكن بمقدور (بتروف) المنغلق على نفسه التواصل مع المسلمين في موسكو .. هكذا راح يتعلم العربية قدر الامكان بمجهودات ذاتية بحتة ..
برغم الصعوبات تعلم الكثير ..
وبعد مضي عدة سنوات من البحث كان قد استطاع مشاهدة القنوات الاخبارية العربية ..
وهنا جائته الصدمة !

***

فلسطين مُحتلة من اليهود ؟
اليهود يقصفون الأطفال المسلمين ويقتلونهم ؟
المسجد الأقصى تحت الاحتلال اليهودي ؟
شعر (بتروف) بالغضب .. ضربات المطارق على رأسه جعلته ذاهل عن الكلام ..
ما كل هذه الجثث ؟ ما كل هذه الإبادة ؟ كيف يُسمح بقتل المسلمين هكذا ؟
في الليل كان تسار يُصلي ويبكي بلا انقطاع ..
وعند الصباح كان قد حزم أمره ..

***

في مطار موسكو وقف (بتروف) مُنتظراً دوره في الصف ..

لقد حزم أمتعته وقام بشراء ملابس عسكرية مناسبة ..
حاول عدم اظهار إرتباكه قدر الامكان فهو يعرف أن في روسيا لو علم أحدهم بما ينتويه فسيُقتل قبل أن يرتد طرفه!
لكن الحمد لله مر الأمر بسلام ..
ركب الطائرة وهو يدعوا الله والفرحة تكاد تنفجر فيها من مقعده كقنبلة ضاحكة ..
لقد درس الأمر طوال الليل في صلاته بينه وبين ربه ..
ووصل للقرار الأخير بلا رجعة ..
سيذهب الى أهله المسلمين في فلسطين للجهاد وتحرير الأقصى ..
لن يجلس أبداً في روسيا بلد الكفار لساعة واحدة وأهل الاسلام ومقدساته في يد الأوغاد ..
قرر البدء من أقرب بلد اسلامي .. فكر في سوريا الاسلامية .. فكر في الأردن الاسلامية .. لكنه شعر براحة أكثر للذهاب الى مصر .. من هناك سيسهل عليه التحرك لغزة المحاصرة .. سيسهل عليه الانضمام لمجاهديها فينال الثواب من عند الله .. ولكم يود لو أكرمه الله بالشهادة في سبيله وقد ترك كل شئ في روسيا ..
أنت من الآن مجاهدٌ في سبيل الله يا بتروف ..
فيالفرحتك ويالحزنك في نفس الوقت على ما ضاع من عمرك دون جهاد ..
الى مصر أرض الكنانة .. أرض الاسلام ..
الى حيث يبدأ الجهاد مع مسلميها ..

***

أمام مطار القاهرة جاءه سائق تاكسي .. ابتسم له كما أوصاه رسول الله برغم أن السائق متجهم قليلاً .. سأله السائق عن وجهته فقال مبتسماً بالعربية المضعضعة التي تعلمها بصعوبة :
- غزة أخي بارك الله فيك ..
ظل السائق صامتاً لثانية كأنه لم يفهم ، ثم أعاد السؤال في دهشة :
- قلت تريد الذهاب الى أين ؟
- غزة أخي جزاك الله خيراً .. بارك الله فيك أخي أريد ذهاب غزة .. جيهاد جيهاد ..
ظهرت دلالات الفهم على السائق فهز رأسه في غموض قائلاً :
- آااه .. اركب اركب ..
ركب (بتروف) و هو يكاد يقفز من السعادة في الهواء .. فكر في السجود شكراً لله أنه لم يعد يفصله بينه وبين غزة والجهاد الا ساعات .. لكنه أجل ذلك الى حين الوصول ..
أخذه السائق بين شوارع القاهرة .. كان بتروف يراقب الناس في فضول وبداخله بعض خيبة الأمل .. ان هذا هو وقت صلاة الظهر ومع ذلك الناس كلها في الشارع لا تصلي .. ثم ان الفتيات والشباب يرتدون ملابس غربية مخالفة للشريعة .. لا تنس يا بتروف أن تحدث اخوانك المجاهدين في مصر أن يزيدوا من دعوتهم للشباب أكثر .. هو على يقين بأن كل هؤلاء الشباب مجاهدين لا يفوتون الصلاة لكن من الواضح أنهم فقط متأثرين بالغرب في ملابسهم ..
في النهاية وصل السائق أمام مبنى ضخم محاط بالأسوار .. تركه في التاكسي ودخل الى هناك لمدة ربع ساعة ثم خرج معه شخصين ..
قال (بتروف) مستفسراً :
- من هؤلاء أخي جزاك الله خيراً ؟
رد السائق :

- انهم سيقومون بتسهيل دخولك لغزة .. هم المسئولون عن المجاهدين هنا و بعثهم لقتال اليهود ..
في سرعة ولهفة قام بتروف بفتح الباب والقفز من السيارة بينما راح السائق يحدث بعض حراس البوابة بالعرية .. أخذ حقيبته و دخل المبنى وسط إخوانه المسلمين المصريين الذين اقتادوه بتفهم كبير على ما يبدو ..
هل يطلب منهم الآن السجود أم ينتظر سيارة المجاهدين الذاهبة لغزة ؟
فلينتظر الى حين دخوله سيارة المجاهدين .. سيحاول كتم هذه الفرحة البالغة الى حين الوقت المناسب لأن إخوانه المسلمين السائرين بجواره تبدو عليهم الجدية .. بالتأكيد طبعاً لا وقت لديهم بسبب تقاطر آلاف المجاهدين من كل أنحاء الأرض على مصر كي تقوم بتسهيل سفرهم الى فلسطين .. لابد أن سوريا والأردن أيضاً مشغولتين باستقبال مئات الآلاف من المجاهدين ..
في النهاية دخل لمكتب أنيق .. كان بداخله شخص مهيب قابله بابتسامة .. لابد أن هذا هو مسئول الترحيل ورعاية شئون المجاهدين ..
المفاجاة أن هذا الشخص حدثه بالروسية !
يا الله .. يالعظمة بلاد المسلمين !
لقد قاموا بتجهيز مسئولين يتحدثون كل اللغات ! لابد أنك يا بتروف يا أحمق لم تكن أول المجاهدين الروس !
لابد أن الآلاف غيرك سبقوك الى هنا تاركين جحيم روسيا الملحدة عدوة الله والاسلام ..
كان المسئول المهيب يُحدثه عن سبب مجيئه .. في سعادة راح يحكي له عن قصته .. عن رغبته في الموت دفاعاً عن دين الله وأهله المسلمين .. عن قراره بالجهاد في فلسطين من أجل تحرير المسلمين ..
استمع له المسئول في صمت .. ثم في النهاية قال وهو يبتسم :
- أخي الحبيب .. هناك مشكلة حالياً في السفر الى غزة .. لكن مواطن الجهاد في العالم الاسلامي كثيرة .. نحن نحتاج الى مجاهدين في الشيشان خبراء بالروسية .. هل توافق أخي الحبيب على الذهاب الى هناك ؟
أصيب (بتروف) بالحيرة ، ان غزة هي الأولوية وهي ما جاء من أجله ، لكن عقله راح يصفعه هاتفاً في غضب : بتروف يا أحمق ! ما الفارق بين مسلم شيشاني ومسلم عراقي ومسلم فلسطيني ؟ انك ذاهب للدفاع عن دين الله فأخلص النية والجهاد هو الجهاد في كل مكان ..
رد بتروف على عقله في حيرة وتردد : لكن .. لكني فقط أردت أن أقاتل وسط اخواني المسلمين .. وسط بلاد العرب الاسلامية المزدحمة بالقرآن وأهله .. كنت أريد أن أعيش وسط أحفاد النبي و أستمع بصورة دائمة للغة القرآن ..
نقل تساؤله المتردد الى المسئول عن المجاهدين فهتف هذا في دهشة :
- ومن قال لك أننا سنجعلك تُجاهد وحدك ؟ سنقوم بارسالك مع ثلة من اخوانك المجاهدين المصريين .
عادت روحه الى لونها الأبيض .. هتف مُرحباً في سعادة :
- الله أكبر.. الله أكبر .. اذن أذهب معهم .. الى الشيشان .. الله أكبر ..
نادى المسئول أحد الموظفين ، يالها من وجوه جادة هنا لابد أن الجهاد المستمر قد أصابها بهذه الصرامة رغماً عنهم .. ياللمساكين ..
نزل الى الأسفل مع مرافقه ، أدخله الى غرفة مزدحمة بالاخوة ، كانت عارية من الأثاث ولها باب حديدي . لابد أن هذا مكان التجمع ..
ما ان رآهم بلحاهم الكثيفة ووجوههم المُزينة بأثر السجود حتى هتف بسعادة كبيرة :
الله أكبر .. الله أكبر .. مُجاهدين .. جهاد .. الله أكبر ..

لم يتمالك نفسه .. خر ساجداً ليشكر الله على تمام منته وفضله .. رفع رأسه ولحيته مبتلة بالدموع فوجد الاخوة كلهم ينظرون له في دهشة واستنكار .. اقترب أكبرهم سناً وطلب منه الجلوس على الأرض بكل هدوء وسأله عن قصته ..
برغم لغته العربية المضعضعة .. وبرغم لهفته وسعادته التي منعته من التركيز .. راح يحكي قدر الامكان كل شئ .. تاريخ هدايته ثم مشهد غزة .. قرار الجهاد ثم قرار الرحيل الى أرض المسلمين العربية الممتدة من الخليج الى المغرب .. وأخيراً لقائه مع المسئول عن المجاهدين واجتماعه بهم ..
كانوا يستمعون له في ذهول .. يتبادلون النظرات في استنكار و بعضهم وضع يده على رأسه صامتاً .. ماذا هناك أخي جزاك الله خيراً ..
ظل الأخ المصري هادئاً لثوان وأطرق بوجهه للأرض في صمت .. في النهاية رفع رأسه قائلاً في ضيق :
ـ أخي (بتروف) .. هؤلاء الموجودين بالأعلى منافقين .. أعداء لله ورسوله .. لقد كذبوا عليك ..
فغر (بتروف) فاه مصدوماً .. قال بدهشة مستنكرة :
ـ مُسلم ويكذب ؟ كيف لمُسلم أن يكذب ؟
تبادل الأخ النظرات مع من حوله مرة أخرى ثم قال في حزم :
ـ أخي بتروف .. أفق يا أخي الحبيب الطيب الساذج .. لقد خدعك المنافقين ليسجنوك معنا ..
مرحباً بك أخي في مقر المجاهدين ..
مرحباً بك أخي في لاظوغلي ..
مقر أمن الدولة المصري ..

حبشة زرء يعقوب

خرج الآلاف من كافة أنحاء المدينة .. تحلقوا حول تلك الفتاه السوداء ذات الكفن الأبيض والجالسة تبكي على سرير مرفوع بواسطة عشرة رجال أشداء .. يبكون بدورهم في قهر ..
اسمها (فاطمة) هذه المرة .. أبوها رفض الخروج من منزله وراح يبكي طوال الوقت مع زوجته .. ابنه الأكبر رحل بسبب طغيان مشاعر العار عليه ..
كانت المدينة كلها تشعر بالقهر والعجز .. الفتاة الجالسة مُكفنة فوق السرير المرفوع تنظر لهم في استجداء .. أرجوكم انقذوني من هذا المصير البشع ..
ان (فاطمة) كانت تُحافظ على الصلاة ، وهي حافظة للقرآن وتلقت الكثير من علوم الدين برغم صغر سنها ..
لكن (زرء) اختارها لنفسه هي بالذات !
تقدم الموكب حتى وصل الى مندوب ملك الحبشة .. كان المندوب يرتدي رداء الرهبان ومحاط بمجموعة شرسة من الفرسان الحاملين لراية الصليب .. قام الرجال بانزال (فاطمة) على الأرض وهي تتمسك بهم وتبكي في قهر .. حاولوا اخفاء عيونهم عنها .. أمسك بها جنود الجيش في حين ابتسم الراهب مندوب الملك في سخرية قائلاً لهم :
- خيراً فعلتم يا كفار .. ان الملك (زرء) قد اختار هذه الفتاة لنفسه ولم يكن ليقبل بأي تأخير هذا العام بالذات ..
رفع الفرسان الفتاة فوق خيولهم ورحلوا مخلفين غباراً كثيراً ..
وعار أكبر ..

***

كان الملك (زرء يعقوب) ملك الحبشة راكعاً في خشوع أمام الصليب حين دخل عليه نائبه يبلغه بوصول فاطمة ..
أشار اليه بأن يدخلها عليه في المحراب فدفعوا بالفتاة المنهارة اليه ..
دخلت وهي تنظر حول نفسها في ارتياع .. الشموع .. الجو المقبض الجامع بين الظلمة واللون الأحمر .. البخور الزيتي الخانق .. عشرات بل مئات الصلبان المعلقة في كل مكان .. تمثال يجسد المسيح معذباً في قلب المكان يقف أمامه رجل ملتح مخيف الهيئة ضخم الجثة يرتدي صليباً ذهبياً كبيراً على صدره .. كان ينظر لها هي بالذات ..
بنبرة متعالية آمرة قال لها :
- اقتربي يا خادمة يسوع واسجدي لربك !
برغم ارتياعها الشديد قالت في عصبية :
- ربي الله ونبيي محمد ..
ابتسم (زرء يعقوب) ساخراً واقترب منها وهو يقول :
- بل منذ الآن ربك المسيح وانت عبدته المطيعة .. نبيك وربك ودينك مجرد أوهام عشتيها في حياة ماضية .. ألم ترتدي الكفن وتُخلقي من جديد ؟
تراجعت الفتاة الصغيرة في رعب أمامه وهي ترفع يدها أمام وجهها قائلة وصوتها يرتجف :
- بل ربي الله ونبيي محمد ..
صرخ (زرء يعقوب) في غضب مفاجئ وهو يهجم عليها:
- بل ربك المسيح أيتها الكافرة ..

أحكم قبضته القاسية عليها وهي تحاول التملص منه صارخة وباكية .. لكنها بدت كالفرخ بين يدي وحش هائل مخيف ..
في النهاية سقطت مستسلمة بعدما خارت قواها .. فمزق كفنها قائلاً في حزم وهو يفك ازاره :
ـ الآن تتعمدي !

***

بعد نصف ساعة خرج (زرع يعقوب) من المحراب .. أشار الى أحد حراسه بأن ينقل الفتاة الى اخواتها في الكاتدرائية ..
مال أحد الحراس الجدد هامساً لزميله :
ـ أنا لم أفهم أي شئ .. الفتاة مسلمة وستذهب للكاتدرائية ؟
قال له زميله وهو يبتسم في فخر :
ـ انها حكاية طويلة .. لكنها باختصار شديد : الملك زرع يعقوب بعدما انتصر على مسلمي الحبشة أمر أحد كبار مدنهم باخراج فتاة مسلمة عذراء سنوياً كي يغتصبها تنكيلاً بهم وينصرها فتنضم للكنيسة .. وهو يختار دائماً الفتيات المتمسكات باسلامهن كي يُزيد من جرعة التحدي !
تساءل الحارس المندهش :
ـ وهل قبل المسلمون هذه الاهانة ؟ كيف يقبلون هذا ؟
قال له زميله وهو يهز رأسه :
ـ لقد هددهم الملك بابادتهم وتخريب بلادهم ان لم يفعلوا .. ففضلوا الحياة الدنيا ووازنوا بين المصلحة التي تقتضي ابقاء مئات الآلاف من المسلمين على قيد الحياة مقابل مفسدة صغرى بتسليم هذه الفتاة .. ووجدوا أن العقل والحكمة يقتضيان تسليمها !
هتف الحارس الجديد مُستنكراً :
ـ ماذا ؟ أي لعنة ؟ أي حماقة ؟ ماذا يبقى لهم من دين ورجولة ومروءة ان فعلوا ذلك ؟
ساخراً أشار زميله الى الفتاة التي يشدها الحراس وهي عارية تحاول لملمة بقايا الكفن الأبيض الذي تلوث بدماء عذريتها المسفوحة :
ـ أترى هذا الكفن ؟ هكذا أراح المسلمون أنفسهم من تعذيب الضمير ! انهم يُكفنون الفتاة ويعتبرونها قد ماتت بمجرد تسليمها ! يتحايلون على ربهم وضميرهم ! هكذا هو الأمر منذ سنوات طويلة ..
تابع الحارس الجديد الفتاة في تعجب ثم قال مندهشاً :
ـ وهل لدى مثل هؤلاء الذين سلموها أي ضمير ؟

***

"رسول من ملك الحبشة زرع يعقوب يا مولاي "
اعتدل السلطان المملوكي (الظاهر جقمق) في عرشه وأمر بادخال الرسول ..
دخل الحبشي الراهب وهو يُمسك برسالة في يده سلمها للسلطان الذي فضها فوجد فيها نبرة غريبة متعالية .. لم يُكمل السلطان الرسالة قبل أن يطلب من الرسول تركه وحيداً مع وزراءه ..
بمجرد خروج الرسول التفت السلطان الى مماليكه هاتفاً في ضيق شديد وهو يطيح بالرسالة في الهواء الى أقرب الوزراء :
ـ استمعوا الى رسالة هذا اللعين ..
راح الوزير يقرأ الرسالة بصوت عال :

- من صاحب العزة "زرء يعقوب" المكنى "قسطنطين" ، من نسل أرعد ، من بنى سليمان بن داوود عليه السلام ، ملك سلاطين الحبشة ، و صاحب النواب بالمملكة النجاشية ، إلى الإمام الشريف العالى الأوحدى السلطان الملكى "الظاهر جمقق" ، سلطان المسلمين و الإسلام بمصر و الشام .....
قصدنا تجديد ما سبق من العهود من الملوك المتقدمين ببلادنا و بلادكم ، ليكون ذلك العهد مستمراً بلا انحراف ، و الإتفاق بيننا و بينكم بلا خلاف ، و أنتم عارفون بما يلزم الراعى من نظر فى حال رعيّته ، و أنتم تعلمون أن الرب يطالب الراعى بذلك ، و أبونا البطريرك و أخوتنا النصارى الذين هم تحت عز سلطانكم و مملكتكم الشريفة نفر قليل جداً ، ضعفاء الحال مساكين فى كل الجهات ، و لا يمكن أن يكونوا قدر قيراط من المسلمين القاطنين بإقليم واحد من بلادنا ..
توقف الوزير عن القراءة واتسعت عيناه وهو يقرأ الباقي صامتاً في ذهول ، فهتف فيه (جقمق) بأن يُكمل ولا يخاف ..
أكمل الوزير القراءة :
و أنتم حفظكم الله ليس يخفى عليكم ما فى بلادنا الواسعة من المسلمين تحت حكمنا ، و نحن لهم و لملوكهم مالكون ، و لم نزل نحسن إليهم فى كل وقت و حين ، و ملوكهم عندنا بالتيجان الذهب راكبون الخيول المسومة ، و ليس يخفى عليكم و لا على سلطانكم أن بحر النيل ينجرّ إليكم من بلادنا ، و لنا الإستطاعة على أن نمنع عنكم ما يروى بلادكم ، و لا يمنعنا من ذلك إلا تقوى الله و المشقة على عباد الله ، و قد عرضنا على مسامعكم ما ينبغى إعلامه ، فاعلموا أنتم بما يلزمكم ، و بما يلقى الله فى قلوبكم ، فلم يبق لكم عذر تبدونه بعد الآن.
انهي الوزير الرسالة بينما أحد المماليك يهتف مندهشاً :
- ما كل هذه الوقاحة ؟ انه يهددنا بأننا ان لم نُمكن نصارى مصر الأقلية من التحكم فيها بأن يُعاقب مسلمي بلده الذين هم أضعاف أضعاف ما في بلادنا ! بل ويهددنا بمنع مياه النيل عن مصر ان لم نخضع له !
قال (يحيي بن أحمد) وهو أحد حُكماء البلاط في ضيق :
- ان ملوك الحبشة النصارى لا يملكون سوى ذلك التهديد المرعب كل مرة .. بل وهناك ما يشبه اليقين بأن كثير من المجاعات الضخمة التي حدثت لنا بسبب نقص مياه النيل لعدة سنوات كان بسبب هؤلاء الملاعين وتحكمهم في مياه النيل كي يُباد المُسلمين !
تراجع السلطان (جقمق) في مقعده مبهوتاً وقد خفت الكثير من غضبه :
- هل تقصد بأن هذا التهديد بوسعهم فعله بالفعل ؟ بوسعهم ابادة المسلمين هناك وقطع مياه النيل عنا ؟
هز الشيخ الحكيم رأسه بلا رد فازدادت حيرة السلطان (جقمق) وأطرق مُفكراً ..
هتف قائد جيشه غاضباً :
- يا مولاي .. ان الله راعينا ومولانا ومولى المسلمين .. مثل هذه الرسالة الحقيرة لا يُرد عليها الا بقطع رقبة حاملها وتسيير جيش ضخم الى هناك لتأديب هذا الصليبي الحقير ..
رفع السلطان رأسه وقد عقد حاجبيه في ضيق وغيظ قائلاً :
- متسرع ولا تملك أي حكمه كالمعتاد .. ان الرجل يملك رقاب آلاف المسلمين وأي قرار بالعنف سيعود بالهول على مسلمي بلده .. فكيف بالله عليك لا نمتلك الحكمة لمعالجة أمر كهذا ..
رد عليه قائد الجيش :
- يا مولاي مثل هذا الرجل لا أشك لحظة في أنه يذيق أهل بلده المسلمين صنوف العذاب بالفعل دون أن ينتظر أي رد منا .. لكن اسألك بالله أن لا تتراجع أو تعطيه رداً ضعيفاً .. بل أره عزة المسلمين وقوتهم ..
تراجع السلطان في كرسيه لدقائق مفكراً ، ثم طلب ادخال رسول الحبشة .. دخل الرسول المتعجرف وهو يعبث في صليبه حتى وقف أمام السلطان ..

قال له (جقمق) بهدوء :
ـ سنُرسل لكم رسولاً من عندنا اسمه (يحيي بن أحمد) بهدايا كثيرة كتحية لملكك ودلالة على حسن نوايانا ..
فتفضل الى حيث سيعتني الخدم باقامتك في القصر حتى ترحل عزيزاً ..
ولم يكد الرسول الصليبي يخرج حتى انفجر قائد الجيش المملوكي منفعلاً :
ـ يا مولاي السلطان .. هذا الخنزير الحقير لا يستحق هذا التكريم أبداً أبداً ..
هتف (جقمق) فيه :
ـ ليس بالعسكر تُحل الأمور .. بل بحكمة (يحي بن أحمد) سنقوم بايقاف تسلطه على المسلمين وربما اقامة علاقات ودية حقناً للدماء ..
ثم التفت الى الحكيم (يحي بن أحمد) هاتفاً :
ـ هل أنت جاهز يا يحي ؟
انحنى يحي أمامه قائلاً :
ـ من أجل الاسلام وحكمة حقن دماء المسلمين أفعلها يا مولاي ..
التفت اليه قائد الجيش هاتفاً في ضيق :
ـ أكثر ما أخافه يا يحيي .. أن تدفع أنت ثمن الحكمة واللين مع المجرمين أعداء المسلمين ..
ووقتها سيكون الثمن غالياً ..

***

منذ البداية شعر (يحيي بن أحمد) أن هناك أجواء ارهابية مسيطرة بشدة على مضيفيه ..
لقد كانت اجراس الكنائس كلها تُقرع بعنف بينما آلاف الجنود اصطفوا في الشوارع بكامل تسليحهم لملاقاة رسول سلطان مصر .. قد يبدوا هذا احتراماً لكن نظرات الجنود الغاضبة ورايات الصليب التي يرفعونها وتعمد الكثير منهم اصطحاب بعض الخدم العبيد المربوطين من أعناقهم بجوار خيول الفرسان ، والذين نظروا الى الرسول في شوق وهتف بعضهم بتحية الاسلام لاعلامه أنهم مسلمون مما زاد من غضب الفرسان الحبش وجعلهم يلهبون ظهورهم بالأسواط أمامه بلا رحمة !
دخل (يحيي) الى بلاط الملك (زرع يعقوب) فوجده واقفاً وخلفه كبار القساوسه حاملين الصلبان الذهبية .. تقدم منه وقال في هدوء :
ـ سيدي ملك الحبشة .. جئتك بهدايا عظيمة من سلطان مصر كدلالة على حُسن الـ ..
قاطعه (زرع يعقوب) قائلاً في عجرفة :
ـ لا تُهمني الهدايا .. ان لدي مُلك الحبشة كلها وهي أعظم من بلدك المسلمة .. أخبرني ماذا فعل سُلطانك بالنصارى وبطركهم ؟
تضايق (يحيي) قليلاً وبدأ يشعر بالقلق وهو يقول :
ـ يا مولاي هناك شئ ما خاطئ بشدة .. من قال لك أن نصارى مصر مُضطهدون ؟ انهم يملكون جباية الضرائب ومنذ قديم ومنهم الوزراء بلا تمييز ..
في عصبية اقترب منه (زرع يعقوب) هاتفاً :
ـ بل أريد منهم قادة جيش وربما سلطان كذلك ! لقد حذرت سلطانك بألا يتأخر عن اجابة طلباتي لكنه بعثك الي متودداً حقيراً بلا استجابة حقيقية ..
عقد (يحيي بن أحمد) حاجبية وهتف في غضب :
ـ لقد هددتنا بقتل كل رعاياك المسلمين وتطلب منا تمكين نصارى مصر من مفاتيح الدولة ! بل وتعتبرني رسولاً حقيراً لأننا أردنا التوافق وبناء علاقات سلمية معك ؟

اندفع (زرع يعقوب) نحوه ولطمه لطمة هائلة وهو يصرخ في حراسة :
- اعتقلوا هذا الحقير وعذبوه .. سأريه معنى السلمية بحق !

***

أربع سنوات !
لقد ظل (يحيي بن أحمد) أربع سنوات في الاعتقال المهين ..
كانت قد تسربت اليه أخبار أن السلطان بسعى جاهداً للافراج عنه ..
لكن لا أمل !
ان (زرع يعقوب) كان يلعب لعبة صليبية كبرى لم يفهمها (يحيي بن أحمد) إلا في الاعتقال ومشاهدة الأمور عن قرب ..
لقد كان يراسل بطريرك الأرثوذكس المصري والبابا الكاثوليكي من أجل توحيد الصف وابادة المسلمين من جهتين .. البحر المتوسط و الحبشة .. وكان كلاً من بابا الأرثوذكس المصريين و بابا الكاثوليك متفقين .. لهذا كان يتحرش بسلطانها طلباً لسيادة بابا الأرثوذكس المصري والذي يتبعه زرع يعقوب ..
لكن المشكلة كانت في بابا الكاثوليك .. كان الرجل مشغولاً بحروب أخرى فلم يجد وقتاً لاجابة مطالب الملك الحبشي ..
لهذا ازداد (زرع يعقوب) توحشاً مع مسلمي بلده .. شن حرب ابادة حقيقية لأي تجمع اسلامي صغير واهان تجمعاتهم الكبرى ودولهم المحيطة به في كل موطن وبأبشع أصاليب الاهانة ..
حتى جاء ذلك اليوم الذي انتصر فيه على مملكة (عدل) الاسلامية الحبشية .. لقد أخرجه من محبسه وجاء به في البلاط .
دخل (يحي بن أحمد) ليجد عشرات الجنود واقفين و السفاح (زرع يعقوب) واقف في منتصف القاعة في وضع غريب !
كان يُمسك بيده اليمنى صليباً هائلاً ثقيلاً يرفعه عالياً وبيده اليسرى رجل عربي يبدو النبل الشديد على محياه برغم ثيابه المغطاه بالدماء ووجهه الممتلئ بالكدمات ..
هتف (زرع يعقوب) في جنون أمام (يحيي) :
- هذا مشهد لا يُمكن أن يفوتك أيها المسلم .. هذا هو ملك دولة (عدل) الاسلامية .. لقد أسرته ورفضت قتله في ساحة القتال حتى تُشاهد ما يفعله الصليب بملوككم المسلمين ..
ما ان انهى كلامه حتى هوى بالصليب الثقيل فوق رأس ملك (عدل) بقوة ساحقة ليهشمه تماماً قبل أن يطلق القتيل صرخة واحدة ..
تقيأ (يحي بن أحمد) في اشمئزاز ، بينما راح (زرع يعقوب) يقهقه بشدة قبل أن يهدأ قائلاً :
- سأدعك تعود الى سلطانك المسلم كي تحكي له عن ما أفعله بالمسلمين في بلدي .. لكن لن ترحل قبل أن تشاهد منظراً آخر أكثر طرافة .. لا تبتئس .. ان هي الا بضعة أيام أخرى !

***

على ساحل البحر الأحمر وقف (زرع يعقوب) في شرفة قصره يراقب عشرات السفن الحربية الضخمة تتراص لتحيته .. دخل الحراس عليه ومعهم (يحيي بن أحمد) .. اقترب منه (زرع يعقوب) وقال بلهجة تهكمية :
- معذرة لأني جعلتك تسافر طوال هذا الطريق الشاق من عاصمتي حتى البحر الأحمر يا عزيزي المسلم .. لكن عليك بان تشاهد هذا قبل رحيلك الى سلطانك ..
ثم أشار اليه وهو يقول آمراً :
- هيا .. اقترب من الشرفة ..

لم يُجبه (يحيي بن أحمد) وانما وقف مُنهكاً لا يتحرك ، اندفع نحوه (زرع يعقوب) وأمسكه من شعر رأسه الشائب وشده بعنف مُجبراً اياه للتحرك نحو الشرفة وهو يقول :
ـ عندما يأمرك الحاكم بالصليب (زرع يعقوب) العظيم عليك أن تُنفذ الأمر فوراً أبها المسلم ..
مُتألماً راح (يحيي) يُراقب هذا الأسطول الحربي الضخم الذي ترفع كل سُفنه رايات الصليب الحبشي المُميزه لزرع يعقوب .. قال هذا الأخير وهو يراقب المشهد في فخر :
ـ مائتي سفينة حربية ! تخيل !
لقد بنيت وحدي أسطولاً من مائتي سفينة حربية .. أتعرف لم بنيتهم ؟
ثم استدار الي (يحيي) ومال عليه مُكملاً :
ـ سأغزو الحجاز بهم .. سأدمر مكة والكعبة .. كل أحلام الصليبيين الأرثوذكس والكاثوليك سأحققها ..
التفت اليه (يحي) قائلاً في سخرية :
ـ حاول العشرات قبلك .. لكن الله أذهب ريحهم ولم يفعلها أحد من قبل .. فما الجديد ؟
تراجع (زرع يعقوب) قائلاً في حزم :
ـ فعلاً .. لا جديد .. سنحاول مرة تلو الأخرى .. سيظل حلمنا الأبدي أن نهدم كعبتكم ونمحو دينكم .. سنحاول آلاف المرات ان فشلنا هذه المرة ..
ثم التفت مشيراً الى اسطوله قائلاً :
ـ سأقوم بمحاولتي الخاصة .. وليبارك الصليب من يأتي بعدي محاولاً تدمير دينكم ..
في النهاية سيرتفع الصليب فوق مكة ..
بنفس الحزم رد (يحيي) وقد عزم أن يلجمه حجراً و لو كان في هذا هلاكه :
ـ حربكم أبدية ؟ و نحن أيضاً حربنا أبدية .. و سنرفع يوماً راية المسلمين فوق مملكتك كلها .. بل فوق موضعك هذا ..
شئت أم أبيت ..

دستور تأويلستان

استعد الجنود الاسرائيليون للهجوم على جنود دولة (تأويلستان) الاسلامية ..
انه الهجوم الأخير .. الهجوم القاصم المبيد ..
سيقومون بافناء جنود دولة (تأويلستان) هذه المرة ..
هم يعرفون ذلك ، جنود دولة (تأويلستان) يعرفون ذلك ، القادة من الجانبين متأكدين من ذلك .
وبدأ الهجوم ..
فجأة حدث أغرب شئ يتخيله أي منهم ..
قام جنود دولة (تأويلستان) بنزع ملابسهم وكشف عوراتهم !
حدث اضطراب في جنود اسرائيل ..
ما هذا ؟ ما هذه الحماقة ؟
أثناء ذلك الارتباك راح جنود (تأويلستان) العرايا يركضون هاربين مستغلين ذهول الجنود الاسرائيليين الذين نظروا الى بعضهم البعض في بلاهة !
ما معنى هذا ؟ كيف حدث هذا ؟
أي جنون ؟!

****

حدثت ثورة في (تأويلستان) ..
ياللفضيحة وياللعار ..
تم تحويل قائد الجيش للمحاكمة .. وقف أمام القضاة في هدوء .. طلبوا منه في ثورة بالغة أن يوضح سبب هذه الخطة الفضيحة للانسحاب .. في برود شديد قال لهم :
- استندت الى فتوى الشيخ (آية الدين ماضي) .. ان أردتم محاسبتي فحاسبوه أولاً !
ساد الاضطراب قاعة المحاكمة .. الشيخ (آية الدين ماضي) ؟!
ياللهول ..
الرجل من كبار العلماء .. من كبار المجاهدين .. كيف نتصرف ؟!
طلبوا استدعاء الشيخ .. جاء معه مليون ونصف محامي وأكثر من عشرة ملايين محب وقفوا في القاعة .. ساد الاضطراب بين الجميع .. سأله القاضي بصوت مرتعش :
- يا شيخ (آية الدين) .. هل حقيقي انك قلت بجواز كشف العورات للمجندين كي ينجو بحياتهم ؟
رد الشيخ (آية الدين) في قوة :
- نعم .. أصدرت فتوى بهذا المعنى ..
قال شيخ الأئمة الجالس بجوار القاضي :
- لكن هذا لا يجوز .. كشف عورة ونقض مروءة وهزيمة مذلة وعار تاريخي ومساخر أمام الأعداء !
كيف قلت بهذا ؟
رد الشيخ (آية الدين) :
- تأولت هذا استناداً الى واقعة كشف (عمرو بن العاص) لعورته أمام (علي بن ابي طالب) كي ينجوا بحياته !
اتسعت أعين شيخ الأئمة في ذهول ، دق على منضدته بغضب قائلاً :

- واقعة كاذبة .. رويت من طريقين كلاهما كاذب .. من رواهما اثنان (ابن مزاحم) و (ابن الكلبي) وكلاهما في مراتب الرافضة الكارهين لـ (عمرو) ..
رفع محامي الشيخ (آية الدين ماضي) يديه اعتراضاً .. طلب الكلمة فأذن له القاضي .. قال في انتصار :
- لكنها ذكرت في التاريخ .. والشيخ ذكر أن هذا تأويل خاص به .. وقد قال بهذا القول منذ سنوات فلم يعلق عليه أحد من كبار المعلقين الا بكل أدب باعتبار هذه وجهة نظر وتأويل خاص ..
ثم أخرج فجأة من حقيبته دستور دولة (تأويلستان) وفتح الباب الأول وقرأ منه :
" مادة ١ : كل عالم حصل على تزكية شيخ معروف وله تصنيفات في العلم والفقه له أن يتأول كيف يشاء دون تعرضه لأدنى عقوبة ويُمنع من الرد عليه الا عالم أكبر منه دون رفض لتأويله .. والا فالسجن مصير من يرفض كلامه ممن يعتبرون من العامة الذين لم يحصلوا على تزكية الشيوخ حتى لو ألفوا ألف كتاب "
وضع قائد الجيش يديه في جيبه مبتسماً في ثقة ، بينما رفع الشيخ (آية الدين ماضي) رأسه في اباء .. لقد نصره دستور (تأويلستان) أيما نصر .. فحتى شيخ الأئمة لا يعدو أن يكون رأيه المضاد مجرد (رأي آخر) أمام رأيه ..
وخرج الشيخ (آية الدين ماضي) من المحكمة والملايين يرفعونه فوق رؤوسهم .. اسم الله عليه اسم الله عليه .. بينما قائد الجيش الذي سمع الكلام أخذ البراءة وخرج معه محاطاً بهالات الاعجاب والتقدير من محبي الشيخ الكبير .. لقد أخذ بفتوى شيخهم اذن فهو منهم وهم منه ..
وأصبح قائد جيش (تأويلستان) أسطورة عند تاريخ مسلمي هذه الدولة .. و مسخرة عند تاريخ الاسرائيليين .. وأصبح تأويله هو السنة .. وفي كل حرب يحاول اليهود الانتصار على (تأويلستان) قدر طاقتهم كي يصلوا الى هذه النهاية المضحكة .. مشهد آلاف الجنود يركضون عرايا كي يفلتوا من الموت !

الأخطر

تحرك الجنرال (جيمس ريتشاردسون) في سرعه داخل مبنى السي آي ايه ، جهاز المخابرات الأمريكي ، وبجواره (أو رايلي) الثعلب المخابراتي العجوز ، نحو الطابق الثاني من المبنى ، ودخلوا احدى غرفه حيث كان يجلس مجموعه من العسكريين والاستخباراتيين من جنسيات مختلفه ..

وبعد التحيه المقتضبه ، بدأ (أورايلي) في الحديث مباشرةً :

لقد اجتمعنا هنا لمناقشة أخطر ما يهدد هيمنتنا على العالم ، لقد نجحنا في تحديد هويته ، ألا وهو الفكر الاسلامي المتشبع بالجهاد ، لكننا ظللنا لفتره في حالة بحث مستمر عن مصدره حتى وجدناه .

نزع الجنرال (ميخائيل لومونوسوف) قبعته العسكريه في ضيق وقال :

- لقد رأينا الويلات في الشيشان بسبب هذا الفكر المتعصب ، نحن بحاجه فعلاً الى معرفة مصدره الحقيقي ، من هو الذي بعثه في هذا العصر مرة أخرى بعد أن قضى جدودي البلاشفه عليه تماماً ؟

نظر اليه (واين شارلز) المخابراتي الانجليزي وقال في حزم :

- لستم وحدكم ، لقد قمنا بعمل لا مثيل له في نزع هذا الفكر من عقول المسلمين ، بل دمرناه في أقوى الدول الاسلاميه الحاضنة له بصوره شبه تامه تفوق الخيال ..

قطع (أو رايلي) الحديث وهو يدق على منضدته قائلاً :

- يا ساده .. جهودكم مشكوره ، وقد شاركت فرنسا أيضاً بمجهود مضاعف في هذا ، بل واننا برغم تأخرنا كأمريكان عن الدخول لحلبة السباق لعدة قرون ، قمنا بمجهودات مضاعفه في اضاعة عقيدة الجهاد ، فاقت بكثير مجهوداتكم جميعاً ..

وأخذ نفساً طويلاً .. قبل أن يكمل :

لكن هذا ليس ما اجتمعنا لمناقشته ، أقرأوا اسم صاحب هذا الملف لتعرفوا من أين ظهر الخطر مرة أخرى ليهددنا بكل هذه الدرجه ..

وفي حركه خاطفه ألقى على منضدة الاجتماع بملف مكتنز ، تسابقوا جميعاً في النظر بلهفه الى الاسم الانجليزي المكتوب فوقه بقلم غليظ :

(سيد قطب) !

***

على نفس هذه الأرض ، لكن في نهاية الأربعينيات ، كان الأستاذ (سيد قطب) ، الذي عبر منتصف الاربعينات ، بشاربه المضحك الصغير ، وملامحه الهادئه الشعبيه ، يشتري مجلة (النيوزويك) الأمريكيه ، ليتسلى بقرائتها في الطائره العائده لمصر ، بعد رحله استغرقت عدة شهور في أمريكا ..

في الطائره فتح المجله ليتصفحها ، قبل أن يُمسكها بقوه ودهشه وهو يعيد قراءة هذا المقال عدة مرات (مقتل حسن البنا يُنقذ العالم) !

راح يقرأ المقال بسرعه ودهشته تزداد ، وتذكر كيف أنه طوال الأيام الأخيره راح يسمع عن احتفال اعلامي غربي بمقتل البنا ، لكنه لم يصدق الا الآن ..

وفي صمت وهدوء أخفى به توتره بصعوبه ، تراجع في كرسيه مفكراً بعمق ..

لماذا يحتفلون بقتله ؟ الهذه الدرجه كان حسن البنا مقلقاً للغرب كله ؟ هل كانت شخصيته هي المقلقه أم أن روح الاسلام النقي المثابر العنيد هي السبب الحقيقي ؟

عند نزوله مطار القاهره كان الأستاذ قد حزم أمره ، سينضم لجماعة الاخوان المسلمين ، برغم انها كانت تمر بمحنه كبرى ، الا أن روحه الفدائيه كانت تأبى ألا ينضم لتنظيم اسلامي يسبب هذا الرعب للغرب ..
كانت مشكلة سيد قطب طوال حياته هي فصل الالوان !
كان يكره اللون الرمادي بشده ، ويتمنى أن يظهر كل شئ بوضوح الأبيض والأسود ..
كان يكره هذا الرجل الذي يدعي أنه مسلم ثم يملأ كلامه بالسب والتحقير في رسول الاسلام وعقيدة المسلمين ، كانت بريطانيا قد علمت المصريين أن هذا الرجل مسلم ، قد علمتهم اللون الرمادي ، كلامهم رمادي ، أحكامهم رماديه ، لم يعد أحد يعرف يقيناً ما هو الصواب وما هو الخطأ ، علمتهم أن من يسب الرسول اسلامي ، ومن يمدحه رجعي .. وكلاهما مسلم !
انها الاربعينيات ، جيل الالحاد المصري الشهير ، حين كانت الماركسيه موضه ، والعلماني يقال عنه اسلامي متعصب ، واليقين الذي كان يدرس في الجامعات هو أن العلم قد وصل للنجاح في كل شئ ، وأنه يتعارض مع الاسلام بشده ، لهذا الاسلام دين مكذوب !
وسط هذا الجو المقبض الكئيب عاش سيد قطب ، كان يقاتل وحده في العالم بلا أمل .. وأخيراً وجد الأمل في جماعة الاخوان ..
تذكر وهم يستقبلونه ويعتمدونه عضواً نافذاً لديهم ، ذلك اليوم الذي ترك فيه عمله بالوزاره ، لأنه كان يطالبهم بالالتزام بتعاليم الاسلام النقيه وتنقية قوانينهم من شوائب معاداة الاسلام ، قاتلوه بعنف وسخروا منه بشده وأظهروه بمظهر الرجل البدائي الأحمق ودفعوه لترك العمل ..
تذكر ذلك اليوم الذي غضب منه نجيب محفوظ ، واتهمه بالتعصب والرجعيه ، لأنه رفض أن يمدح في الجرائد كاتباً نصرانياً جديداً موهوباً بشده ، وكانت وجهة نظره أن هذا الشاب في كتاباته عداء مبطن للاسلام ، ولن يشارك في صنع قلم سيقاتل الاسلام فيما بعد مجتهداً بأسلوب ناعم مؤثر ..
أخيراً وجد من سيتقبل كلامه ، من سيتشرب فكره .. وبدأ عمله أخيراً مع الاخوان ..
ولكن لم يمر وقت طويل ، حتى ساقهم ناصر الى السجون ، ومن أوائلهم سيد قطب ..
وفي السجن الذي استمر لعشر سنوات ، ممتلئه بالاهانه والتعذيب ، جلس قطب يكتب ويكتب ..
راح يدون رسالته التي كان يتمناها ، رسالته في صنع جيل جديد ، يلتزم بتعاليم الاسلام كلها ، وأولها الجهاد ، ليكونوا قدوة لباقي المسلمين ، وليقودوا الأمه لتصبح في طليعة الأمم مرة أخرى ..
كانت وجهة نظره أن الغرب على الرغم من قوته ، منحل أخلاقياً ، وهو في الحضيض ، بينما المسلم ان التزم بكل تعاليم اسلامه ، أصبح في قمة الرقي الديني والاخلاقي ، مدعوماً بالقوه الالهيه ، ووقتها يمكنه أن يهزم الغرب والشرق ويسود المجرات كلها ..
راح يكتب ويكتب ، راح يفصل بين الأبيض والأسود ، عذبه ناصر طويلاً ، دخل عليه الظابط حمزه البسيوني المجرم في زنزانته ليضربه فوق رأسه ويحرق أوراقه ، ويسب الله ويذكر سيد قطب أنه قادر على سجن اله سيد قطب معه في الزنزانه ! لكن سيد قطب يستفيق ويستكمل الكتابه .. يصر على التفكير .. يصر على عدم الاستسلام .. يكره اللون الرمادي ..
بعد سنوات عشر يخرج لفتره قصيره ، فيبدأ في تجهيز ما تمناه من جيل قرآني فريد ، لكن ناصر لا يتحمله ، لا يتحمل عودة الاسلام مرة أخرى ، أعاده الى الزنزانه ، وحكم عليه بالاعدام شنقاً ..
يوم الاعدام وقف متماسكاً بصعوبه ، فقد كان الضرب والتعذيب قد أنهكاه بشده ، وهو في الستين من العمر ..
وضعوا حول رقبته الحبل ، آذاه بشده فقد كان غليظاً يشبه الأشواك ، لكنه صمد ، وراح يفكر، رافضاً الاستسلام ، رافضاً اللون الرمادي ..

وضعوا على رأسه عصابه رماديه اللون .. يريد ناصر منه أن ينهي حياته على رؤية أكثر لون يكرهه .. لكنه صمم على التفكير وعدم الاستسلام ..
فتحوا الأرض تحت قدميه ، فسقط ينفض قدميه ، انكسرت قصبته الهوائيه فوراً ، حاول التفكير في كيف أن المشنقه عذاب أليم ، حتى في الاعدام كان الله أكثر رحمةً من هؤلاء ، راح يقاوم ويتعذب ، الثواني تمر كالدهور ، والدم ينفجر من فمه ، يختنق وألف قنبله تنفجر في جسده وعقله، توقف عن التفكير أخيراً ، الألم قضى على الأمل كالمعتاد ..
نجح ناصر في قتله بالتعذيب حتى آخر لحظه ..
في النهايه .. استسلم للموت ..

***

دخل الى الى الجبل كلاً من (أحمد عدنان) اليمني ، و (خالد عنتر) الجزائري ، و (عبد الحق العجمي) الخليجي ، ليجلسا أمام الشيخ الهادئ برغم صلابة مظهره وحزمه ، سلما عليه واتخذوا أماكنهم في صمت ..
قال لهم الشيخ : اليوم سنعرف كيف نهزم أمريكا هنا في أفغانستان ، وروسيا في الشيشان ، وكل القوى العظمى أينما لاقيناها .
نظروا لبعضهم بلا تعليق ، وعلق (خالد) في دهشه :
ـ كيف نهزم تلك الدول يا شيخي ، وهل من عاقل يقول هذا ؟
أخرج لهم الشيخ هذا الملف الممتلئ بالكتب ، ووضعه على المنضده قائلاً :
ـ نعم .. هناك عاقل قال هذا .. وأرشدنا الى السير في الطريق بمعالم واضحه .. هذا هو ..
تسابقوا جميعاً في النظر بلهفه الى الاسم العربي المكتوب فوقه بقلم غليظ :
(سيد قطب)!

فيديكامراس

١

كاراكاس ، فنزويلا ـ ٢٠٠٢

"لقد حاصروا القصر"
هتف بها (اليخاندرو) وهو يراقب الحشود الضخمة من نافذة قصر (ميرافلوريس) .. نهض (هوجو شافيز) من مقعده واتجه ليراقب مئات الآلاف من مواطنيه يسدون الطرقات الرئيسية المؤدية للقصر ..
لقد وصلت الثورة إلى منتهاها ..لكن كيف ؟!
في عصبية هتف (شافيز) بعدما استمع للأصوات المطالبة بقتله في الشوارع :
ـ لقد نجح الملاعين .. وصولهم إلى هنا يعني إختراق واسع ..
لم يكد يكمل جملته حتى انفتح باب القاعة بعنف شديد ، دخل مجموعة من جنرالات الجيش وبأيديهم المسدسات بينما أحاط بهم مجموعة من الجنود المدججين برشاشات ثقيلة وحديثة ، قال الجنرال (اندريس بيلو) في صرامة وهو يصوب مسدسه نحو صدر (شافيز(:
ـ انتهى الأمر يا هوجو .. الأمة و الجيش معنا ..
نظر لهم (شافيز) وعلى وجهه علامات ضيق هائل .. اتجه نحو مقعده وجلس عليه في صمت لدقيقة ..
صوت صراخ المحتجين المطالبين برحيله شديد للغاية .. الجنود أمامه في غاية التحفز و العصبية .. اليخاندرو خادمه منهار تماماً ..
فكر لدقائق .. ثم وقف قائلاً في حزم :
ـ سأرحل تفادياً لصنع حمامات من الدم .. لكن لن أكتب استقالتي .. وأريد بعض الشروط الأخرى لرحيلي ..
اقترب منه الجنرال (خوان راي) وأنزل مسدسه قائلاً في هدوء :
ـ لا يهم .. مادمت ستقبل الرحيل .. سيتم نقلك واحتجازك في حصن (تيونا) مؤقتاً حتى نقرر مصيرك ..
هيا .. تحرك ..
تحرك (شافيز) ببطء بينما أحاطه الجنود من كل اتجاه .. كان عقله يدور فيه سؤال واحد :
متى بدأ كل هذا حقاً ؟ و كيف فعلتها الفيديكامراس ؟

***

فنزويلا - ١٩٧٤

نهض (كارلوس بيريز) رئيس فنزويلا ليستقبل (نيلسون روكفيلر) نائب الرئيس الأمريكي الجديد والشبيه للغاية بهنري كيسنجر بنظارته ووجهه المربعين وشعره المصفف بعناية ..
تبادلا تحية حارة ثم تحركا نحو أفخم صالونات قصر الرئاسة الفنزويلي (ميرافلوريس) الفخم .. هناك جلس كل منهم محاطاً بمجموعة من الوزراء ..
كعادته ابتدأ (روكفيلر) الحديث واضعاً احدى قدميه فوق الأخرى باسترخاء :
- سيادة الرئيس (بيريز) .. نحن في أميركا كنا دائماً متابعين لنشاطك كرئيس جديد لفنزويلا تسعى لرفاهية شعبها عن طريق عائدات البترول ..
هز (بيريز) رأسه موافقاً وقال في حماس :
- إن برنامجي الانتخابي قام أساساً على بناء الدولة بعائدات البترول ..
أنزل (روكفيلر) قدمه وانحنى للأمام قائلاً بابتسامة صغيرة على ركن فمه :
- لكن الصعوبات واجهتك يا سيدي .. العائد الحالي غير كاف .. نحن نعلم هذا أيضاً !
قال (بيريز) وقد ظهر بعض الضيق على وجهه :
- للأسف هذه حقيقة .. اننا بحاجة الى صديق عالمي كبير كي يهتم بنا ..
بلهجة واثقة قال (روكفلر) :
- لهذا جئناك .. اميركا ستكون صديقك الوفي .. سنقوم بمساعدتك في خططك الطموحه وسنجعل من فنزويلا البديل الأساسي الحقيقي للعرب بالنسبة لنا ..
التمعت عينا (بيريز) في سعادة واخفى مشاعره قدر الامكان وهو يقول :
- فنزويلا لديها احتياطي هائل يا سيد (روكفلر) ويسعدنا أن نكون أصدقاء .. سنمدكم بكل ما تحتاجون اليه من بترول لصالح شعبي .. وصدقني أنا تابعت أزمة قطع العرب للبترول عنكم والتي حدثت في حرب يوم كيبور ١٩٧٣ .. ولطالما سائلت نفسي لماذا لا ينتبه أصدقاؤنا الأميركان الى محبيهم في فنزويلا ؟!
هز (روكفلر) رأسه موافقاً وهو يقول مشمئزاً :
- ان الهزة التي أصابت امتنا من غدر العرب بنا وتكتلهم مع بعضهم البعض لن ننساها .. وسنعمل ألا تتكرر وحدتهم هذه ولا تحكمهم في مصادرهم الطبيعية مرة أخرى ..
ثم نظر الى (بيريز) مكملاً :
- وبعون أصدقاء جدد أغنياء بالبترول مثل فنزويلا سنتلافى أي تكرار لهذه الكارثة ..
تدخل رئيس وزراء فنزويلا في الحوار قائلاً في برود :
- حسناً .. وما الثمن يا سيد (روكفلر) ؟
ظهرت بعض معالم الاستنكار على وجه روكفلر ومرافقيه فقال (كارلوس بيريز) مبتسماً :
- نحن لسنا سذج هنا يا سيد (روكفلر) .. بالتأكيد هناك مقابل لنا ومقابل لكم .. ستنهض فنزويلا مقابل أن تصبح صمام الأمان لنظامكم الأمريكي .. فكيف ستتوزع الأرباح بيننا ؟
تراجع (روكفلر) الى الوراء وتبادل نظرة مع أحد مرافقيه ثم قال :
- ستحصلون على كل المال الذي تحتاجونه .. لكنكم ستتبنون اقتصاد السوق الأمريكي وستفتحون أسواقكم لنا ولشركاتنا .. وسيكون لنا نسبة معقولة من شركة البترول الوطنية ..
تلاشت الابتسامة من على وجه (بيريز) وهو يقول :

- لكن .. انتم بهذا ستتدخلون في أعماق دولتنا .. ستكون هناك نخبة اقتصادية مرتبطة بكم تماماً ولن تدور الا في فلك مصلحتكم فقط !
أجاب (روكفلر) :
- بل ببعض المهارة ستصبح مصلحة دولتينا واحدة .. صدقني ان الازدهار الذي سيحدث لشعبك لن يصدقه أحد .. ستصبحون نموذجاً لدولة خرجت من الفقر الى الثراء الهائل بحسن استغلال مصادر البترول عن طريق صديقكم الأمريكي الوفي .. أنت قلت بنفسك أنك لن تنهض الا بمساعدة صديق عالمي كبير .. فهل لديكم أفضل منا ؟
وصمت لثوان قبل أن يكمل بنبرة خاصة :
- ان أحد المأفونين من (كوبا) اعتقد يوماً أن السوفيت أفضل منا .. فانظر اليه الآن وهو محاصر مع شعبه ولم يزدهم السوفيت الا بؤساً !
تنهد (كارلوس بيريز) ونهض قائلاً :
سأطلب منكم الانتظار.. سأقوم بعقد عدة اجتماعات مع وزرائي وحكومتي ثم أبلغكم بقراري النهائي مساء ذلك اليوم ..

***

في العاشرة مساءً دخل (روكفلر) وحده على (كارلوس بيريز) في مكتبه .. في ترحيب وقف (بيريز) هاتفاً :
- صديقي (روكفلر) .. منذ الآن دولتينا ستصبحان أصدقاء .. لقد وافقنا على معاهدة الصداقة ..
ابتسم (روكفلر) في سعادة وتقدم الى (بيريز) يصافحه في حميمة قائلاً في ثقة :
- صدقني يا سيدي الرئيس .. مع أمريكا سيأتي عام ٢٠٠٠ و (فنزويلا) لا يوجد فيها سوى الأغنياء فقط .. وهذا وعد ..

٢

فنزويلا - نوفمبر ٢٠٠١

تأمل رجل الاعمال الفنزويلي الشاب (روبن آروخا) القاعة الفخمة الهائلة التي يجلس فيها على احدى الموائد المزدانة بالفواكه والمرطبات ..
في مقدمة المكان كانت هناك منصة جلس عليها أساطين رجال المال في فنزويلا .. خلفهم طبعاً الشعار الشهير للفيديكامراس .. وهي اختصار لاتحاد الغرف التجارية الفنزويلية .. وبصورة أكثر وضوحاً : الفيديكامراس تضم مالكو البنوك ، الزراعة ، صناعات الطاقة ، الصناعات الثقيلة ، الاتصالات ، مقاولوا العقارات والانشاءات ، السياحة ، التعدين ، المواصلات ، الاعلام .. وغيرهم !
بالطبع الجالسون على المنصة هم نخبة النخبة ، و (روبن) مازال طفلاً صغيراً أمام هؤلاء الحيتان الضخمة .. لكنه برغم ذلك سعيد بالانضمام اليهم في هذا السن الصغير ، بفضل ثروة والده الزراعية الضخمة التي ورثها منذ شهور قليلة ..

يعرف بالطبع سبب الاجتماع ، انه (شافيز) اللعين مرة أخرى ، لكن ما الجديد هذه المرة ؟!
لم يكد ينتهي من التساؤل حتى وجد (بدرو كارمونا) رجل الأعمال الأصلع العجوز ، ورئيس الفيديكامراس ، يتقدم نحو منصة الخطابة ..
دوى تصفيق شديد فرفع (كارمونا) يده محيياً وهو يبتسم .. وقف يلقي بعض كلمات التحية المقتضبة .. ثم فجأة انطفأ نور القاعة وظهر ضوء بروجكتور يعرض صورة (شافيز) على شاشة قماشية في صدر المكان ..
وسط صفارات الاستهجان المعادية قال (كارمونا) :
- شافيز .. كلكم تكرهونه .. أعرف هذا تماماً .. لكن ما الجديد ؟
تغيرت الصورة لتظهر طوابير طويلة من الفنزويليين الفقراء فأكمل قائلاً :
- الجديد أنه بانتخابه لولاية جديدة ، عن طريق استغلال الفقراء والجهلة من أهل فنزويلا ، زاد من شراسته ضدنا .. لقد أذاقنا الكثير من المر في ولايته الأولى .. قام بتقطيع الملكيات الزراعية الكبيرة ، قام باعادة توزيع أرباح البترول وأخيراً قام بتخفيض أسعار الغذاء بصورة مبالغ فيها .. على حساب من يقوم هذا اللعين باكتساب شعبية ؟
تصاعدت الأصوات الغاضبة فأكمل (كارمونا) في عصبية :
- على حسابنا نحن ! بعرقنا وتعبنا نحن ! هل هذا معقول ؟ انه تجاوز كل الحدود في ولايته الأولى وواجهناه بقصف اعلامي مركز ، لكن كل هذا لم يستطع افقاده الشعبية التي اكتسبها ، الدرس الذي تعلمناه هو : أي رئيس يجعل الفقراء يشعرون بالتغير السريع لا سبيل لمجابهته وتشويهه اعلامياً على الاطلاق مادام أغلب الشعب من هذه الطبقة !
هكذا فوجئنا باللعين يقوم الشعب بانتخابه مرة أخرى برغم التشويه الاعلامي الرهيب الذي وجهناه نحوه .. لكن ..
هل نستسلم ؟ وهل يتوقف ؟
صمت قليلاً ليراقب رد الفعل الغاضب الرافض للاستسلام ، فأكمل وهو يشير الى صورة جديدة على الحائط تظهر مصنعاً عملاقاً للبترول :
- الغبي لم يتوقف .. هاهو يتحرك من جديد فيصدر حزمة من ٤٩ قانوناً تضربنا في مقتل ، انها تنقلنا بالفعل الى حقبة أكثر انحيازاً للحثالة و أكثر ايلاماً لنخبة البلد وعظماءها .. انه يتحرك هذه المرة نحو شركة (بترول فنزويلا) الوطنية .. يريد احكام قبضة الحكومة عليها أكثر وأكثر واضعاف قبضتنا عليها بصورة أشد ..
وتغيرت الصورة لتظهر مجموعة من شعارات شركات البترول الأمريكية الكبرى العاملة في فنزويلا فقال :
- وها قد ارتكب غلطة العمر .. انه يتحرك نحو ضرب شركات أمريكا العاملة في فنزويلا .. لقد قام الأمريكان بمساندتنا كثيراً طوال الفترة الماضية بسبب ارتباطنا الأبدي معهم بكل تأكيد ، لكنهم لم يوافقوا على اطلاق أيدينا الى المدى الأبعد بسبب شعبيته الكبيرة وانتخابه ديمقراطياً ..
ثم أشار باصابعه في انتصار هاتفاً :
- الآن قد جاءتنا الفرصة .. ان الولايات المتحدة توافق على الديمقراطية مالم تمس مصلحتها ، أما ان مسستها بشعرة فهي تسحقك بسرعة وبلا مبالاة .
فهل هناك مساس بمصلحتها أكبر من تهديد أحد أكبر مصادر البترول لديها على الاطلاق منذ السبعينات ؟
تصاعد صوت من القاعة المظلمة متسائلاً في حيرة :
- حتى لو دعمتنا الولايات المتحدة .. كيف يمكننا اسقاطه سلمياً وهناك أفرع كثيرة في الجيش تحبه وتدعمه ؟
ابتسم (كارمونا) وقام بتغيير الشريحه لتظهر قاض فنزويلي ضخم وقال :
- سنسقطه على عدة مراحل بالطبع ..

المرحلة الأولى .. اشغاله بمعارك وهمية كبرى تشوه سمعته في الداخل و الخارج .. وسيلتنا : القضاء !

***

"هل شافيز مجنون؟"

وقف الأمريكي ذو الأصول الفنزويلية (آنخيلو بينا) يطالع عنوان جريدة النيوزويك مندهشاً ، هذه من المرات النادرة التي تكتب فيها النيوزويك عن فنزويلا !

قام بشراء الجريدة فوراً وجلس في أقرب حديقة يطالع المقال ..

كان المقال يتحدث عن تلك القضية التي رفعها مجموعة من المحامين في فنزويلا أمام المحكمة الدستورية العليا ، والتي يطالبون فيها بعزل (شافيز) لأنه مصاب بتخلف عقلي !

راحت الجريدة الأمريكية تستعرض حجج هؤلاء المحامين الغريبة ، لكن محرر المجلة جعلها قوية للغاية بوضع رأيه الشخصي في أفعال (شافيز) .. هناك محلل نفسي أمريكي كبير يؤكد صحة هذا الكلام .. وهناك طبيب أعصاب عالمي يؤكده ! ان شافيز بالفعل مجنون أيها الأمريكان ، ومن حق المحكمة الدستورية العليا عزله فوراً !

أغلق (آنخيلو) الجريدة في ضيق .. كان في رأسه ألف سؤال وسؤال .. في اليوم التالي وجد أغلب الصحف الأمريكية تستضيف الأطباء ليؤكدوا على خطورة جنون شافيز .. الأخبار القادمة من فنزويلا كلها تصب في اتجاه واحد ! الاعلام الامريكي فجأة تذكر أن هناك دولة اسمها فنزويلا برغم أن (آنخيلو) قضى أغلب اقامته في أمريكا يتلقى السخرية المعهودة على اسم بلده وموقعها !

في العمل وجد اهتماماً وتعاطفاً من زملاءه وهم يطالعون تقرير السي ان ان الذي يظهر مقدار الغضب الشعبي الضخم على (شافيز) لأنه مجنون ! الأمر بالنسبة للأمريكان أصبح مؤكداً ! الاعلام الفنزويلي الخاص كله يصف (شافيز) بالمعتوه ويرجوا (الدستورية العليا) أن تفصل بسرعة في هذه القضية المصيرية .. عشرات من رجال الأعمال الفنزويليين وجهوا مذيعيهم لأمريكا كي يشرحوا للأمريكان مدى المعاناة التي يعانونها تحت حكم هذا الطاغية المجنون !

صمت (شافيز) ولم يرد على هذا التطاول .. راح يعمل من أجل تمرير قوانين احكام قبضة الدولة على البترول بصورة أكبر .. ذهب في الاصطدام مع رجال الأعمال وأمريكا حتى النهاية ..

ثبتت الصورة الذهنية عند كل الأمريكان أن شافيز مجنون برغم انتخابه بصورة ديمقراطية حرة ، وانشغل الشعب الفنزويلي بين مقتنع بجنون شافيز ، ومدافع عنه حتى الموت ..

***

تغيرت صورة البروجكتور لتظهر مجموعة صغيرة من العمال الفنزويليين في تظاهرة محدودة ، قال (كارمونا) وهو يشير الى الشاشة:

- المرحلة الثانية.. التجميع المتدرج .. وسيلتنا : الاضرابات العمالية البسيطة ..

***

تجمع بضع عشرات من عمال شركة (بترول فنزويلا) الوطنية .. لقد علموا بالأمس فقط أن احكام قبضة الدولة على شركتهم ورحيل رجال الأعمال يعني تخفيض أجورهم .. تجمعوا في غضب أمام الشركة .. حفزوا زملائهم على الاضراب .. ان المرتبات الضخمة ستضيع .. شافيز سيجعلنا شحاذين مثل الشعب برغم أننا نخبة العمال .. لابد أن نتوحد ضد شافيز ..

على بعد بضعة كيلومترات في شركة أخرى بدأ اضراب آخر .. شافيز اللعين لا يريد رفع أجور هذه الشركة .. شافيز لا يقوم بمساواتنا بباقي الشركات .. تباً لشافيز ان لم يوفر لنا مطالبنا ..

مرت الأيام .. بعض النقابات بدأت تتحرك بايعاز من رجال (الفيديكامراس) .. تباً لشافيز الشيوعي الذي يريد أخذ كل المال للدولة ولا يعطينا أي شئ .. أين حقوق العمال يا (شافيز) ؟
بدأت التظاهرات تزداد يوماً وراء الآخر .. الاعلام الخاص المملوك للفيديكامراس راح يصرخ ناقلاً بكاء العمال واحتجاجاتهم .. اهل فنزويلا كلهم بدأوا يشعرون بالتوتر والقلق .. نعم الاحتجاجات ضعيفة ومتفرقة بلا تنظيم حتى الآن لكنها تظهر حالة من انعدام الكفاءة لشافيز الذي يتجاهل أكثرها .. أضف هذا لقضية جنونه المنظورة أمام المحكمة الدستورية العليا لتعرف مقدار البلبلة التي أصابت الناس ..

***

غير (كارمونا) شريحة البروجكتور ليظهر تظاهرة هائلة في شوارع كاراكاس .. قال معلقاً عليها :
- الاضراب الموحد الكبير .. هذا هو المرحلة الثالثة .. اضراب هائل يجمع العمال كلهم ويبدأ في ملئ شوارع كاراكاس .

***

في ديسمبر توحدت الاضرابات كلها فجأة !
المدارس أعلنت الاضراب .. ارحلوا يا أطفال .. لا تعليم ..
المستشفيات أعلنت الاضراب .. لا صحة ..
القنوات الخاصة الكثيرة والمتشعبة قطعت عرض الافلام والبرامج كلها وعرضت بثاً حياً مستمراً لعشرات الآلاف من المضربين ..
عمال شركة (بترول فنزويلا) أعلنوا بأكملهم الاضراب ومعهم عمال عشرات المصانع والشركات والزراعات الأخرى ..
الصحف الخاصة كلها حجبت نفسها عن الظهور !
بدأ الاضراب الهائل الكبير في فنزويلا .. ومعه بدأ (شافيز) يزداد عصبية .. بدأ يدرك بأن هناك مؤامرة كبرى .. لكن كيف يقوم بايقافها بلا مذبحة ؟

***

خمسة أشهر !
خمسة أشهر من الاضراب العام!
في ابريل أصيب (شافيز) بالجنون .. عمال الحكومة يعصون أوامره والاضراب ضخم للغاية .. قام بفصل العديد من رؤساء شركة (بترول فنزويلا) المحرضين على الاضراب والذين اعتبرهم أساس الاضراب العام .. قام باخراج قناة تلفزيونية حكومية تنقل للناس أن البلد هادئة وليست كلها اضرابات كما تصور القنوات الخاصة التي نقلت الاعتصامات والاضرابات الهائلة على مدار اليوم طوال أكثر من مائة وثلاثون يوماً ليلاً ونهاراً !
لكن حتى القناة الحكومية لم يمر عليها يوم واحد قبل أن تقسم الشاشة الى نصفين .. نصف للحكومة وتصريحاتها ونصف لعرض الاضراب !
بدأ شافيز يصاب بحالة من الانهيار .. لقد فقد التحكم حتى في القنوات الحكومية التي كانت تعادية خفية طوال الوقت .. مؤامرة الفيديكامراس فاقت الحدود هذه المرة ..

***

في الشريحة الأخيرة قام (كارمونا) بعرض صورة القصر الرئاسي (ميرافلوريس) .. قال وعلى وجهه ابتسامة انتصار :
- الخطوة قبل الأخيرة .. تحرك مليوني نحو الميرافلوريس وحصاره بمطلب واحد .. شافيز لابد أن يرحل .. أصدقاؤنا في الجيش الذين يدعمونا سراً سيضغطون من أجل حل واحد فقط ..

ثم أشار بيده علامة الذبح وهو يقول :
- التخلص من (شافيز) ..

****

تحرك (كارمونا) بداخل قصر الميرافلوريس وسط حراسة عشرات من جنود الجيش الى حيث اصطفت عشرات القنوات التلفيزيونية .. وقف أمام الكاميرات من كل الجنسيات وخاصة الأمريكية السعيدة قائلاً :
- لقد رحل الطاغية شافيز .. الجيش قام بوضعه تحت التحفظ يا أهل فنزويلا العظام .. مستقبل ملئ بالرخاء في انتظاركم .. وقد قبلت - تحت الضغوط - هذه المسئولية العظيمة التي كلفني بها ثوار فنزويلا العظام : رئاسة الدولة !
ثم رفع (كارمونا) يده قائلاً :
- أقسم لكم أن أحفظ وحدة فنزويلا وشعبها ..
وأن أكون خير رئيس يمثل الثورة والثوار ..

٣

راح (شافيز) يدور في محبسه بحصن تيونا في توتر ..
لقد كان يعلم الخيوط العريضة للمؤامرة ، بل واستعد لها ببعض الاجراءات ، لكن الأحداث الأخيرة سارت بمعدل مجنون وسريع للغاية .. باغته بشدة سرعة استجابة قادة الجيش و تغير ولاؤهم للفيديكامراس بزعامة (بدرو كارمونا) ..
اقترب من النافذة ليلقي نظرة عابرة على مقدمة الحصن ، لكن عيناه اتسعتا واقترب أكثر ليدقق في تلك السيارة الفخمة التي وقفت امام البوابه ، وهرع اليها بعض قيادات الانقلاب بترحاب كبير ..
نزل من السيارة رجل يعرفه جيداً ، انه الملحق العسكري الأمريكي !
قابل الملحق العسكري ترحابهم بالتهنئة والضحكات الهائلة ثم اختفوا جميعاً بداخل الحصن !
الآن (شافيز) يمتلك الدليل على تورط الأمريكان .. طبعاً كان على يقين بتورطهم في هذا الانقلاب سراً لكن كعادة الأمريكان ، من شبه المستحيل أن تفهمهم ان بحثت عن الدليل المادي القوي ، فهم قد يدعموك علناً بكل قوة ، في حين تعمل أجهزتهم على هدم بنيان دولتك واستبدالك في أقرب فرصة تُبدي فيها معارضة !
لكنه الآن يملك الدليل .. أقسم أن يفضحهم ان تمكن من التحرر ..
جلس أمام التلفاز الذي سمحوا له به في محبسه ليشاهد أنباء تنصيب كارمونا .. الاعلام كله يحتفل بجنون ..
رحل الطاغية .. رحل المجنون ..
برغم ضيقه الشديد بدأ يلاحظ تلك اللهجة الغريبة التي يتحدث بها كافة رجال الدولة وقادة الجيش ..
انهم يؤكدون للشعب ومناصروا شافيز أنه استقال ، بدأوا يسربون كلاماً مفاده أنه منهار بشدة وأنه في حالة غريبة من الاحباط واليأس بسبب خذلانه لشعبه !
وقف (شافيز) مرة أخرى في قلق أشد ، من معرفته لعقول هؤلاء لم يكن من الصعب استنتاج النبأ القادم مساءً :
- شافيز انتحر من اليأس يا شعب فنزويلا العظيم !

اتجه فوراً الى باب الغرفة وطلب حارسه ، انه ظابط فنزويلي من الكوماندوز متعاطف معه بشدة ، لكنه لا يجروء طبعاً على مخالفة أوامر قيادته ..
في حزم قال له (شافيز) :
- فارجاس .. انني أدرك مقدار حبك لي وحجم الضغوط عليك .. لكني سأطلب منك طلباً واحداً فقط .. أريد التحدث الى ابنتي لدقيقة واحدة ..
التفت (فارجاس) حوله وهو يقول في حرج :
- سيدي العظيم .. ان هذا الأمر قد يكلفني حياتي ..
وضع (شافيز) يده على كتف (فارجاس) قائلاً :
- انهم سيقتلوني الليلة يا (فارجاس) .. لا تُصدق كلامهم اليك أنهم سيكتفون بنقلي وحبسي في اللاروشا .. بل سيقتلوني هنا .. انه الأمر الأخير لي يا فارجاس ..
تطلع (فارجاس) الى عيني (شافيز) في ذعر وبدا أن هناك صراعاً هائلاً بداخله ، قبل أن يحسم أمره في النهاية قائلاً في صرامة :
- أقسم أن لا يمسك أحدهم يا رئيسي .. سأجيئك بالهاتف كما أمرت ..
لم تكد تمر دقائق حتى كان (شافيز) جالساً يحدث ابنته ، في عجاله وبصرامة بالغة قال لها :
- ابنتي الحبيبة ، انشري هذا الخبر بكل قوتك الى الجميع :
شافيز لم يستقل .. شافيز محبوس وينتظر شعبه ليحرره ..

****

بكى (خوان جويرا) من القهر طوال اليوم تقريباً !
انه فقير كأغلب ذوي الأصل الهندي من أهل فنزويلا ، ارتضى دور المشاهد طوال الفترة السابقة !
السادة ذوي الأصول الأسبانية هم من قادوا الاضراب ، هم من حركوا التظاهرات ، هم من كانوا في التظاهرات ، هم من حاصر القصر الجمهوري ، هم من أسقطوا الرئيس المنتخب ، هم من عينوا (كارمونا) عنوة !!
لقد سقط حلم الفقراء .. سقط شافيز الذي انحاز لهم وحارب من أجل حقوقهم طوال الفترة الماضية ، انتهى كحلم جميل مر بسرعة البرق !
(خوان جويرا) يعيش في حي فقير من أحياء كاراكاس .. الحي رائحته نتنه والسيدات البدينات جالسات متراصات في الشوارع أغلب اليوم ينتظرن أزواجهن الذين يعملون طوال حياتهم من أجل لا شئ سوى قليل من الطعام لأطفالهم !
الشاب (خوان جويرا) كان يحلم بمستقبل أفضل .. أجل زواجه وأجل كل شئ حتى تتحقق وعود (شافيز) وينتهي من معركته القاسيه مع رجال الفيديكامراس ..
لكن كل هذا انتهى في لحظة مجنونة من التاريخ !
قبل الظهر سمع ضجة هائلة من خارج شرفة منزله الخشبي المتواضع ، أخرج رأسه فوجد مجموعة ضخمة من الشباب تصرخ في وسط الشارع ، كان فيهم (ميجيل ميا فيتالي) وهو صديق فقير له كان يعمل بتجارة المخدرات ويأمل في الاقلاع عنها بعدما يوفر له شافيز فرصة عمل .. كان شافيز بالنسبة له هو الحلم .. لقد انتهى (ميا فيتالي) هو الآخر ..
لمحه (ميا فيتالي) فصرخ بعصبية :
- لا تبك مثل النساء يا (خوان) .. شافيز لم يقدم استقالته .. هكذا وصلتنا الأخبار .. سنتحرك الآن نحو الميرافلوريس .. ولنذهب كلنا الى الجحيم ان لم نقم باعادة (شافيز) الى كرسيه !

قفز (خوان) من سريره الى الشارع بقفزة واحدة ، كانت أمه واقفة تراقب الموقف لكنها امرأة شجاعة ، وجد في عينيها تصميم وهي تهتف له بقوة :
ـ أعد لنا (شافيز) يا (خوان) .. لن نسمح لهؤلاء الملاعين باضاعة رجل اخترناه وانحاز الينا ..
تحرك (خوان) معهم .. في الطريق الرئيسي وجد مئات الآلاف أغلبهم من الفقراء والهنود .. يسقط كارمونا .. فيفا شافيز ..
امتلأت روحه بالحماسة .. نعم .. فيفا شافيز .. يسقط كارمونا ..
الى الميرافلوريس ..

***

عندما وصل (خوان) كانت الاشتباكات قد اشتعلت بالفعل ..
أنصار المعارضة رفضوا افساح المجال لمحبي (شافيز) كي يدخلوا الى الطريق المؤدي للقصر ، والشرطة واقفة تحميهم وان ادعت الحياد ..
بدأت الشرطة تستعمل القوة .. هناك حالة من الهرج والمرج سادت الجميع ، اللعنة على الشرطة ، سريعة جداً في تغيير ولاءها لصالح أي حاكم ظالم طاغية ، وبطيئة في تقدير أي حاكم عادل !
كانت الاشتباكات في البداية بالهراوات ، لكن اصرار مؤيدي (شافيز) واستخدامهم الضرب جعل الشرطة تطلق بضعة أعيرة نارية في الهواء ..
تراجع الأغلبية وصعد جزء هائل فوق كوبري يطل على أنصار المعارضة .. كان (خوان) فوق الكوبري مع (ميا فيتالي) الذي وصلت حماسته للذروة .. اشتعل اللهيب في جوانح الجميع .. اليوم نموت ولن يحكم الكلاب ..
كان هناك تراشق بالطوب وأشياء أخرى .. اشتباكات بين الفريقين والشرطة مع الفريق المعارض تدعي حمايته لكنها تضرب في اتجاه واحد فقط : أنصار شافيز .. لاحظ البعض أن الشرطة بدأت تصوب على الأقدام !
أثناء الضرب فوجئ (خوان) بـ (ميا فيتالي) يخرج مسدساً اخفاه طيلة الوقت !
اتسعت عينا (خوان) في ذعر .. الأمر سيتجه نحو مذبحة كبرى ..
لكنه لم يملك التحدث في وسط هذا الهياج العصبي المسيطر على الجميع ، بل ظهرت بضع مسدسات في يد قلة من أنصار (شافيز) .. راحوا يطلقونها في الهواء لارهاب الشرطة ..
ما لم يعلمه (خوان) هو أن كل اعلام (فنزويلا) الذي ينقل المشاهد الحية لهذا الصراع وضع الكاميرات في اتجاه واحد فقط : أنصار شافيز !
وما ان بدأ ظهور المسدسات حتى التهبت خدود المذيعات والمذيعين من اللطم والصراخ والبكاء على وحشية أنصار شافيز المسلحين !
لكن الطلقات العشوائية بدأت تدوي من فوق الكوبري نحو المعارضة .. بينما المعارضة هي الأخرى أطلقت بعض الطلقات العشوائية للارهاب ..
لم يمر وقت طويل في هذا المشهد ، حتى سقط (ميا فيتالي) مضرجاً في دمائه .. ركض (خوان) نحوه في هلع ووضع رأسه على ركبته وهو يبكي .. لم يكن من الممكن اسعاف (ميا فيتالي) .. فقد جاءته الرصاصة في يا فوخه مباشرة !
رفع ثلاثة من زملاء (ميا فيتالي) رؤسهم قائلين في غيظ :
ـ قناصة .. هذه قناصة الشرطة أو الجيش .. لقد سقط ثلاثة منا بنفس الطلقات في المخ !
تلعثم (خوان) وقال :
ـ لكن .. لكن ماذا نفعل ؟ أين هم وكيف نوقفهم؟
نهض زملاء (فيتالي) هاتفين في قوة :

- سنثأر لفيتالي بالطبع .. لن نعد أحياء !
وقف معهم (خوان) وقد امتلاء بالحماسة والقوة .. التقط مسدس (فيتالي) وهو يقول لنفسه في حزم :
- ألف لعنة على ثائر يواجه الرصاص بالصراخ والشكوى والاحتجاج !
اتجه فوراً نحو الخطوط الأمامية ، كانت تفاهمات الثوار من محبي شافيز ألا يقتلوا أحداً من المعارضة ، ان هي الا رصاصات ارهاب فقط .. وعلى ما يبدوا أن هذا كان نفس حال ثوار المعارضة .. لأن رصاصاتهم كانت بقصد الارهاب أكثر منها بقصد القتل ..
راح الطلقات تدوي من الجانبين ، سقط البعض أحياناً لكنها كانت من رصاصات خاطئة ، أحياناً كان (خوان) يشعر بأن زملاءه يتألمون لسقوط قتيل من الجهة الأخرى بالخطأ وبودهم لو اعتذروا .. ولم يخالجه شك بأن الجهة الأخرى تحمل نفس المشاعر .. كلنا مخطئون فيما نفعله .. لكن التراجع أصبح مستحيلاً .. أحدنا لابد أن يقضي على الآخر ..
بدأ المعارضون في التراجع .. أنصار شافيز بدأوا في التقدم لحصار القصر .. يبدوا أنهم سينتصرون في النهاية بسبب الفدائية المبالغ فيها وأصولهم الفقيرة التي لا تجد شيئاً تبكي عليه ..
مع توالي القتلى برصاصات تخترق الأدمغة بدأ (خوان) يلاحظ على الجهة الأخرى أمراً خطيراً :
هناك عدد أكبر منهم يسقط - أيضاً - بطلقات في الأدمغة !
ان قناصة الشرطة أو الجيش تصطاد من الجهة الأخرى أيضاً !
اللعنة !
ما معنى هذا ؟!

***

الملازم (هيرمو بالومينو) يشعر بالتوتر !
منذ تم تكليفه بتأمين هذا الجزء من قصر الميرافلوريس بالأمس ، أي منذ بداية الانقلاب ، وهو يشعر بأن هناك شئ ما غير طبيعي !
هناك أصوات آتية من تحت الأرض ، خافتة نعم ، من الصعب جداً سماعها هذا أكيد .. لكنها موجودة !
في النهاية حزم (هيرمو) أمره واتجه نحو أحد حراس المكان القدامى .. سأله في عصبية :
- هل هناك مدخل الى قبو سري تحت الأرض ؟
تراجع الحارس في ذعر دون أن يجيب ، فأخرج (هيرمو) مسدسه وقام بجذب الحارس بعنف ليضع فوهة المسدس تحت ذقنه وهو يقول في صرامة :
- سأعتبر صمتك هذا أبلغ اجابة ، الآن أيها الحقير ستدلني عليه والا قتلتك هنا فوراً .
هتف الحارس في ذعر :
- سأدلك عليه يا سيدي .. أقسم لك ..
دفعه (هيرمو) وهو يقول :
- هيا .. ارني الطريق ..
تحرك الحارس بسرعة مع (هيرمو) الشرس ، كان الحارس يعرف مقدار عنف هذا الملازم بالذات وعداوته الشديدة لشافيز ومحبيه منذ دخل القصر بالأمس .. لذا قام بتنفيذ الأوامر بلا تردد ..
وصل الاثنان الى لوحة جدارية كبرى ، قام الحارس بالوقوف جوارها وفتح باب سري .. دفعه (هيرمو) الى الداخل المظلم ونزل بضعة درجات وقد شهر مسدسه في تحفز ممسكاً بتلابيب الحارس دافعاً اياه أمامه ..
لم يكد يتحرك لثلاثة أمتار في الظلام حتى شعر بفوهة مسدس باردة تلتصق بقفاه .. وصوت صارم للغاية يأمره بغلظة :

- بهدوء الآن .. ألق سلاحك بلا ضوضاء !
كاد (هيرمو) يقوم بحركة قتالية لكن الضوء عاد فجأة الى القبو السري المظلم ..
هنا اتسعت عيناه في ذعر هائل وألقى مسدسه بلا تردد ..

***

مهموماً جلس (بدرو كارمونا) على مقعد الرئاسة وحيداً في غرفة مكتب قصر ميرافلوريس ..
كانت حالته النفسيه في انحدار ، صوت طلقات الرصاص القادم من بعيد بين أبناء فنزويلا ، واصرار محبي شافيز على مساندته بأي ثمن ، واحتجاجاتهم الصارخة التي تهز أركان قصره ، ترافق مع ملاحظات غريبة بدأ يجدها (كارمونا) منذ القى القسم كرئيس لفنزويلا ..
ان هناك من قادة الجيش الذين ساندوه من أبدوا تبرماً ورفضاً لاختياره .. دارت مناقشات طويله بينهم نقلها له بعض جواسيسه مفادها شئ واحد : مادمنا قد قمنا بالانقلاب فلماذا نجعل هذا المدني يحكمنا ؟!
انها عقلية صاحب السلاح مرة أخرى .. مهما امتلكت من نفوذ وقوة ومال يا كارمونا يظل حامل السلاح هو صاحب الكلمة الأخيرة .. الجيش بدباباته وطائراته وصواريخه أكثر نفوذاً من كل مال الدنيا ان امتلكته .. ولا يوجد شئ يعادل عشرات الآلاف من الجنود المسلحين الأقوياء يتحركون باشارة واحدة منك بدون أي تردد وبلا أي مناقشة لاشارتك ، فأي مال في الدنيا يجعلك تشعر بمثل هذه القوة والسيطرة والامتلاك ؟
لهذا بدأوا يتبرمون من وجودك يا (كارمونا) .. قد يلجأوا لتصفيتك وتصفية شافيز وأخذ زمام الحكم في قبضتهم !
أليس هذا وارداً ؟
في وسط هذه المشاعر المضطربه رن جرس هاتف مكتبه ، رفع سماعة التليفون فوجد صوتاً عميقاً يقول في ثقة :
- اسمع يا (كارمونا) .. معك الجنرال (راؤول بادويل) .. سأعرض عليك عرضاً لا تستطيع رفضه ..
اعتصر (كارمونا) سماعة الهاتف في قلق ، بادويل معروف بولاؤه المطلق لشافيز .. لكن (كارمونا) معه باقي الجيش ..
أكمل (راؤول) بنفس الهدوء :
- أمامك الآن دقائق قليلة لمغادرة القصر ! أخبر مجموعة الجنرالات الحمقى أنهم تحت رحمتي تماماً .. لقد قمت بتوجيه عشرات الصواريخ في القواعد العسكرية الموجودة خارج العاصمة .. أتعرف ما وجهتها الآن ؟
الميرافلوريس نفسه !
في ذعر هائل وارتباك هتف (كارمونا) :
- مستحيل .. معي هنا قادة الـ ..
قاطعه (راؤول) في صرامة :
- لا تقاطعني أيها اللعين .. بل ما أقوله صادق تماماً .. أنت ومن معك تحت رحمتي تماماً .. بل أنت السجين بالفعل وليس شافيز .. تحت قصرك يوجد مئات من رجال الكوماندوز قمت باخفاءهم ليلة الانقلاب تحسباً لأي طارئ يحدث .. أخرت استخدامهم فقط حتى اللحظة المناسبة .. هل أدركت من السجين الآن ؟
قفز (كارمونا) من مقعده وفك ربطة عنقه وهو يشعر بحصار رهيب ، قال في ارتياع وهو يتصبب عرقاً :
- لكن .. هذا مستحيل !
ان معي قوات كوماندوز أيضاً تابعه للجنرالات الموالين .. سأقوم بعمل مذبحة صدقني .. يمكنني أن أؤكد لك انني سانتصر في النهاية .. قوات الحرس الجمهوري أيضاً يمكنها ..
دوت ضحكة هائلة من (راؤول) قبل أن يقول في قسوة :

- أحمق .. مغفل كبير .. انظر يا لعين الى ساحة القصر الآن ..
تحرك (كارمونا) بالهاتف نحو الشرفة فوجد المئات من قوات الحرس الجمهوري تجتاح الساحة ، كان (راؤول) يتابع بنفس اللهجة المتشفية :
- لقد انقلب الحرس الجمهوري ضدك .. واجتاح القصر من ممرات سرية بأسفله .. أنصحك يا أحمق بأن تهرب بأقصى سرعة .. ربما نحاكمك فيما بعد وربما نعفو عنك .. لكن هؤلاء ان رأوك ذبحوك بلا تردد !
ألقى (كارمونا) سماعة الهاتف مذعوراً .. انطلق راكضاً الى خارج الغرفة فوجد كل شركاؤه العسكريين ورجال الاعمال يهربون في هلع شديد من خلف القصر ..
راح يركض بسرعة الى أقرب سيارة دون أن يكلم أحد أو يكلمه أحد ..

وصفة الملك جيمس

ركع الأمير (جيمس) على ركبه واحده أمام البطرك الانجليزي .. ان هي الا لحظات ويلبس التاج ويصبح ملك انجلترا العظيم ..
وما ان ارتدى الملك (جيمس) التاج .. حتى قام بوضع اصبعه في انفه ، ثم اخرجه ووضعه في فمه .. وبصق على جميع الحاضرين المندهشين المشمئزين !!
وبدأ عهد (جيمس) .. أصبح هو عهد الحضاره والتنوير لأنجلترا .. فقرر الملك (فيليب) الفرنسي فعل نفس الحركات عند التتويج .. الاصبع في الأنف ثم الفم ثم البصق على الحاضرين لحفل التتويج !
وما ان نجح (فيليب) وازدهرت بلاده حتى اشتعلت هذه الموضه في أوربا كلها .. كل الملوك قاموا بنفس الحركات ، انها سر نجاح الأمم .. طبعاً بجوار الاقتصاد والزراعه والقوه العسكريه .. لكن هذا السر هو الأعظم من بقايا (جيمس) ..
يجئ (مبهور أفندي المصري) الى أوربا .. يشعر بالانبهار من التقدم والعلوم .. يقرر أن كل ما في بلادهم جميل .. وهو كذلك بالفعل .. لكنه يسأل عن السبب فيقولون له أنه الصناعه والزراعه و الأهم على الاطلاق : الاصبع في الانف .. تراث (جيمس) الحضاري الأعظم!
يشمئز في البدايه .. هذا ضد اخلاقه ونظافته ودينه .. لكن الكل يقنعه أن هذا هو قلب سر النجاح الأوربي ..
يقتنع في النهايه ، يبحث عن الأدله الشرعيه المناسبه .. ويلوي عنقها بشده .. ثم يذهب الى وطنه الشرقي ..
ولأنه الأدرى بقومه ، فلا يحكي لقومه مباشرة عن هذا العاده القذره .. انما يجئ معه بألف صوره لأوربا تبهر الأنفاس وتحير العقول ، ويعرض عليهم ألف آله لا مثيل لها .. يسألونه عن السر .. يخبرهم انها عادةً ما .. فيها قبح قليل .. لكن من لا يقبلها يظل قابع وسط ظلام التخلف الى الأبد .. وان قاموا بها جاءت الصناعه والزراعه تهرول اليهم تلقائياً .. يخبرهم بتفاصيل العاده .. يستنكرونها بشده في البدايه .. لكن فقر البلاد وقذارتها يجبرانهم على الحلم .. وفي النهايه يقبلون بهذه العاده على مضض .. ويبدأون في نشرها .. الكل يستقذرهم ، لكنهم يؤكدون أن النجاح بدونها مستحيل .. وبعد وقت يتعصبون لهذه العاده ، يؤمنون بها تماماً أكثر من أي شئ .. ان هذه العاده هي المفتاح لكل أوروبا المتقدمه !
تمر السنوات .. ويضع الأغلبيه أصابعهم في أنوفهم ، وتبقى أقليه رافضه لهذه القذاره .. أصبحت هذه الأقليه هي المتهمه بالقذاره نفسها !!
لكن النجاح لا يأتي .. ويظل الشعب والنخبه يضعون أصابعهم في أنوفهم بلا جدوى .. ولا أمل ، لكنهم مصرون انهم الصواب ، وغيرهم هم القذاره والتخلف !

***

أفقت من نومي ، وبعد الفطور تناولت الجريده وفتحتها على مقاله لأحد المثقفين المشاهير جداً .. يعتبرنا بلد تخلف وعفونه ، لأننا لا نسمح بالميني جيب وحرية المرأه الجنسيه .. الذي أخذت به أوروبا فجائت الصناعه والزراعه تهرول راكعة ، فهكذا تقدمت أوروبا ، وهكذا يجب أن نسير ، أما المخالفون فهم شرذمه حيوانيه متخلفه يجب التخلص منها في أسرع وقت !
حاولت تذكر حلم يفسر هذا الكلام الغريب .. لكني كنت أنساه كل مره !

لتكن حرباً

ارتفعت العيون إلى أعلى ، حيث صعد شاب فوق أحد المآذن العالية لمسجد الأزهر كي يؤذن لصلاة المغرب ..
قام كل مؤذن بأداء واجبه كالمعتاد .. ثم فجأة انفجر في الهجوم على المماليك والدعاء عليهم !
اندهش أهل القاهرة .. خرج الجميع من حوانيتهم يستمعون لهذا المهرجان من الاصوات ..
كان الشباب الأزهري يسب (محمد بك) زعيم المماليك ! يلعنونه وجيشه ويفضحون أفعالهم ومخازيهم في مصر !
نظر بعضهم الى مملوك واقف فوق حصانه يستمع معهم في غيظ وضيق مع كثير من الذهول !
انقبضت القلوب جميعاً ..
لقد أعلن الأزهر الحرب !

***

الشيخ البنداري كان يعيش أسود أيامه .. انه متضامن مع الطلبة والشيوخ في اعلان الحرب رغماً عنه .. لكن من داخله كان يشعر بأن الهلاك قريب .. انهم يتحدون (محمد بك) نفسه !
محمد بك .. زعيم المماليك المتطرف الذي كون لنفسه جيشاً كبيراً متعصباً سفاحاً سماه (جيش الضرب) وسيطر به على مصر .. حتى ان الوالي العثماني (عمر باشا) كان كالفرخ بين يديه لا يجروء على عصيان أوامره أبداً برغم أنه المفترض أن يكون رئيسه !!
ان مندوب السلطان العثماني نفسه لا يجروء على مخالفة (همسة) واحدة يهمسها (محمد بك) !
ثم في يوم أسود على الشيخ البنداري .. هرب عشرة مماليك أمر محمد بيك بقتلهم أو طردهم خارج البلد .. هرب هؤلاء الى أين ؟
الى الأزهر ! الى داخل قلب القاهرة !
المثير أن (علماء الأزهر) أعلنوا حمايتهم لهؤلاء .. و (أمروا) الوالي ومحمد بك باعطاء الأمان لهم ..
أذعن لهم الباشا دون الرجوع لمحمد بك .. وأصدر فرماناً بذلك ..
وثارت ثائرة (محمد بك) .. وصمم على تسليمه العشرة بلا شروط ..
وعند أذان المغرب المذكور .. بدأت الحرب !

***

تحرك عشرة مماليك من جنود (جيش الضرب) في عصر القاهرة ينبهون على الجميع بحظر التجوال بعد صلاة العشاء ..
لقد أصدر (محمدبك) منشوراً بحظر التجوال مساءً واعلان الأحكام العسكرية .. لقد أعلن الحرب هو الآخر ..
في القلعة كان الوالي (عمر باشا) يسلم الشيخ البنداري قرار تعيين (يوسف أوضة باشي) نظارة الأزهر ..
قال (عمر باشا) للشيخ البنداري :
- أعذرني شيخ (بندراي) .. ليس هناك شئ بيدي .. ان القرار من محمد بك نفسه ..
رد عليه الشيخ (بنداري) في ضعف :
- وأنا أيضاً ليس بيدي حيلة مع العلماء يا باشا .. هم أيضاً مصممون على اشعال الموقف .. ليس عندهم حكمة على الاطلاق في هذا الأمر .. وأخاف أن يؤذى الأزهر وأهل القاهرة بسبب هذا التصميم العجيب على التحدي ..

قال (عمر باشا) بقلق :
- أخشى أن يقوموا برد فعل عنيف على تعيين (يوسف أوضة) ان فهموا أنه من طرف (محمد بك) ! شيخ (بنداري) أنا اعتمد عليك .. حاول اقناعهم بالقرار لتهدأ الأمور ..
- سأحاول يا باشا .. سأحاول .. لعن الله الاستهتار بالدم ..

***

أمسك الشيخ (البكري) بالقرار ساخراً .. ثم التفت الى باقي العلماء قائلاً :
- طرطور (محمد بك) الجديد اسمه (يوسف أوضة) .. محمد بك يتحدانا .. يتحدى علماء الأمة .. فماذا تصنعون معه ؟
عبث الشيخ السادات بلحيته قليلاً ثم قال :
- لن نفعل نحن .. بل سيفعل أصغر تلاميذنا ..
ثم التفت الى باب الجامع الأزهر يراقب موكب (يوسف أوضة باشي) الوزير الجديد المكلف بشئون الأزهر .. ما ان خطا (يوسف) داخل المسجد حتى قام التلاميذ برشقه بالأحذية وهم يطردونه خارج المسجد .. اذهب يا طرطور محمد بك .. بينما راقبه المشايخ من بعيد في سخرية واستهزاء .. تراجع الرجل المهان بسرعة الى خارج الجامع .. هتف في عصبية : والله ستدفعون الثمن أيها الدراويش .. ستدفعون الثمن ..
ركض وراؤه التلاميذ فهرب هو والمماليك بعيداً بسرعة !
التفت الشيخ (البكري) بعدها الى الشيخ (بنداري) وفي عينيه نظرة غضب :
- شيخ (بنداري) .. يجب أن تفهم أننا لا نستهين بالدماء .. صحيح أننا عزل وهم أقوى الجيوش .. لكننا والله لو تنازلنا لضاعت هيبتنا .. ولو ضاعت هيبة العلماء في الأمة لضاع الدين والدنيا .. وانا والله لن نفعل .. لن نتنازل وان تهدم المسجد علينا قطعة قطعة .. تباً للجبن فانا نرجوا من الله الشهادة .. ان رغبت الرحيل عنا فتفضل .. والله لن نسمح لانتهاك العسكر لحرمة العلم ..
اسقط في يد الشيخ (البنداري) فوقف يدافع عن موقفه وسط المشايخ قائلاً :
- بل والله ما أردت الا حقن الدماء .. ان هؤلاء المماليك العشرة نعلم أنهم ظالمي أنفسهم .. وعلى الأغلب فعلوا الأفاعيل المنكرة .. فكيف نغامر بضياع الدين والعلم وأهله وتلاميذنا وطلبتنا الآلاف الذين أتوا من كل أنحاء العالم الاسلامي .. ما ذنب هؤلاء الشباب كي نغامر بهم دون مراعاة للمصالح والمفاسد ..
نهض الشيخ (السادات) قائلاً له بعنف :
- بل تحت أقدامك تنظر .. والله اننا لو استسلمنا لهم لضاعت هيبتنا ولشنقوا العلم وأهله غداً بقوتهم العسكرية .. اننا نملك ما هو أقوى منهم يا رجل فتماسك .. ما جيش الضرب هذا وما السلاح الذي معهم ؟
ما هؤلاء الطواغيت ؟ انظر يا رجل الى الطلاب والشيوخ .. انظر ..
نظر الجميع الى آلاف الطلاب المتحلقين حول شيوخهم .. كانوا جميعاً قد عادوا لقراءة القرآن كما أمرهم الشيخ البكري .. سيقرؤنه ويقرأون البخاري ومسلم حتى تنزاح الأزمة على أن يعتصم الجميع في أماكنهم ..
أكمل الشيخ (السادات) بفخر وهو يشير اليهم و يواجه الشيخ (البنداري) :
- هذا هو جيشنا .. وقرآننا هو سلاحنا ..
فكيف ننهزم ؟!

***

تجمع آلاف الجنود في ساحة ميدان القلعة .. في المقدمة ظهر الأمير (محمد بك) فوق جواد ضخم .. بدا قزماً ينوء بحمل العملاق المرعب الذي يمتطيه ..
(محمد بك) السفاح المرعب .. العسكري المتطرف ..

من القلعة راح (عمر باشا) يراقب المشهد في وجل ..
انه متأكد أن هناك كارثة ستقع .. لا أحد يتحدى (محمد بك) .. لا أحد .. ولا السلطان نفسه !
كان (محمد بك) ينتظر رسوله الذي بعثه الى الأزهر .. لقد أبلغهم انه ينتظر بجيشه هذا قرارهم الأخير .. وأنه لن يؤذيهم .. فقط لابد من التسليم .. والا ..
عند الظهيرة عاد رسوله من الأزهر فوق جواده ..
فهم (محمد بك) الرد فوراً عندما شاهد ملابس رسوله الممزقة !
وصل رسوله اليه ونكس رأسه ..
تمتم (محمد بك) في احتقار :
- أغبياء .. مغرورين وأغبياء ..
ثم التفت الى مساعده وأمره باحضار السجين المستحق للاعدام ..
أخذه فوق جواده ثم ركض به وسط مجموعة من الجنود الى امام مسجد الأزهر ..
عندما وصل كان الطلبة واقفين في الساحات الداخلية والنوافذ ليراقبوه ..
نزل من على صهوة جواده .. ودار بعينيه ساخراً في وجوه الطلاب وشيوخهم .. ثم فجأة نزل بسيفه على رقبة السجين فأطارها بقسوة مباغته !
- هاااااااااااا.
التفت (محمد بك) في ذهول الى مصدر الصيحة .. فعاجله حجر كالقذيفة كاد يطير عينه .. تراجع في ذهول والطلبه وشيوخهم يصرخون ويرجمونه بالحجارة .. اعتلى فرسه بسرعة وانطلق كالصاروخ هارباً من طوفان الحجارة الأزهري !
تعثر أحد جنوده ووقع في أيدي المندفعين .. التفوا حوله وأوسعوه ضرباً بجنون .. راح المملوك الشركسي يبكي ويتحدث بكلام غير مفهوم ..أصبح على وشك الموت .. كانت مجموعة من الطلاب الضاربين من بلاد الشركس .. سأله اخوانهم عما يقول فأخبروهم أنه يحاول النفاد بحياته ويعتذر ويقول أنه لا شأن له بالكلب القاتل وبأفعاله ..
وصل أحد الشيوخ المغاربة من علماء الأزهر فأمر الطلبة بترك الرجل فنفذوا أوامره فوراً .. أمر الطلبة الشراكسة أن يترجموا له ما سيقوله ثم أمسك بتلابيبه ونظر في عينيه قائلاً في صرامة :
- الأزهر لا تخيفه أفعال عسكرك .. أزهر العلماء باق وأنتم زائلون يا حمقى .. اذهب وقل لـ (محمد بك) أن ما فعله لا يخيفنا .. مهما فعل فالعلماء وطلاب العلم هم طلبة شهادة قبل علم ..
لا يرهب العلماء سيف ..

***

اجتمع (محمد بك) مع قادة جيشه كلهم .. حتى القادة العثمانيين الانكشارية انضووا تحت لواؤه في جيش الضرب .. الآن هو الأقوى على الاطلاق .. ومع ذلك يهينه الأزهر !
ضرب بقبضته على عرشه في غيظ .. انتقل غضبه الى باقي القاده .. قال (قرا فضلي بك) في حسم :
- فلنهدمه فوق رؤوسهم ..
قال له (كور يوسف) بك في دهشة :
- نعم ننتقم .. لكن .. نهدم الأزهر ؟ تقصد نهدم أزهر العلماء ؟!
في غضب نهض (كور علي) هاتفاً :
- اللعنة على العلماء .. لقد اهانوا العسكر .. أهانوا الحاكم .. والله لو سكتنا على هذه المهانة لا نستحق الحياة .. ولا تصبح للجيش رهبة ولا للدولة هيبة ..

هز (كور يوسف) رأسه غير مصدق وهو يكرر :
ـ نهدم الأزهر ؟ أزهر العلماء !
في ثورة وقف (محمد بك) .. أصدر أوامره الجديدة لجيشه :
ـ فليهدم الأزهر فوق رؤوس من فيه .. ولو كانوا ألف ألف .. فليمت الجميع ماداموا يتحدوننا بهذا الغباء ! هم من يستخفون بأمر الدماء .. لا نحن ..
وتحرك الجيش ..

***

في هلع دخل الشيخ (البنداري) إلى مجلس العلماء .. هتف فيهم :
ـ يا شيوخ الأمة وعلماؤها .. (محمد بك) يحاصر المسجد الآن من كل الجهات بالمدافع .. أرجوكم احقنوا الدماء .. آلاف من طلبة الأزهر سيقتلون بلا ذنب سوى تهورنا .. بالله عليكم اقبلوا انذاره الأخير الذي بعثه معي .. انه يمهلنا دقائق قبل القصف ..
نهض الشيخ (البكري) في هدوء وألقى نظرة من نافذة المسجد الكبرى .. على مرمى البصر تراصت عشرات المدافع في كل الاتجاهات .. الأهالي يحيطون بالجنود ويصرخون في هلع من المجزرة القادمة .. الجنود يجهزون مدافعهم غير عابئين بالصراخ والتحذير .. انهم بلا حول ولا قوة والأمر يسأل عنه الحاكم العسكري ..
في هدوء انزل الشيخ البكري الستارة ونظر الى الشيخ السادات نظرة معروفة ، فقال الشيخ (السادات) :
ـ الطلبة كلهم أصروا على المكوث معنا الى النهاية .. الآن يقومون بقراءة القرآن في المسجد ويجهزون أنفسهم للشهادة ..
التفت الشيخ (البكري) نحو الشيخ بنداري وقال له بنفس الهدوء المثير :
ـ والله لن يهان العلم والأزهر على يد العسكر في زمننا .. نسأل الله أن يتقبلنا من الشهداء ..
اتسعت عينا الشيخ (البنداري) في ذهول ، احتبست الكلمات في حلقه ..
اصطف فجأة كل العلماء وراء الشيخ (البكري) يستعدون للصلاة الأخيرة في خشوع وهدوء ..
ومن بعيد دوى صوت القذيفة الأولى ..

خلافة ديمقراط

تحسس مسند العرش في تهيب ، حاول جاهداً التماسك لإظهار الهيبة الواجبة ، هو أول الخلفاء ولابد أن يصبح مثالاً يحتذى ..
رفع بصره بهدوء إلى العشرات من العلماء و الأصحاب و كبار الأمة ، رفع يده في هدوء و حزم قائلاً :
- أما و قد وليت عليكم.. فليعلم الجميع أننا سنحكم بالديمقراطية .. ديمقراطية تضمن حرية العقيدة .. تضمن حرية الرأي .. تضمن الحكم للشعب والسيادة له وحده .. تضمن حرية تشكيل الأحزاب والمعارضة وحكم الأغلبية .. تضمن التعايش السلمي .. تضمن حرية الفكر والابداع ..

أقسم لكم أن أحترم مبادئها .. و أعدكم أن ترتقوا للرخاء و سيادة الأمم بها ..
تبادل الحضور النظرات ، بعضهم في إرتياح و بعضهم في قلق و آخرون في ذعر ..
هذا عصر جديد .. عصر نظام جديد غير معروف لهم من قبل في شبه الجزيرة ..
إنه عصر الخليفة الأول .. ديمقراط الأكبر ..

***

لم يكد أسبوع يمر على استلامه الحكم إذ يستأذن للدخول عليه وفد ضخم ممثلاً لأكبر المدن و القبائل في الجزيرة .. بعد تحية و إجلال قال زعيمهم :
- يا خليفة الديمقراطية .. نريد وقف الزكاة هذا العام .. فالناس ضجت من هذا الأمر في المدائن التي نعيش فيها .. أغلبية أهل مدينتنا يرفضون دفع المزيد منها .
- كيف تجرؤون على طلب الإمتناع عن فريضة إسلامية ؟
- يا خليفتنا لا شئ فوق الديمقراطية .. السيادة للشعب و أغلبيته تطلب منك أن تلتزم بوعدك الكريم في الإلتزام بمبادئها ..
صمت الخليفة مفكراً ، بدت الحيرة في وجهه فقرر شيوخ البلاط التدخل دون استئذان فراحوا ينبهون الخليفة أن هذا لا يجوز .. هذه ردة عن الإسلام ..
إندفع شيخ مع الوفد هاتفاً : هذا رأيكم أنتم .. و هو ليس الرأي الفقهي الذي أقررته أنا لمدينتي ! لقد أنتهى قولي في هذا الأمر أن آيات الزكاة يمكن تأويلها كي تصبح غير مفروضة على كافة المسلمين !
- من أنت يا هذا لتأول كما تشاء مخالفاً الأمة ؟ هذه ردة يا مأفون ..
- ليست ردة .. هذا رأيي الفقهي ..
- هذا ليس رأياً فقهياً يمكن الخلاف فيه .. أنت تدمر أصل من أصول الإسلام ..
رفع الخليفة يديه منهياً النقاش .. نظر إلى زعيم الوفد مطولاً ثم قال : مدائنكم أغلبيتها توافق على هذا ؟
- أي نعم !
- حسناً .. قم بإيداع الفتوى التي استندت عليها في الدفتردار و سيقوم عاملي على المدينة بأخذ رأي الأغلبية .. إن وافقوا على رفض الزكاة سأرفعها من عليكم !
ضحك الزعيم في سعادة هاتفاً وسط زمجرة شيوخ البلاط :
- و نعم الديمقراطية يا خليفتنا !
هنا اندفع رجل آخر من زعماء الوفد قائلاً :

- يا خليفتنا طلب آخر .. في مدينتنا يريدون حرية العقيدة .. هناك حركة عودة لدين الآباء وأنت وعدتهم بحرية العقيدة .
هذه المرة إرتج البلاط غضباً من الشيوخ و نهض الخليفة واقفاً في استنكار !
- دين الآباء ؟ تقصد الوثنية ؟ تريدني أن أسمح بالردة عن دين الإسلام ؟!
- بل تسمح بحرية العقيدة يا مولاي .
- بل اسمها الردة ..
استحسن الشيوخ غضبته و دخلوا في نقاش ساخن مع الوفد ، ترامت الأدلة بين الفريقين ، هتف شيوخ البلاط أن الأدلة المقدمة لحرية الأرتداد خائبة لا عقل فيها و لا شرع .. بينما رد عليهم الوفد بأنها أدلة أقنعتهم و هم أحرار فيما يؤمنون به !
جلس الخليفة على عرشه مرة أخرى .. وضع راحتيه على ركبتيه و ظل ثابتاً لدقائق يفكر ..
- استفتاء
- ماذا ؟
ابتسم الخليفة قائلاً :
- لنقم بصنع استفتاء .. هل تؤيدون حرية الردة أم لا .. و لنستفت فيه الأمة كلها !
- يا مولاي .. إن قلت حرية الردة فقد حكمت بسقوطنا مبدأياً بالإنحياز لخصومنا .. الديمقراطية تقتضي التوافق .. فلنسمه إسماً ديمقراطياً : استفتاء على حرية العقيدة ..
أشاح الخليفة بيده لينهي الأمر .. هو واثق بأن الشعب لن يختار طريق هؤلاء ..

****

صباح الاستفتاء امتلأت الشوارع أمام اللجان بأهل الجزيرة .. الكل قرر القيام بالتصويت .. انتشر مندوبو (حركة الحرية والسلام) أمام اللجان ينبهون الناس أن الاسلام يكفل حرية العقيدة .. لابد من احترام هذه القيم والتصويت بنعم لحرية العقيدة .. الكل تأثر بعد أيام طويلة من عمل هذه الحركة الدعائي صباحاً و مساء ..
الأغلبية قررت التصويت بنعم .. نعم لحرية العقيدة .. نعم لمبادئ الديمقراطية ..
هكذا خرجت نتيجة الاستفتاء مساءً و (نعم) متفوقة بنسبة ٩٠ % !
حاول الخليفة التماسك برغم المفاجأة ، كيلا يشمت فيه الكثيرون خرج مبتسماً يبارك النتيجة أياً كانت .. فهكذا هي الديمقراطية !
و إن هي إلا أيام حتى بدأت حركة الردة وسط أهل الجزيرة خاصة قلبها .. سعداء مطمئنين إلى الحماية الدستورية والقانونية التي وفرها لهم الخليفة إحتراماً للإستفتاء و الديمقراطية ..
خرج جمع من شيوخ القصر في الإعلام يطالبون بحرب المرتدين و قتالهم .. قاطعوا الخليفة و لم يأبه لهم .. لكنهم قوبلوا بحملة ازدراء واسعة خاصة بعدما وصفهم إعلام الأغلبية المرتدة بالمتعصبين الثيوقراطيين و المتطرفين المجانين ، هكذا حوكموا بعد قليل بتهمة إزدراء الأديان و الأخرى و خاصة الآلهة الكبرى (يغوث و يعوق و نسرا) مما هدد السلم الاجتماعي.. و بسرعة حكم عليهم القضاة بالسجن لعشر سنوات ! صرخوا مطالبين بحرية الرأي .. لكن القاضي ذكرهم بأن أي رأي يخالف الديمقراطية و التسامح من الضروري عدم التسامح معه ومنع حريته !
هكذا رسخت حرية العقيدة و انتشرت الردة بل و ظهرت عقائد مخترعة جديدة !
و هللت الصحف بصورة مستمرة :
نعم لحرية العقيدة .. نعم للديمقراطية .. نعم للخليفة.. لا وألف لا لدعاة الفتنة !

****

اقتربت الانتخابات البرلمانية التشريعية ..
يمكنك معرفة هذا بسهولة من صور المرشحين المنتشرة في كل مكان .. تذكر أن المنافسة شرسة وحزب الأغلبية سيشكل الحكومة ومنه سيكون رئيس الوزراء ..
زعيم أشد الأحزاب تنافساً وشعبية هو حزب (الحب و السلام) لمسيلمة بن حبيب ، يمتلك شعبية قوية جداً بين الأغلبية والحق يقال .. يتنافس معه بقوة الآنسة (سجاح بنت الحارث) .. ربما تأخذ المركز الثاني إن بذلت مجهوداً أكبر .. لكن المفاجأة انهما دخلا ائتلافاً واحداً في قائمة موحدة أمام قائمة حزب (المستمسكين بالكتاب) الأصولي ..
في يوم الانتخابات التشريعية الديمقراطية امتلأت الشوارع حتى آخرها .. الكل قرر أن يحتفل بهذا العرس الديمقراطي السعيد .. الكل قرر المشاركة .. هذه أول انتخابات تشريعية في عهد الديمقراطية وسينبني عليها الكثير والكثير ..
نجح حزب (مسيلمة بن حبيب) نجاحاً هائلاً .. تم اعلان مسيلمة رئيساً للوزراء و (السيدة) سجاح صاحبة المركز الثاني نائبة له .. استقبله الخليفة في قصره سعيداً بهذا الانجاز الذي يؤكد وفاؤه للديمقراطية .. هلل العالم كله فرحاً بهذا الإنجاز العظيم حيث يتوافق الخليفة المسلم مع رئيس وزراء مخالف في العقيدة ، وتقاطرت عشرات الوفود من دول الفاتيكان وفارس و هندوستان معربة عن تقديرها لإختيار شخص توافقي عظيم كـ (مسيلمة) لرئاسة الوزراء ورئاسة السلطة التشريعية الحالية .. كل العالم دعم حزبه ودعم التجربة الديمقراطية وأشاد بالخليفة الديمقراطي ..

***

نزل التشريع الأول من البرلمان ذي الأغلبية التابعة لمسيلمة بإلغاء الصلاة في المساجد .. هاج علماء الدين على (مسيلمة) و خرجوا في مظاهرات غاضبة .. تركهم (مسيلمة) يعبرون عن رأيهم بالطرق السلمية ورفض لجوءهم للعنف مع التنبيه أنه فعل هذا مضطراً لتوفير أوقات زائدى للعمل و نهضة الأمة .. أعلن بعضهم الجهاد المسلح ضده فاتجهت قوات الأمن لتعتقلهم فوراً و تحولهم للمحاكمة بتهمة محاولة قلب نظام الحكم والردة عن الديمقراطية .. قام بالتنبيه في وسائل الأعلام أن الأفاكين يعتقدون أنه يفعل هذا لعداوته للإسلام .. إنما هو يشرع ذلك لرغبته في زيادة أوقات عمل المسلمين و بالتالي سرعة بناء النهضة الكبرى ..
بعد أيام استقرت الأمور .. وأعلن الخليفة إحترام حكم الأغلبية .. أعلن حزب (المستمسكين بالكتاب) المعارض أنه سيستمر في محاولة الغاء التشريعات المخالفة عبر البرلمان حتى لو نزل ألف انتخابات .. لكنه لن يرتد عن الديمقراطية واحترام الصندوق أبداً ..
هكذا زاد الانتعاش الاقتصادي من مساعدات الدول الأجنبية لـ (مسيلمة) .. وأصبح أقوى رئيس وزراء .. حزبه الديمقراطي زادت شعبيته كثيراً ..
في الانتخابات التالية أصبح حزب الأغلبية الساحقة .. وهتف الملايين لـ (مسيلمة) بطول العمر ..

***

ضربة ساحقة .. قوية مركزة .. نسفت مجموعة من جند حدود دولة الجزيرة ..
هاجت القيادات العسكرية ، الخيانه أتت من دولة الفرس، لابد من تأديبها يا خليفتنا ..
استدعى الخليفة رئيس الوزراء .. رفض (مسيلمة) هذا التهور وطالب بضبط النفس .. ثار العسكر عليه فاحتكم الى الخليفة طالباً إعطاؤه الفرصة للحل السياسي في إطار التعايش الديمقراطي بين الدول .. فكر الخليفة قليلاً ثم أعلن القرار النهائي :
- سنجري استفتاء داخلي سري في البرلمان .. نعم لرد العدوان وتأديب الأعداء أم لا ..

طقطق (مسيلمة) بلسانه معترضاً .. كان قلقاً بسبب ضرورة حصوله على أكثر من ٩٠ % لهذا الاستفتاء كي ينتصر .. هكذا أخبره أن المعارضين لا يرونه اعتداء أصلاً إنما هو خطأ يمكن معالجته .. فليكن الاستفتاء في البرلمان على هذا المسمى على الآتي : نعم للتعايش السلمي مع الدول المجاورة أم لا ..
أقره الخليفة على ما يرغب .. المعاني متشابهة و لا يرى فارقاً جدياً بينها ..

***

قبل الاستفتاء نشطت الأحزاب المعارضة للحرب كلها .. انتشر شباب (حركة الحرية والسلام) في الشوارع يحذرن النساء .. احذرن يا نساء .. سيأخذون أزواجكن وأولادكن لحروب وهمية وتجارب مرعبة مهلكة .. التعايش السلمي هو الحل وهو الاسلام .. اضغطوا على نوابكم فهناك استفتاء سري سيوردكم المهالك ..
خرج الملايين ليحذروا نوابهم من مغبة التصويت في الاستفتاء المفضوح بغير التعايش .. من مغبة إختيار طريق الهلاك و المغامرة ..
هكذا كان استفتاء البرلمان نتيجته ساحقة خرجت النتيجة الساحقة .. ٩٥ % يؤيدون التعايش السلمي .. انهزم العسكر ورضوا بالأمر الواقع ، حاولوا حل مشاكلهم مع أعداءهم بالطرق السلمية والمعاملات الدولية .. انهارت هيبة الدولة في كل موطن لكن الشعب ظل سعيداً والخليفة ازداد حبوراً بتجربته الديمقراطية الفريدة التي يستفتي الشعب فيها في كل شئ ..
بعد شهور قليلة حدث التصالح على أن يجرى العسكر أول صفقة سلاح أجنبية بالشراء من بلاد الفرس كي تتوثق الصلات بينهما ويتوقف الفرس عن الاعتداء !

***

باستحياء و خفاء .. ثم بفجر و استعلاء .. ظهرت إلى العلن صراحة صحيفة (الغلمان والشيوخ) .. برئاسة تحرير الأديب الشهير (أبو نواس) ..
طالبت الصحيفة بنشر الحرية على أوسع نطاق .. التخفف من قيود الماضي الجنسية والانطلاق الليبرالي الذي تحميه الديمقراطية المتقبلة لكافة الآراء وتنوعها ..
ثار النقاش المجتمعي .. بدأت تظهر قصائد غزل بين رجال ورجال .. هرع (حزب المستمسكين) لتنظيم تظاهرات معترضة .. تبنى الخليفة رأيهم وقرر إغلاق الجريدة .. رفع (أبونواس) وأنصاره القضايا أمام المحكمة الديمقراطية الدستورية العليا .. لابد من الحرية الصحفية والديمقراطية .. لا ردة عن الديمقراطية ..
صدر الحكم بإيقاف تنفيذ قرار الخليفة .. وتعويض صحيفة (الغلمان والشيوخ) عن الأضرار التي حدثت جراء الايقاف .. جاء في حيثيات الحكم أن الخليفة ملتزم بحرية الرأي .. حرية الفكر والفكر الآخر .. حرية الصحافة أمر مقدس فوق كل اعتبار .. و هو من مكتسبات الديمقراطية التي لا ردة عنها ولا انتكاس .. الديمقراطية فوق الخلفة وفوق الجميع .. الديمقراطية تعني حرية الإعلام ..
خرج آلاف الشواذ الى الشوارع فرحاً .. نظموا مسيرات سلمية مقابل مسيرات الرأي المطالب بوقفهم .. قامت الدولة بحماية كل المسيرات وأعلنت الحياد الديمقراطي بين كافة الآراء ..
مع نهاية الأسبوع قررت (بنت النعمان) انشاء جريدة خاصة للشاذات فقط .. وأعلنت عن ميزانية كبرى لتصوير أول فيلم يعرض قضايا الشواذ ومشاكلهم النفسية في اطار حرية التعبير المكفول بقوة القانون الديمقراطي !

***

هكذا ضج العالم بالشكوى .. الوثنيون قبل النصارى أعلنوا ضرورة إيقاف مستنقع الروائح النتنة و الشذوذ هذا .. لابد من ضربة تنهي الأمر ..
سراً حدث تجهيز لحملة عالمية كبرى ، بإتحاد بين فارس والفاتيكان ودعم هندوستان .. انقسم شعب الخليفة بين مؤيد ومعارض للتدخل الاجنبي ! كان هناك رأي قومي يرى ضرورة رد العدوان و سحق المعتدين و كان

هناك رأي ليبرالي يرى أن الإنسانية تسع الجميع و يمكن دخول دولة الخلافة في طوع المعتدين تقليلاً للدمار ..
إحتار الشعب بين الآراء التي انهالت عليهم ليل نهار في الإعلام ..
استقر الرأي على معرفة رأي العسكريين .. هذا جيل جديد تربى في أكناف السلاح الفارسي .. هدل قائد الجيش كتفيه وقلب يديه قائلاً في حسرة : ماذا بيدي لأفعله .. جيشي لم يحارب أبداً و سلاحي كله فارسي مصمم بحيث لا ينطلق ضد فارسي آخر .. فلنستسلم لحفظ الدماء !
أقرت الأغلبية هذا الرأي و انتصر الفكر الإنساني الليبرالي على الفكر القومي .. طلبوا ضمانات غربية أن يقوم الغزاة باحترام الشعب وحفظ دماءه .. قام الغرب بتقديم التعهدات فوراً غير مصدق لما يحدث ، واجتاحت جيوشه الدولة سريعاً..

***

أمام قصر الحكم وقف الخليفة يسلم دستور بلاده الديمقراطي للفاتح الفاتيكاني و معه الحاكم المدني الفارسي ..
نظر الفاتح إلى دستوره ساخراً ثم أطار رأسه بلا تفاهم !
- ما أسقطك إلا هذا .. فهل تظننا نعمل به حقيقة ؟
ما كنت إلا قرد غبي .. مقلد بلا دراية ..

***

وسط الدمار و الهلاك الذي عم من الجند الغزاة الذين لم يروا فائدة من حفظ المواثيق و العهود مع هذه الأمة الخانعة ، فتحت السجون و خرج منها آلاف المعتقلين منذ سنوات طويلة .. إرتعدت أحزاب البرلمان المنحل من خروج هؤلاء أكثر من الغزو الأجنبي و تجمع الأنصار و المؤيدون في مقرات أحزابهم الكبرى .. وكلوا وفداً من حزب المستمسكين للذهاب إلى (أحمد بن عبد الله) قائد الخارجين الجديد الذي كان قد جمع المساجين و صنع بهم كياناً مقاوماً و أعلن ضرورة تنظيف الأمة من المخربين أنصار خلافة ديمقراط .. ذهب علماء و كبراء حزب المستمسكين طوال اللحى إليه ماسكين المصاحف يطلبون منه الأمان لهؤلاء ..
نظر إليهم في غيظ .. شد أحد المصاحف من يد أحدهم و قال :
- امتلكتم الحق في أيديكم .. فكيف رضيتم بمجاورة الباطل بل الرضى به حاكماً ؟
- رغبنا في تجنيب الأمة ويلات الصراع و الهلاك ..
- و ها قد هلكت و جعلتم الناس يخسرون دينهم و دنياكم .. أنتم أئمة الضلال حقاً !
أصاب الوفد الذعر الشديد و قال رئيس الحزب محاولاً التهدئة :
-لنا اجتهادنا في هذا ..
-تطويع المسلمين للرضا بالطاغوت و الكفر و العيش في أكنافه ؟ سخافة و ليس إجتهاد .. بئس ما صنعتم أئمة الضلال ..
و شهر سيفه فجأة قائلاً :
- أنتم من فصلتم الدين عن السياسة عمداً و عن علم و قصد .. ألا تباً لكم و لواسطتكم و موسّطيكم ..
بكم أبدأ يا ظالمي أنفسكم !

استفاقة

بلا قلب مريضة ؟!
أنا بلا قلب ؟!
أنا مريضة ؟!
ياله من مجتمع منافق .. يعيش في عالم منافق .. يتهم أي صريح فيه بأبشع التهم !
***
لقد مات (محمود) ..
طبعاً هذا أمر متوقع .. الحالة كانت في المرحلة الأخيرة من السرطان عندما قمت باستلامها .. ماذا أفعل له ؟
هكذا قمت بالاجراءات الروتينية ، كان اهله ينتظرونه في الخارج .. خرجت لأبلغهم برغم صعوبة هذه الجزئية بالذات .. الحقيقة أنني كنت مشغولة جداً في التفكير بلقائي مع خطيبي اليوم في منزلنا .. علاقتي متوترة به الفترة الأخيرة ولا أفهم السبب ..
هكذا في وسط تفكيري هذا لم أنتبه الى اني أبلغت الأهل بموت طفلهم بطريقة روتينية آلية ..
أفعلها دائماً ببرود شديد ودائماً ما يدهشني رد الفعل الهستيري ! ماذا كنتم تتوقعون ؟ الفتى جاء في آخر مراحل مرض أكيد كلكم كنتم عالمين بنهايته .. فلماذا هذه الهستيريا ؟ لماذا ينقض البعض علينا معشر الأطباء وبعضهم يشتبك فعلاً في عراك ! كأنني أنا من قتلته ؟
حسناً .. يبدو أن هذه الأسرة من هذا النوع ! الأب يصرخ في جنون مطالباً برؤية ابنه والأم تلطم وجهها في هستيريا .. الأخ الأكبر للطفل (محمود) وهو أكثرهم تعقلاً لهذا فقط تدور عينيه الدامعتين في محجريه بجنون ! المشهد المعتاد ! رن جرس هاتفي فأخرجته وأنا أستدير راحلة .. انه (رامي) خطيبي .. ابتعدت عن مشهد الصراخ وقد فتحت الهاتف مبتسمة .. أهلاً رامي .. كيف حالك .. صراخ من بعيد ؟ نعم يا رامي .. طفل توفي منذ دقيقة .. المعتاد !
هنا فوجئت بيد تربت على كتفي .. استدرت مندهشة مستعدة للانفجار لأن اليد كانت ذكورية .. كيف لذكر أن ينتهك الهالة المقدسة حول جسدي ؟
كان الأخ الأكبر للطفل (محمود) .. وجدته يقول لي بطريقة رهيبة :
- أنت مريضة ! أقسم بالله أنك مريضة ! أسأل الله أن تري هذا الموقف في أولادك !
هرع الزملاء يبعدونه عني ويهدؤون من روعه بينما ظل يصرخ معلناً أني مجرد شخصية مريضة !
مجنون ! السفالات والوقاحات المعتادة ! انني أرى كل يوم أشخاص كثر يموتون منذ تم تعييني في هذا المستشفى .. فلماذا يظن الأحمق أن أخيه بهذا التميز ؟ كلها (حالات) وكلها (تموت) ولا ذنب لي في هذا ! غالباً يدعي أني مريضة لأني لم أخرج عليه لاطمة وجهي باكية ! لو فعلت ذلك يا حمقى ما استطعت البقاء لساعة واحدة في هذه المهنة ! لابد أن نتعامل معكم تعامل مادي صارم .. أنتم مجرد (حالات) .. أسم وجسد مريض يشارف على مفارقتي .. أي تجاوز أو خرق لهذه القاعدة يهدد حياتي كلها بالدمار !
كان (رامي) يستفسر على الهاتف عما حدث .. أخبرته بألا يقلق .. وكأني أشجعه ابتسمت له في الهاتف - وهو يرى ابتسامتي في صوتي - لأؤكد على انتظاري له اليوم بشوق ..
أغلقت الهاتف واستدرت .. أمامي متابعة حالة اخرى ثم أرحل .. غالباً هي الأخرى ستموت وسأتحمل بعض سخافات أهل هذا الطفل الآخر !
ماذا دهى هؤلاء الناس ؟

***

زميلاتي يلومونني !
كنت أستشيط غضباً منهن كل مرة .. ولم أسع لمصادقة أي حرباء منهن لهذا السبب بالذات !
هن يلومونني على أسلوبي العملي البارد في اخبار أهل المتوفي بالحالة .. كنت أعرف منهن من لن تبالي حتى لو احترق المستشفى بمن فيه من الاطفال .. لكنهن مع ذلك يتصنعن الأسى وقت اخبار الأهل بوفاة أقاربهم !
يعتبرهم الأهل : ملائكة .. بينما أراهن أنا مجرد شياطين ! انهن منافقات .. أقسم ألف مرة أنه بينما تتحدث أحداهن بصورة متعاطفة تكون في قمة السعادة لأن خطيبها أرسل لها رسالة رومانسية !
ما ذنبي ان كنت لا أعرف النفاق مثلكن ؟ ما ذنبي ان كنت لا أقدر على تصنع المشاعر ؟
نحن بارادات العواطف مع المرضى .. هذه هي الحقيقة يا منافقات .. هناك قلة منا عواطفها مشتعلة ولكنها غالباً مع الأيام تتعود على البرود الداخلي .. وان لم تفعل عاشت معذبة بروح محترقة وغالباً ستفشل في مهنتها ..
لابد من التجرد .. هكذا نفعل .. لكن مشكلتي أني صريحة في هذا التجرد .. بينما هن يجدن اللعب بوجهين !
هكذا أترك المستشفى متضايقة من حديثهن الأخير .. برغم أنه متكرر لكنه يثير شئ بداخلي يجعلني مستعدة لتمزيق وجه احداهن الآن !
لابد أن أهدأ تماماً .. لدي موعد ..

***

في المنزل كان لقاءي مع خطيبي .. (رامي) هو طبيب أمراض باطنة ، وهو ما يعني أنه اختار فرع (المحيط اللانهائي الاحتمالات) في طب ! لكنه يملك عيادة مستقرة أنشاها له والده ولديه شقة يقوم والده بتجهيزها حالياً ..
ماذا ؟ تتزوجين رجل يقوم والده بكل شئ ؟
أمر مضحك ! الشقة ثمنها يقارب الربع مليون جنيه والعيادة ايجارها الشهري يكاد رامي بصعوبة يتحمله من دخل العيادة .. فمتى سيكون بمقدوره أن يدخر مبلغ الربع مليون جنيه هذا ؟ انه مثل أي شاب حالياً ، ان لم يستطع ايجاد مصدر مساعد من أهله خاصة في موضوع الشقة فلن يكون بمقدوره الزواج قبل منتصف الثلاثينات من عمره ! لا تحدثني عن شقة ايجار من فضلك فأهلي وأهل أغلب البنات يعتبرون هذا الأمر (استهزاء ببناتنا و بمستقبلهن) كما أنه يحمل (عدم تقدير واضح لأهل العروس) ! كأن مستقبل كل فتاة مع زوجها يضمنه أن تكون الشقة باسمه !
هكذا طبعاً يوافق أهلي وأهل غيري (بل يرحبون وأحياناً يطلبون) على المساعدات الهائلة التي يقدمها أهل خطيبي .. في حين منذ ثلاثة عقود فقط ربما كان يُنظر لهذا الأمر في أي أسرة على أنه (ضعف من العريس) فتناله السخرية لا محالة !
مجتمع منافق .. المعايير تختلف من زمن لآخر لكن النفاق ثابت .. هذه هي الحقيقة التي أؤمن بها ..
جلس (رامي) معي بينما تركنا أبي وحدنا .. لقد كتب كتابه علي فعلاً فلا مشكلة هناك فهو من الناحية النظرية (زوجي) لكن من الناحية العملية هو بمثابة (نصف مُحرم علي) !
(رامي) شاب مرهف الحس ، وهذا يثير ضيقي أكثر وأكثر .. لكني فعلاً أحبه فهو يتفهمني وله صفات مضادة لي تماماً ! نعم .. أنا أعتبر الصفات المتضادة بين الزوجين من أكبر الميزات للزواج ان استطاع كل منهما التعامل بحنكة وتلافي مواطن النزاع الكبرى ..
وجد في صوتي بعض الضيق فسألني عن السبب .. اندفعت أحكي له الموقف الذي حدث اليوم وحديث زميلاتي وطلبت منه الرأي ..

ظل ينظر لي في صمت ودون تعليق .. ثم أشاح بوجهه ليأخذ نفساً عميقاً قبل أن يعود بوجهه الي قائلاً في جدية :
ـ الحقيقة أنني كنت أريد مناقشتك منذ زمن في هذا الأمر .. لابد أن تقومي بمراعاة مشاعر الناس .. الموت مصيبة .. عندما يقول ربنا عنه أنه (مصيبة) فهذا دليل على فداحة الأمر .. لابد أن تضعي نفسك مكان أهل المريض ..
تباً ! نفس الكلام تقريباً لكن بصورة مخففة ! ان أحد أهم أسباب ارتباطنا بأطباء من نفس مهنتنا هي أن لا نتلقى مثل هذه الاقتراحات الرومانسية السخيفة والمهلكة في نفس الوقت !
ـ لو وضعت نفسي مكان أهل كل مريض لقضيت حياتي في فجع مستمر ! هل لابد أن أذكرك كطبيب بهذه القاعدة الذهبية ؟ ثم ان تكرار رؤية الموت لعشرات الساعات أسبوعياً يجعل الأمر مجرد (فعل آخر) من أفعال الحياة ..
أنت تطالبني بشئ مستحيل تقريباً يا (رامي) .. أنا أعمل في عنابر الأورام وهذا مختلف عن عملك ..
ـ أرجوا أن لا تسيئي فهمي يا حبيبتي .. لكن أنتن تنسين أنكن فتيات !
ـ فتاة بدأت في رؤية الجثث والتعامل معها في مطلع العشرين من عمرها ! هذه هي حقيقة الفتاة الطبيبة ! لابد أن تفهم أن هناك جزء كبير من أرواحنا يتجمد تماماً رغماً عنا ..
ثم لماذا تلومني ؟ اذهب و ألق لومك يا رامي على المجتمع الذي يصر على جعل فتاة صغيرة السن تتعامل مع الجثث ! أي أحمق هذا الذي يتصور أن حياتنا ستصبح كفتاة أخرى قضت حياتها تدرس التاريخ أو الأدب أو العلوم النظرية محتفظة بأنوثتها ومحتفظة بقدرتها على الصراخ والاغماء ان رأت قطرتين من الدم ؟!
ـ وما الحل ؟ لابد من نهاية لهذا الأمر ! لابد من أن تفيقي و أن لا تجرحي الناس .. تعلمي أن تقدري حجم مأساتهم .. أرجوك افعلي فمخاطر اعتداء أحدهم عليك تتزايد بلا توقف ..
هكذا أقضي ليلتي أفكر في كلامه .. في رأيي هو يريدني منافقة مثل تلك الفتيات الأخريات .. يريد مني أن أرتدي قناع أبلغ به المرضى وأهلهم ! والدي طبيب وكان يثير غضبه ما يسمعه مني وهو يؤكد أنني (غشيمة) وسأتسبب في كارثة لنفسي بهذا البرود الظاهر ..
ما الحل ؟

***

هل هي روحي ؟
هل هناك مشكلة فيها ؟
ها أنا أجلس أمام (عاصم) الفتى ذو العشر سنوات .. انها أيامه الأخيرة بالتأكيد ولربما كان اليوم بالذات هو النهاية ..
كيف يمكن لطبيب العناية المركزة أن يمتلك مشاعر مرهفة ؟ مستحيل ! سيموت كمداً ! ما بالك ان كانت فتاة ! ان (عاصم) هو شئ .. جسد مادي سيتلف وينتهي .. لابد أن أتعامل معه هكذا ولا أزيد ..
فتح (عاصم) في هذه اللحظة عينيه .. نظر لي بينما تلاعبت على فمه ابتسامة ! لم أفهم ! سمعت صوت جليد يتهشم ..
ظل مبتسماً لثوان .. مد يده و لمس كفي برقة شديدة قائلاً : ماما !
ثم أغمض عينيه مرة أخرى مكملاً الغيبوبة !
هذا أمر غريب .. هذه الابتسامة الحية .. هذه الابتسامة القادمة من جسد مادي تلف تماماً ..ثم : ماما ! ما معنى هذا !

هناك هزة تلو الهزة حدثت بداخلي منذ تلك اللمسة .. لقد كنت أحب اسم (عاصم) .. هو اسم أبي وقد وعدته بأن اسمي ابني القادم بنفس الاسم .. فجأة شعرت بهلع .. هناك قنبلة من الذعر انفجرت بداخلي .. ماذا لو كان هذا ابني فعلاً ؟ ماذا لو كنت أنا أُمه فعلاً ؟

ان أحد امنيات حياتي هي طفل كهذا .. ان الزواج بالنسبة لنا معشر الفتيات لا يتعلق بحاجاتنا البيولوجية فقط قدر ما يتعلق بحاجات أخرى تمس العاطفة والقلب .. الحمقى يعتقدون أن قلبي ميت بينما قلبي حي ينبض .. انه يكاد يمزق صدري الآن .. اننا فقط نقوم بتزويده بحاجز شفاف يمنع التأثر بالمرضى كي نقدر على النوم !

هذا الحاجز انكسر الآن ! بالتأكيد هذه الدماء التي تسيل من قلبي الآن سببها شظايا هذا الحاجز ..

هكذا أشعر بلمسة (عاصم) وهو رضيع يفيق من نومه ليتأكد من نومي بجواره فيبتسم مطمئناً ويكمل نومه ..

هكذا أشاهد هذه الابتسامة عند رؤيتي عائدة من العمل لرعايته وأخذه من جدته .. هكذا أشاهدها وهو ذاهب الى المدرسة وقد تعود عليها وعلى أصدقاؤه الجدد .. أول مرة يلعب فيها الكرة مع والده .. ابتسم أنا وقد جهزت حياتي كلها للتزود من هذه الابتسامات المستمرة ..

ثم فجأة يجئ المرض .. فجأة تختفي الابتسامة .. فجأة يهددني بالرحيل وهو لازال طفلاً .. ابني يستعد للرحيل الآن ؟ لماذا لا أذهب أنا ؟ لماذا يتلقى هذه الآلام الرهيبة بينما جسدي سليم ؟ والآن هو على بعد ساعات من الرحيل النهائي ولازال يبتسم ؟ هل تكون هذه آخر ابتسامة في حياته ؟ أي شئ في الكون قادر بعد هذا على اسعادي ؟ ابني المبتسم راحل الآن .. سيغادرني بروحه تاركاً جسده المادي في حوزة طبيبة لا تشعر به ! بل ستخبرني ببرود عن وفاة نصف الكون بالنسبة لي ! تخبرني بهدوء أن حياتي القادمة ستكون في جحيم مستمر !

غريب أن عشرات الحالات لم تفعل بي هذا ! ما الغريب في هذه الحالة بالذات ؟ لماذا يحدث الإنهيار في لحظة غير مفهومة ؟

نهضت واقفة دون كلام زائد ..

لابد من إستفاقة !

حفيدات نسيبة

استعد القائد (طيفور خان) للهجوم .. انه مع عشرات القادة الآخرين يجهزون أنفسهم لدك عاصمة الخلافة .. انه سيدك بغداد دكاً فوق رؤوس أهلها ..
نظر الى جيشه الضخم والفيلق الخاص به .. انه يعرف مقدرة هؤلاء الرهيبة لكن الأمر ليس بهذه السهولة .. ان شعوره الآن يشبه نفس شعور شاب من قبائل (الكيكويو) الأفريقية واقف على مشارف واشنطون يستعد لضمها لدولته !
اندفع الجيش الى داخل بغداد ، انهم في حالة نشوة وسعادة غامرة لا مثيل لها في تاريخ التتار كلهم ..ان هذا هو أكبر نصر حققه المغول في التاريخ !
دخلوا على النساء في خدورهن .. نساء هذا العصر كن استكن للوداعة والهدوء .. لا لوم عليهن فالخليفة نفسه كان غارقاً في ملذاته وشهواته .. راحوا يخرجون النساء من منازلهن ليغتصبوهن في قارعة الطريق .. راحوا يعبثون بالرجال وكل صاحب شهوة وجد بغيته .. هذا رجل واقف يمسكه بعضهم ليشاهد امرأته بلا حول ولا قوة تغتصب امامه فهي لم تتعلم يوماً أي وسيلة من وسائل الدفاع عن النفس !
الحيلة معروفة .. اقتل او كبل الرجل وحينئذ تصبح النساء كأكياس الوسائد في أيديكم .. افعلوا بهن ما شئتم واقتلوهن فلن تفعل أكثر من الصراخ !
لكن هذه لم تكن الحادثة الوحيدة ..
هذا التتري الذي يغتصب هذه المسلمة الواقفة بلا حول ولا قوة لم يكن الأول ولن يكون الأخير ..
ان الصليبي الذي عاث في الشام فساداً فعل ما هو أقبح منه .. لقد نفذ حرفياً أغلب ما جاء في سفر (يوشع) في كتابه المقدس ..
ما موقف النساء من مغتصبيهم ؟
كالأفراخ بين الذئاب طبعاً .. لا حول ولا قوة ..
هل وقفت على التتري والصليبي وافاق المسلمون ؟
لا ..
سيجئ الاسباني ثم الفرنسي .. سيرحل الفرنسي ويأتي الانجليزي ..
حال النساء في هذه العصور هو هو .. دخول جيش معاد للاسلام الى أي مدينة اسلامية يتبعه ذبح كبير للرجال واغتصاب واسع للنساء !
لكن في العصر الحديث تغير الحال !

****

ان الليوتانت الكولونيل (توني يانج) يعرف جيداً أنه ليس محبوباً للغاية بين القيادات العليا في الجيش الأمريكي .. لكن كفائته كانت فوق كل اعتبار ..
انه ليس من الحمقى الذين يؤكدون أن أمريكا دولة بلا عنصرية .. بل هو يعرف هذه العنصرية جيدا وشاهدها عن قرب .. انه أب ذو أصول شمال صينية تترية وأم أمريكية ..
كيف حدث هذا الزواج ؟
يحكون عن أن الحب كان فوق كل اعتبار عنصري وهي زميلته في العمل و .. و ..
والحق أيضاً أن ولده كان شديد الوسامة ومن عائلة كبيرة ..

لكن لم يغفر له الكثيرون هذا الأصل المختلط .. ذموه به كثيراً في أقرب (عراك) أو (خلاف كبير) .. لكنه بالفعل أثبت للجميع أنه أمريكي صادق متعصب .. هو ذو ملامح تميل للأمريكية قليلاً أيضاً وهذا سهل الأمور أكثر .. زائد على هذا اعتناقه للمسيحية بعصبية وعنف .. انه يعتبر (القس المرشد) بالنسبة لجنوده .. لكنه صاحب نظرية معينة فيها وحشية مع المسلمين بالذات ..
الآن هو يقف فوق دبابة يراقب فيها أحد منافذ الدخول الى بغداد .. لقد جاءت الأوامر بمراقبة هذا الطريق كيلا يدخل أحد (العناصر المتطرفة) اليه ويتسلل الى بغداد .. وهو يكره المتطرفين أعداء أمريكا .. بل هو يكره المسلمين جميعاً بلا تمييز والحق يقال .. انه امريكي صليبي ذو تاريخ كونفوشيوسي ملحد وعلاقات صهيونية مع بعض الزملاء اليهود !
ماذا تتوقع اذن ؟!
بل لقد اختار بغداد بنفسه كي يخدم فيها لأنها تذكره بما فعله جدوده التتار وما ينوي فعله الآن مع التتار الجدد !
المهم .. انه مستمر في مراقبة هذا الطريق الآمن حتى الآن .. الاخبارية هامة جداً اقتضت مجيئه شخصياً .. لكن من الواضح أن الأمر لا يعدو اخبارية كاذبة أخرى .. فليرح نفسه قليلاً وليرح جنوده معه ..
شاهد سرب من الفتيات يسير نحوه .. حوالي عشر فتيات في سن المراهقة ووجوههم منورة من الجمال .. ذاهبات الى مدرستهن طبعاً ..
تحركت في داخله مشاعر كثيرة .. نظر الى جنوده المتوحشين فرأى نفس النظرات الجائعة ..
تلاعبت ابتسامة على ثغره .. ان جنوده منذ زمن وهم يحتاجون لبعض اللهو مع القطط ..
لابد أن تمر هذه الفتيات بنقطة التفتيش هذه .. أشار لجنوده من أجل الاستعداد لأسلوب معين نفذوه عدة مرات من قبل ..
تحركت الفتيات نحو جندي التفتيش .. كانت هناك جندية أمريكية للتفتيش بجواره لكنها مصابة بالشذوذ وهي ليست أفضل حالاً من الأمريكي المجاور لها .. بل ان تحرشها أكثر فجاجة !
بعد أن مرت الأربع فتيات الأولى هتف (توني) فجأة صارخاً .. اندفعت الطلقات في الهواء وركض جنديان وراء الست الباقيات .. اندفعن ركضاً هاربات الى منازلهن في رعب ، بينما احتبست الأربعة الأخريات مع جنوده .. تبادل الضحكات بينما اتسعت أعين الفتيات في هلع وقد فهمن ما سيحدث .. سمعن كثيراً عن هذا لكنهن لم يكن يصدقن أن يحدث هذا معهن ! كل مسلم حالياً لا يشعر بالخطر من آلام اخوانه .. بل لابد أن يقع فيه هو نفسه !
اقتربت منهن الجندية الأولى وثلاثة جنود أمريكان آخرين .. راحوا يرددوا لهن : هيا نبدأ الحفل يا جميلات ..
اخذوهن قسراً في احدى المدرعات والفتيات كالأفراخ .. لقد علمنا الغرب كيف نعطي الفتاه حريتها في كل شئ متعلق باظهار المفاتن .. بينما ترك تعليمهن سياسة الدفاع عن النفس والعرض الى المزاج الشخصي للحكام العلمانيين !
لم يتهاون في حربة من أجل اعطاء الحق لكل مسلمة في التعري بينما لم يكترث كثيراً في اعطاءها الحق في القتال دفاعاً عن نفسها !
بالطبع تمت الحفلة على خير .. مسلمات هذا العصر لم يشفع لهن تعليم ولا غيره .. لازلن أفراخ لكل محتل مغتصب ! علموهن ألف شئ لا فائدة منه ولم يعلموهن أهم شئ لأمة مهددة بالاحتلال العسكري في كل لحظة ! في النهاية قتلوهن طبعاً .. سيقذفوهن في الصحراء بلا مبالة .. ومن سيأتي للسؤال سيتم اعتقاله وربما قتلة بتهمة التطرف !
لقد قاومن كثيراً أثناء الاغتصاب .. لكنها مقاومة مضحكة شبية بمقاومة عصفور بين يديك !
ومازالت مسلماتنا بلا سلاح .. ولا تعلم كيفية الدفاع عن أعراضهن !
مازال الحال على ما هو منذ عهد التتار : اقتل الرجل أو كبله تصبح نساء المسلمين فرخاً بين يديك !

***

اندفع المسلمون يركضون هاربين .. لقد انتكست المعركة فجأة .. ان (أحد) تحولت الى هزيمة بسبب التعجل .. وقف الرسول وحده ممسكاً بسيفه .. لن يتراجع ولو لقى ربه .. رفع سيفه والمشركين يحيطون به من كل الجهات .. لم يثبت معه سوى عشرة فقط يدافعون عنه الى النهاية ..

أثناء قتاله نظر بسرعة الى من حوله .. وجد امرأة وحيدة في وسط من يدافع عنه !

انها مشغولة بالقتال فلم تنتبه .. راحت تتفادى ضربة من سيف هذا .. تغمد سيفها في بطن هذا .. يحاول هذا الالتفاف حولها لكنها تعاجلة بضربة مميتة !

انها ليست عميدة الأدب العربي وليست بأميرة الشعراء وليست اكبر العالمات المسلمات .. انها مسلمة وكفى .. مسلمة في زمن كان النسوة فيه لا ينشغلن بالبحث عن عريس يستطيع احضار شبكة (تغيظ صاحباتها) قدر انشغالهن بالجهاد مع ازواجهن .. عملهن بين المنزل وساحات الوغي !

انها نسيبة بنت كعب ..

دعوها تستمر في الدفاع عن رسول الله .. وتوجه الطعنات لكل من يجروء على الاقتراب منه ..

ولنذهب الى هذا الحصن الكبير ..

انها غزوة الأحزاب هذه المرة .. الرسول عليه الصلاة والسلام وضع النساء والاطفال في حصن كي يحميهن من المشركين ان حدثت الهزيمة ..

هناك اشارات أن اليهود سيغدرون بالرسول .. هناك الاحساس وهناك طبع اليهود الخسيس وهناك العلامات المنذرة ..

غدر اليهود كارثة .. فهم في الخطوط الخلفية للرسول وأي غدر من جانبهم يعني بلاء كبير على المسلمين ووقوعهم في حصار قاتل !

مع النساء شيخ كبير هو (حسان بن ثابت) .. شاهدت (صفية بنت عبد المطلب) مجموعة من اليهود يتلصصون على الحصن من أسفل ..

ان الغدر قادم ..

انهم يستطلعون الأمر وستجئ الضربة بعد قليل ..

ذهبت الى (حسان) وطلبت منه ان يفعل شيئاً .. نظر لها الشيخ الكبير وقال لها : ماذا أفعل يا بنتي ..أنا شيخ كبير لا أقوى على القتال .

لم تهدأ .. قررت أن تتصرف بقوة وشجاعة .. أخذت سيفها ونزلت .. وقفت وراء أحد جدران الحصن حتى وجدت احد هؤلاء المستطلعين امامها ..

كاد ينظر للمرأة ساخراً لكنها اطارت رقبته بلا نقاش !

صعدت برأسه الى فوق الحصن وقذفته على أصدقاؤه .. أصابهم الهلع الشديد واندفعوا هاربين وهم يصرخون : الحصن فيه رجال .. الحصن فيه رجال .

وقد كان .. لقد كان فيه بالفعل رجال .. لكن لا يلزم أن يكونوا ذكوراً فقط !

***

وقف الداعية المسلم يحاول شرح أطروحته للجمع الجالس أمامه .. يعلم صعوبة مهمته في إقناع حتى أهل الثغور و الجهاد :

ـ أن تتعلم المرأة فنون القتال والدفاع عن النفس لا يعني أبداً انضمامها للجيش .. لو أصبحت كل نساؤنا مثل نسيبة وصفية لما جروء محتل مجرم على أن يسير في شارع دولة اسلامية أو يرفع عينه لينظر الى واحدة

منهن .. ان ذهاب الرجال المسلمين للجيش وترك النسوة وراؤهم بلا حول ولا قوة كالأفراخ يعني ان الهزيمة لن تتوقف على قتل الرجال ، بل ستزيد بفضح النساء ..
لو كنا نحصن خطوطنا الخلفية بنساء يتعلمن القتال منذ نعومة أظافرهن كما يتعلمن كل شئ آخر .. لما استطاع معتد أن ينظر للأمر تلك النظرة السهلة : اذا هزمنا الرجال المتجمعين في الجيش فنساؤهم حرث لنا !
لكن لا .. فليتعلمن كل شئ .. الا الدفاع عن أنفسهن والقتال !
غمغم أحدهم ساخراً :
ـ قتال و جهاد ؟ وهل يتعلمه رجال زماننا أصلاً ؟!

***

الهزيمة قادمة .. الهزيمة قادمة ..
انه (يوم حنين) المذكور في القرآن ..
أغلب الجيش العرمرم تراجع تاركاً الرسول وحده مرة أخرى !
لم يثبت معه سوى ما يقارب المائة أمام عشرون ألفاً !
من هؤلاء أمرأتان فقط .. ام حكيم ونسيبة بنت كعب .. مرة أخرى نسيبة !
قبضت نسيبة على سيفها وهي تقول للرسول في ضيق وغضب هادر :
ـ دعني أقتل أصحابك الفارين يا رسول الله .
رفض الرسول هذا الاقتراح والتفت الى أم حكيم .. وجد معها خنجراً كبيراً فسألها عنه .. قالت له في هدوء وصمود :
ـ هذا لأبقر به بطن أي مشرك يعتدي علي !
وانطلقوا جميعاً بعد هذا كالأعصار وسط المشركين ..

تنظيم الرؤيا

لم يعد يطيق .. كل هذه الأيام وسط التعذيب والضرب والإهانة جعلته مستعد لأي إعتراف ، سيعترف بأنه هو من أرشد عن المسيح ، سيعترف بأنه هو أسامة بن لادن .. سيعترف بأي شئ مقابل إيقاف هذا الألم الذي لا ينتهي .. أوقفوا هذا الألم بأي ثمن ..
- نعم ولكنك يا عزيزي لازلت تحمل الكثير من الأسرار !
هكذا يقول ضابط أمن الدولة ، يرفع عينيه بصعوبة و إعياء ليشاهد نظرته الباردة اللامبالية ، إن اللعين يهزأ به بالتأكيد ، لكن وجهه الصارم البارد الجاد يعني أنه يتوقع منه المزيد فعلاً !
- أقسم لك أنه ليس لدي أكثر مما قلت .. أقسم بالله أني قد حكيت لكم حتى عن ظروف زواجي و قسوة والدي وتفاصيل طفولتي .. ماذا ترغبون أكثر من هذا بالله عليكم ؟
بنفس البرود قال له مُحقق آخر :
- لكن هناك المزيد بالتأكيد .. التحقيقات الى الآن لم تعطنا قضية جيدة ! لا مزيد من التعاون معنا بكشف أسرار التنظيم الذي تنتمي اليه معناه لا مزيد من الرحمة !
- أي رحمة ؟! أقسم بالله أني قد قلت كل شئ .. أقسم بالله أنني لست منضم لأي تنظيم ..
- تذكر جيداً يا رجل ولا تجعلنا نقوم بالمزيد من عمليات الإفاقة! لابد أنك جربت الكثير وتظن أن هذا هو آخر ما عندنا ! لكن أقسم لك أننا نملك المزيد والمزيد من الحيل !
- يا أفندم أقسم لك .. أقسم لك .. لا أعرف المزيد .. أتريدون أن أحكي لكم عن أحلامي حتى تستريحوا ؟!
بدا الإهتمام على وجه أحدهم ، قال له في جدية :
- نعم .. أخبرنا عن أحلامك .. حتى هذه لدينا خبراء لها !
خبراء ؟! خبراء خبراء المهم أن ينتهي التعذيب !
قرر أن يحكي لهم عن أحد أحلامه !
- ذات مرة حلمت برؤية أني مع الأخ (عبد الجواد ابراهيم) راكبين دراجة بخارية.. ذهبنا الى عقيقة و أكلنا هناك ..
- فقط ؟
- نعم والله لا أكثر !
- حاول تذكر وجوه من كانوا في العقيقة !
- أقسم بالله يا سيدي كان هذا مجرد حلم ورؤية !
- حاول ولا تتعبنا معك ..
- حسناً .. كان هناك (محمود سالم) و الأخ (وجدان محمود) و الأخ ... ...

***

وقف الحراس يضربون القادمين على أقفيتهم ، يسبونهم ويقومون بإهانتهم بكل الوسائل ، راح الرجال يحاولون حماية أنفسهم بلا جدوى ، إنهم لا يعرفون ما سبب مجيئهم الى هنا أساساً !
لماذا يضربونهم ؟!
دخل الرجال الخمسة الى الزنزانة الموحشة وجلسوا في ذهول ! منذ ساعات قليلة كانوا في منازلهم منهم من كان يمزح مع زوجته وأولاده يتناقشون جميعاً عن رحلة الأسبوع القادم للأسكندرية ، ومنهم من كان يستعد

لإمتحان السنة النهائية في الجامعة لا يشغله سوى ثقل دم دكتور المادة وإمكانية وضع إمتحان يدمر التقدير الذي يتمناه ، ومنهم من كان مشغولاً بصحة والدته المتدهورة مؤخراً ..
فجأة امتلأت شوارعهم بالظباط والشرطة .. فجأة انتقلوا الى هذه الزنازين الموحشة بعد وصلة من الضرب غير المفهوم !
- أين نحن يا جماعة ؟
- نحن في أمن الدولة .. جئت هنا ذات مرة لإنهاء أمور متعلقة بالعمل .
- لكن .. لماذا أتيت أنا ؟! والله ليس لي أي نشاط سياسي إطلاقاً ! عندي إمتحان بالغد و يمكن أن تضيع مني سنة كاملة !
- و أنا أيضاً لم أنتم يوماً لتنظيم .. انني مثلك يا فتى ..
- وأنا أيضاً ..
- وأنا كذلك ..
- أي تنظيم ؟ ما معنى تنظيم أصلاً ؟!
دخل الحارس بعد قليل ينادي بصوت جهير صارم :
- محمود سالم ييجي ..
قام الطالب الجامعي (محمود سالم) وذهب مع الحارس تاركاً وراءه (وجدان محمود) و (عبد الجواد إبراهيم) ..
كانت فرائصه ترتعش بينما جوانحه لا تفكر بكل طاقتها الا في مصير إمتحان الغد !
دخل في غرفة مظلمة قليلاً جلس فيها محقق قابله بإبتسامة مخيفة قائلاً :
-أهلاً بالمسئول التنظيمي عن الجامعات !
- يا أفندم أي تنظيم ؟
- تنظيم الرؤيا يا فتى ! أنت عضو في تنظيم الرؤيا !
ليالي أهلك القادمة سوداء !

***

الألم لا ينتهي.. التعذيب لا ينتهي .. حتى الظابط الذي يقوم بالتعذيب أصيب بالإرهاق ..
أخيراً جلس الضابط على طاولة التحقيق أمام (وجدان محمود) المتورم النازف ، بخبرته يعرف أنه يتمنى الموت الآن فلا يجده ..
جاءت في عقله فكرة ، قال ساخراً للرجل المُهدم :
- تتمنى الموت ؟ حسناً .. ان فعلتها وذهبت .. ستجد نفسك تسير يوم القيامة فوق شئ اسمه الصراط .. أنظر لأسفل تجد جهنم .. إبحث جيداً في جهنم ستجد فرعون .. بلغه رسالة هامة مني ..
ثم ضرب بقبضته على صدره قائلاً في فخر :
- قُل له انك تركت وراءك رجال يا فرعون !

أطياف شيطانية

١

لازالت (هدى) تتذكر هذا المساء .. حينما قررت أسرتها الاحتفال بعيد ميلادها التاسع عشر ..
هي ابنة وحيدة لأب وأم متيمان بها .. لكن والدها مريض مما اضطرها للذهاب لاحضار كعكة الاحتفال بنفسها ..
عندما عادت وجدت أن المصعد توقف عن العمل فجأة .. هي تسكن في الطابق العاشر والأمر شديد الصعوبة ..
تنهدت في ملل ثم بدأت الصعود .. ونهضت بسرعة من فوق سرير غرفة نومها !
ماذا حدث ؟
انها تتذكر أنها كانت تصعد مساءً ومعها الكعكة .. الآن الصباح نوره يعم الغرفة وهي قد صحت للتو ! كيف حدثت هذه الفجوة ؟!
ركضت الى غرفة والديها مذعورة و قامت بهز أمها كي تستيقظ .. ما ان أفاقت أمها قليلاً حتى قالت لها في نعاس :
- صحوت مبكراً يا هدى ؟ هل أنت بخير الآن ؟
سألت أمها في دهشة وخوف :
- ماذا حدث يا أمي ؟ أين الكعكة وعيد الميلاد ؟
نهضت أمها في كسل ثم قالت بعد أن تثاءبت وأفاقت :
- انك لم تقومي بشراءها ! ألم تخبرينا أمس بأنك لم تجدي واحدة مناسبة وانك مريضة ثم دخلت نمت مباشرة بسبب الارهاق ! هل كنت مرهقة لدرجة ان تنسي كل هذا ؟
كان هناك ألف سؤال يدور في عقل (هدى) وكانت تشعر بذعر غريب .. لكنها لم تكن من النوع الثرثار أو الذي يسترسل في أي حديث وهذا دائماً كان يثير ضيق أمها وزميلاتها .. كتمت كل هذا في نفسها ونهضت من أمام أمها قائلة :
- أنا بخير يا أمي الآن والحمد لله .. سأذهب الى الكلية الآن ..

***

في الكلية كان مزاجها متعكراً بشدة .. هي لم تكون صداقات حتى الآن برغم مرور عدة أشهر على التحاقها بها ، لكنها أيضاً لم تكن تنتوي أن تفعل .. انها تكره الكلام الكثير بشدة ومنطوية بعنف .. مما جعل الاندماج بالفتيات شئ صعب وبالتأكيد هي متدينة محترمة لا تندمج بالشباب أبداً ..
مرت المحاضرات في بطء أكثر من المعتاد .. كلام فلسفي كثير ومحاضرات أدبية عقيمة ! لكنها برغم ذلك كانت تستمتع سابقاً بهذه الأشياء بل وكانت كلية (الآداب) خيارها الأول منذ الثانوية .. أما الآن فهي تشعر بضيق في صدرها .. الكلام ثقيل ممل .. دكتور المادة كأنه يكلمها من واد سحيق .. هناك شئ ما خطأ يحدث !
نهضت بعصبية وتحركت نحو الباب في سرعة دون استئذان فتوقف دكتور المادة عن الحديث لثوان ثم لما رأى لهفتها تجاهل الأمر بخبرته وراح يكمل حديثه ..
في الطريق الى منزلها الذي يبعد مسافة قصيرة عن كليتها .. كنت تشعر بأن هناك شئ ثقيل قد أزيح من فوق صدرها .. لكن ما ان ظهر المنزل امامها حتى انقبض قلبها في عنف !

هناك شئ ما ليس على ما يرام في هذا المنزل ! هناك شئ ما تغير فيه وفي شكله ! انها تتذكر أنه كان دائماً هكذا لكن هناك شئ يقيني بأن المنزل تغير ! استجمعت شجاعتها ودخلت لتركب المصعد الذي كان يعمل هذه المرة ..
لكن الانقباض ظل حاضراً !

***

في ذلك المساء لم تجلس مع أسرتها ، بل خرجت للشرفة في شرود تحاول تذكر ما حدث ..
ان شرفتها تطل مباشرة على مشهد أخضر ضخم للغاية لنادٍ اجتماعي بينما في الأفق تلوح عشرات المباني من بعيد ..
انها لا تستطيع التذكر فعلاً .. لقد كانت تصعد السلم ثم فجأة وجدت نفسها على السرير ! ماذا حدث ؟ كيف حدث ما حدث ؟
ان ذهنها خاو تماماً .. تلاعبت ابتسامة ساخرة سريعة على شفتيها عندما جال بخاطرها احتمال خطفها من قبل كائنات فضائية ! وراحت تتخيل هذا الكائن ذو الرأس البيضاوي الذي يقف منتظراً بداخل (عمارة) ليخطف الفتيات السكندريات ثم يعيدهن الى أسرهن كي ينمن في سلام !!
لكن برفض هذا الاحتمال التافه ماذا يتبقى ؟ هل تسأل طبيب ؟ ربما هي مصابة بورم في المخ ؟!
ما علاقة أورام المخ بهذا ؟ لا تعرف لكن الأورام السرطانية خطر يثير ارتياعها غالباً .. وهي لا تعرف ما هو ورم المخ لكنها تعتقد أنه قد يصيبها بمثل هذه الـ ..
ما هذا ؟
توقفت عن التفكير وهي تحملق في الأفق .. تراجعت للوراء قليلاً في خوف ..
كان هناك في الأفق شئ يقفز على أسطح المباني .. شئ أسود كئيب لكنه (ومن هذه المسافة البعيدة) كان يبدو ضخماً !
هل هو سارق ؟ وهل هناك سارق بهذه الضخامة وهذه الرشاقة والجرأة ليتقافز فوق المباني البعيدة بهذه الصورة ؟
انقبض قلبها بشدة لكنه بعد ثوان اختفى بعدما قفز فوق أحد العمارات البعيدة !
دخلت من شرفتها والذعر ينهشها .. والداها حاولا الاطمئنان عليها فأخبرتهم بأن كل شئ على ما يرام ثم دخلت الى غرفتها بسرعة !
لماذا لا تخبرهم بما يحدث ؟
ان شخصيتها من نوع كتوم للغاية .. هي لا تخبر أي شخص بأي شئ .. الكل (حتى والديها) يعتبرونها انسانة متبلدة المشاعر الى حد كبير لكن الحقيقة أن بداخلها شلال سينفجر يوماً .. هي متأكدة من انفجاره وستفعل مع أحدهم .. لقد قررت أن يكون زوجها هو من ينطلق فيه هذا الانفجار العاطفي .. لكنها لن تسمح بـ (تسريب) أي جزء منه حتى تلقى (فارس احلامها) !
لهذا هي قليلة الكلام .. وكانت قد جربت سابقاً أن تقوم بتنفيس القليل مما في داخلها لكنها تعلمت سريعاً ومبكراً قواعد مهمة عند البشر (نحن نحب الكلام ونبغض الاستماع .. نحن صدقاً لا نهتم بمشاكلك الداخلية ولا حتى الخارجية) فقررت أن تعود نفسها على الصمت والكتمان الى الوقت المناسب !
في غرفتها راحت تفكر فيما رأته الليلة .. استغرقها التفكير فنامت ..

***

عند الثالثة فجراً تقريباً أفاقت بدون سبب .. كان باب غرفتها مفتوحاً كالمعتاد ..
هنا شاهدته ..

كان هناك رجل يسير في بطء أمام الغرفة !
الشئ الرهيب .. الشئ المفزع .. انه مشتعل بالنار ! هو لا يبالي بل هادئ تماماً والنار تخرج من كل جسمه !
شعرت بمشاعر رهيبة .. لابد أن تصرخ .. لابد أن تفعل .. لكنها ترتعد هلعاً وقد ضاع صوتها .. راحت تحاول قراءة آية الكرسي لكنها فجأة لم تعد تذكرها بوضوح !
مرت ثانيتين كالدهر حتى عبر خارج مجال باب الغرفة .. حينها شعرت بلسانها يتحرر ..
وانطلقت صرختها تكاد تهدم المنزل !

٢

هناك شئ ما مريب !
هكذا كان الأستاذ العجوز (أحمد موافي) قد توصل الى هذا الاستنتاج بعد أسبوع كامل !
انه مدرس فيزياء متقاعد .. يعيش وحده بعدما توفيت زوجته وسافر ولديه الى الخارج .. اختار هذه الشقة الواسعة (ثلاث شقق مفتوحات على بعضهم) في الطابق الأخير بعمارة قريبة من مجمع الكليات ولها مشهد مريح للأعصاب جداً أمام ناد اجتماعي .. كانت تسليته الوحيدة هي الخروج الى الشرفة والجلوس فيها متأملاً لوقت طويل ..
بالتأكيد يشعر باحباطات كثيرة ومشاكل نفسية ضخمة لكنه يخفيها دائماً بذلك الوجه المتغضن المميز للمسنين ..
نادراً ما يعرف أي منا ما هي حقيقة مشاعر العجائز .. ونادراً ما نهتم .. هم يقضون أيامهم (أو سنونهم الأخيرة) ولن يكتب أي منهم شئ عن مشاعر الأيام الأخيرة ..
انه يشعر بوحدة شديدة .. لكنه لم يكن يملك الأصدقاء .. واعتبر الطبيعة هي الصديق الوحيد الذي يجلس معه طوال النهار في الشرفة ! حتى الطعام يصله جاهزاً ، فهو يعيش على مدخرات كبيرة جداً من الدروس الخصوصية .
في بداية هذا الأسبوع بدأ يشعر بالضيق .. كان هناك من يتحرك فوق سطح العمارة ليلاً بنشاط عجيب !
غريب هذا ! ان مفتاح السطح معه هو و (مجاهد) البواب .. ولا يظن أن البواب بهذه الحماقة التي تجعله يصعد ليلاً ليقوم بالجري !
تجاهل الأمر في الليلة الأولى لكن الليلة الثانية كان الأمر يزداد سوءاً ! هناك من يقفز فوق السطح هذه المرة !!
خرج الى الشرفة ونادى بأعلى صوته (يا مجاهد ! مين فوق ؟)
لم يجد رداً .. عاد الى السرير في قلق لكن الصوت كان قد توقف .. نام بسرعة وقد اعتزم لوم مجاهد ..

***

في الصباح التالي استدعى البواب .. راح يلومه على ما يحدث فأبدى البواب دهشته قليلاً ثم صمت في ضيق ..
نفى أي علاقة له بما يحدث ورفض شك الأستاذ (موافي) فيه .. لكن وجهه كان ينطق بأن هناك أمراً ما يخفيه ..
حاول الأستاذ (موافي) كثيراً لكن مجاهد أنكر أي شئ ثم مد يده الى مفاتيحه الشخصية وأخرج احدهم ليعطيه له قائلاً :
ـ والله يا موافي بيه ده المفتاح الوحيد اللي معايا للسطح .. تفضل !
أخذه الأستاذ (موافي) ونظر له في شك ثم صرفه ..

لكن الركض لم يتوقف هذه الليلة أيضاً !

****

في هذه الليلة أفاق في ذعر على صوت صرخة أنثوية مكتومة .. خرج بسرعة الى حيث النافذة المطلة على المنور وراح ينظر لأسفل فوجد حركة في شقة العميد المتقاعد (خالد مندور) وابنته (هدى) .. لم تمر ثانيتان حتى دوت صرخة أخرى ! انها صرخة الأم هذه المرة !

هناك شئ ما يحدث .. بمنامته تحرك بسرعة قدر امكانه ولم يطق انتظار المصعد .. وعلى أي حال طابق هدى تحته بطابقين فقط !

استقبله الأب ووجهه ينطق بالقلق .. دخل يسأله مطمئناً على الفتاة فأجابه (خالد) بأن ابنته رأت كابوساً بشعاً للغاية !

تذكر (موافي) صرخة الفتاة الرهيبة وتعجب أن يكون لأي كابوس هذه القدرة الرهيبة على اثارة الفزع .. لكنه تذكر شئ ما فسأل بسرعة :

ـ اذن ما سبب صراخ امها ؟

قام (مندور) بتقليب يديه في حيرة قائلاً :

ـ ذهبت مسرعة لاحضار كوب مياه من المطبخ لكنها تقسم على انها رأت رجلاً واقفاً فيه كالتمثال فصرخت وعادت راكضة ! تحركت الى هناك بسرعة رغم مرضي لكني لم أجد أحداً ! لا أفهم شيئاً فالمنزل قد فتشته ولا أحد فيه وهو محكم الغلق !

دق (موافي) على الأرض بعصاه في قلق وتوتر ثم قال :

ـ هناك شئ ما خطأ يحدث في هذا المنزل .. كأن هناك عصابة تتعامل مع البواب تسكن على السطح وتصنع ضوضاء كبيرة تزعجني منذ أسبوع .. الآن ما حدث في منزلك يثير مخاوفي بأن يكون هؤلاء الحمقى قد جربوا اقتحام حرمات المنازل !

هز (مندور) رأسه في حيرة شديدة وقال مؤكداً :

ـ لكني بالفعل لم أجد أحد في المنزل والمنزل مغلق باحكام ولا أثر لاقتحام !

نهض (موافي) هاماً بالرحيل وقال وهو يودعه :

ـ هناك شئ ما خطأ وأنا متأكد .. سأقابلك صباحاً مرة أخرى ان شاء الله ..

صعد (موافي) الى شقته وهو يفكر طويلاً فيما يحدث .. كان قد أثار غيظه تجاهل العميد (مندور) لحديثه عن السطح .. الرجل برغم كل شئ يعتبره مسن عجوز مخرف ! اللعنة !

دخل الى شقته غاضباً فوجد صوت الركض على أشده !

اتجه في عصبية الى غرفة نومه وأخذ مفتاح السطح ، وتحرك في ضيق دفع بداخل دمه كم هائل من الادرينالين جعله يتحرك في نشاط شاب صغير ..

صعد الدرجات القليلة ثم فتح الباب .. برغم ضوء القمر كانت هناك مساحات كبيرة غارقة في الظلام الدامس .. راح يتحرك في دهشة وقد بدا السطح خالياً ..

لكنه رآهم ..

كانوا مجموعة من الأشباح المظلمة يجلسون في دائرة مغلقة ويتحركون للأمام والخلف يهمهمون بتمتمات غريبة !

تحرك نحوهم في توجس وقلبه يصرخ هلعاً .. لكنه كان عنيداً ومصراً على التأكد بأنه ليس ذلك العجوز المخرف الذي يعتقدونه ..

ثم ما هؤلاء ؟ ظهورهم منحنية بصورة غريبة كما أن وجوه من هم في الجهة المقابلة للدائرة غير ظاهرة على الاطلاق ..
تحرك حتى وقف خلفهم بمسافة ليست بالقصيرة ..
لكن احدهم استدار اليه ببطء ..
هل كان وجه حصان أم وجه كلب ؟
لا يتذكر .. لقد سقطت العصا التي يتوكأ عليها فوراً وهو يتأمل ما يشاهده في ذعر هائل .. وظل واقفاً لثانية واحدة يتحسس قلبه .. بينما الكائن الذي أمامه قد بدأ في صرخات غليظة عالية مفزعة أشبه بصرخات حصان يحتضر !
بالطبع لم يتحمل كثيراً .
وسقط مكانه !

٣

(مجاهد) البواب يفكر جدياً في ترك الخدمة في هذا المبنى !
قبل وفاة استاذ (موافي) بأسبوع بدأ يلاحظ أمور غريبة فعلاً ..
مثلاً كان يجلس على دكة أمام المبنى للحراسة المسائية حينما شعر بتوتر مفاجئ .. نظر خلفه الى مدخل العماره فلمح رجلاً عملاقاً أسود البشرة يصعد السلم بهدوء بالغ ويختفي بعد ثانيتين في المنحنى .. نهض بسرعة وان تملكه رعب غريب ، الرجل لم يكن يرتدي سوى ما يشبه الشورت فقط بينما جذعه القوي اللامع عار تماماً !
ركض خلفه وراح يفتش السلم بسرعة ..
لكن لا أحد !
لا يوجد أفارقة في المبنى والرجل كانت ملامحة أفريقية غليظة .. بل الأغرب أن هذا الأفريقي كان يبدو كما لو أنه صعد من شقة الدور الأرضي الوحيدة ..
شقة مجاهد البواب نفسه !
نزل مجاهد وهو يبسمل ويحوقل .. السلم فارغ تماماً والكل نائم .. لابد انه (شئ ما) ! و مجاهد رجل صعيدي بسيط يؤمن بهذه الأشياء طبعاً وتعلم ألا يهابها .. لكن هذه هي المرة الأولى في حياته التي يرى فيها (أحدهم) ! هكذا قدر طبعاً .. فلا يوجد تفسير منطقي أبداً لما رآه ..
قام بتجهيز (حجر معسل) ليهدأ ..
وينسى ..

*****

لكن الأمر لم ينته ..
اليوم التالي كان في المصعد متجهاً لتسليم بعض الأطعمة لأحد السكان .. وأثناء تحرك المصعد ذو الواجهة الشفافة التي تسمح برؤية من بخارجه .. لمح هذا الأفريقي لثانية جالساً على كرسي أمام أحد الشقق في الدور الثالث !
انتابه الذعر فضغط بسرعة على زر الوقوف في الدور الخامس .. ونزل مهرولاً الى حيث رآه ..

لكن لا ..
لا يوجد أحد على الاطلاق !
تباً .. استعاذ بالله من الشيطان وقام باستدعاء المصعد ثم ركبه مرة اخرى وعاود الصعود ..
عند الدور السابع لمحه لثانية واحدة هذه المرة ..
كان واقفاً ينظر له مباشرة في برود .. تراجع في المصعد وقد اصابه ذعر هائل .. راح يقرأ القرآن بسرعة ..
العمارة مسكونة .. العمارة مسكونة ..
مضى باقي اليوم بلا أي مشاكل ولا أشياء غريبة ..
قرر أن ينام هذه الليلة مبكراً وأن يصحو قبل صلاة الفجر ..
لكن عند الثالثة فجراً شعر بهذا الأمر الغريب ..

***

هل كان كابوساً ؟
مستحيل أن يقرر .. ما رآه كان شديد التجسيم لكن مع ذلك هذا مستحيل في الواقع !
لقد نهض من النوم لسبب ما .. شعر بنداء خفي يدعوه لفتح باب شقته .. اتجه اليه وفتحه .. لكنه لم يجد مشهد السلم بجوار المصعد كالمعتاد !
كان السلم مغطى بما يشبه الضباب .. لونه زيتوني فاتح ولا يوجد مصعد .. بل فجوة مظلمة في الأرض ..
اتجه بارادة مسلوبة نحو السلم .. راح يصعد فيه حتى وصل للدور الثالث .. في الظلال وجد شبحاً أسود يشبه الرجل الأفريقي برغم انعدام الضوء ..
تجمد لبرهة في مكانه .. لكن الشبح الأسود رفع يده ببطء يشير الى شقة معينة ..
نعم .. شقة الاستاذ (فوزي بكار) .. الرجل المتوحد العاطل ..
لكن ماذا يريد ؟
شعر بهلع مفاجئ فنزل بسرعة ودخل شقته راكضاً ..
وفجأة صحى من نومه ..
يالواقعية هذا الكابوس !
انه لازال يتذكر ما حدث كأنه تم الآن !
اتجه للمطبخ بسرعة ليشرب الماء ويخرج من هذا الجو الكئيب ..
وعاد الى غرفته مرة أخرى ليرقد تحت الأغطية ..
غفلت عينيه لثانية ثم فتحهما مرة أخرى ..
انقبضت يديه على الأغطية في رعب شديد ..
ان سقف الغرفة لم يعد له وجود .. أصبح مجرد نافذة لعالم آخر ..
هناك قطط كثيرة تنظر له في فضول من هذا العالم المشتعل بالنيران .. تبدو كالقطط لكنها ليست كذلك ..
تجمد في مكانه .. لم ينطق بحرف .. انهم ينظرون له في فضول لكنهم لا يفعلون ما هو أكثر .. لو كان أكثر ثقافة لتحدث عن أن هذا مشهد من (بعد آخر) لكن من منا سيفكر وقتها مهما كانت ثقافته ..
طال الأمر .. وطال تجمده مذعوراً .. في النهاية اصيب باغماء أو نوم ..
لكن عندما أستيقظ على صوت آذان الفجر لم يجد شيئاً !

***

في الصباح التالي كان في حالة اضطراب نفسي هائل .. هو قد ارتبط بهذه العمارة منذ زمن وليس من السهل الرحيل عنها .. ثم ان هناك شعوراً يزيد مرارته وغيظه وهو أنه ليس بهذه القوة التي كان يتخيلها .. وهذا أثار في نفسه المزيد من الغضب والتحدي للبقاء في العمارة ..
استدعاه أستاذ (موافي) العجوز ليشتكي له أصوات فوق السطح !
أصوات !
العجوز الأحمق لا يدري ما يحدث طوال الأيام الماضية في العمارة .. والآن يتحدث عن مجرد أصوات ! عامة لقد كانت شكوك الرجل العجوز تحوم حوله هو نفسه و (شلة صيع) ! لهذا أعطى للرجل مفتاح السطح الخاص به وتخلص منه سريعاً ..
الآن تبقى لديه واجب مهم ..
زيارة الأستاذ (فوزي بكار) ..

***

تذكر وهو يضغط جرس الأستاذ (فوزي) أنه لم ير الرجل منذ عشرة أيام تقريباً !
ان الرجل مثقف متوحد عاطل عن العمل امتلئت شقته بالكتب وواضح جداً أن لديه مصدر رزق بسيط يكفل له حياة معقولة ..
لا يخرج الا قليلاً وحياته وسط كتبه وطعامه ليس سوى المعلبات الجاهزة .. لهذا لا يهتم كثيراً بالاتصال مع (مجاهد) البواب ومن الطبيعي أن يختفي عن الانظار لفترة ثم تفاجأ أنه لم يغادر منزله طوال هذه الفترة !
لكن رؤيا الأمس أشارت اليه بوضوح ..
ان له علاقة بما يحدث ..
أخيراً فتح الأستاذ (فوزي) الباب ..
كان في وجهه شحوب وذقنه نامية .. كما كان قد فعل أمراً غريباً باضاءة الشقة كلها بأنوار ساطعة للغاية في وسط النهار !
حاول (مجاهد) رسم ابتسامة مفتعلة على شفتيه ثم تحجج بأنه جاء للأطمئنان لأن أستاذ (فوزي) غائب عن الأنظار منذ فترة ..
هرش (فوزي) لحيته قائلاً :
ـ فيك الخير يا (مجاهد) .. لكني أؤكد لك بأني في تمام الصحة .. أنا فقط مشغول بالقراءة كما تعلم ..
كان (مجاهد) يريد دخول الشقة لأي حجة .. والرجل يسد الباب ووجهه المكتئب غير المرحب يسد السبيل ، لكنه حاول قائلاً :
ـ أكيد يا بيه .. لكن الغيبة طالت هذه المرة .. ألا تريد مني تنظيف الشقة ؟
عقد (فوزي) حاجبيه في ضيق شديد ثم قال :
ـ شكراً يا (مجاهد) لكني أقوم بالتنظيف بنفسي .. الآن أستأذنك لأني سأعود للنوم !
ثم اغلق الباب فعلاً في وجه البواب بكل صفاقة .. فزاد يقين البواب أن هذا الرجل هو السبب فيما يحدث .. اتجه الى شقته في ضيق وغيظ .. كان قد قام بتشغيل الكاسيت على سورة البقرة فقط طوال اليوم .. بدت الشقة هادئة في الظهيرة بعيدة تماماً عن أحداث الأمس ..
في المساء قام بوضع الكاسيت في غرفته نفسها وقد قرر أن ينام على صوته العالي!
قبل الثالثة فجراً سمع تلك الطرقة العنيفة على باب شقته !
نهض في توجس .. ان من طرق الباب له يد في حجم قدم الفيل بكل تأكيد فقد كانت طرقة عنيفة للغاية !
قام برفع صوت الكاسيت أكثر وأكثر .. تحرك في حذر نحو الباب .. تساءل بصوت متهدج : من بالباب ؟

لا اجابة .. رفع عقيرته بالتساؤل مرة أخرى لكن جاوبته طرقة هائلة أخرى دون كلام !
اتجه مرتعشاً نحو (العين السحرية) .. كان في حالة هشة للغاية من عشرات التوقعات التي توقع رؤيتها بخارج الشقة .. لكن بالخارج كان هناك ظلام دامس فقط ..
فجأة مر بسرعة شبحاً أسود متجهاً الى سلم الصعود ..
انه نفس الرجل الأفريقي !
هرول (مجاهد) الى سريره وقرر البقاء فيه حتى الصباح .. فليكن هذا الأسود هو (خط الصعيد) نفسه وقد قرر سرقة المبنى بأكمله .. فلن يفتح الباب حتى الصباح ..
ووقتها سيرحل من هذه العمارة اللعينة ..
لن يبقى فيها بعد الليلة !

٤

الملل .. الملل ..
عدو (فوزي بكار) الأبدي .. ورفيقه الأبدي كذلك !
ورث عن والده شقتين كبيرتين قام بتأجير احداهما فوراً بسبب عدم وجود مصدر رزق آخر له غيرها .. وعاش في الأخرى وحيداً ..
عاشق للقراءة .. دخل كلية الآداب بالذات ليتخصص في الكتابة .. لكنه أصيب باحباط هائل فيها وكاد يكره الأدب كله ! خرج منها ليجد أن لا مستقبل حقيقي له فقرر استمرار المعيشة على المبلغ الذي يحصل عليه من ايجار الشقة ..
عاد للكتب معتبراً نفسه قد تزوجها .. محب للانطواء والعزلة عازف عن الارتباط بامرأة من لحم ودم أو حتى مجرد التعرف على أصدقاء !
حياته بين الكتب وللكتب .. كان قد قرر دخول عالم الأدب في الأربعين بعدما ينضج تماماً وينهل من كافة العلوم والآداب والفلسفات .. لكن الملل لم يتركه برغم ذلك وبرغم تنويع مصادر قراءته !
هنا قرر الخروج قليلاً عن النص ..
سيكف عن قراءة العلوم والآداب قليلاً ..
قرر القراءة في الأعمال الروحانية .. أو بصورة أدق : السحر !
جاء بكتاب شمس المعارف الكبرى الشهير .. راح يقرأ فيه المثلثات والدوائر فزاد تعقيد الأمور عليه .. شعر بأن الأمر غريب وصعب الفهم وأشبه بالدجل الفارغ ..
لكن أعجبه فعلاً ذلك الأسلوب للتحكم في حياة البشر !
(العمل) الفلاني بالطريقة الفلانية يجعل فلان يرتبك أمامك .. فلان يرهبك .. فلانة تجد صعوبة في ألا تحبك .. فلان يرجو صداقتك !
الكلام أشبه بالخبال .. لكن ..
ماذا لو كان هذا حقيقي ؟
لماذا لا يجرب ؟

وهل يجروء على التجربة ؟

****

في مساء ذلك اليوم المشئوم قرر بدء تجربة طريفة .. سيقوم بالانضمام الى (عالم السحرة) كما قال (ابن البوني) في كتابه ..
هناك طريقة شعر بأنها أقلهم خطورة رغم أنها تستمر طوال أسبوع كامل .. والآن قرر بدأ هذا الاسبوع ..
أظلم كافة المنزل .. وجلس أمامه طبق فيه زيت فقط .. وقد حفظ بعض الكلمات التي سيرددها كل ليلة ..
الآن عليه الانتظار !
لابد أن يمر أسبوع كامل طعامه هو هذا الزيت فقط .. لا يبرح مكانه الا للذهاب الى دورة المياه سريعاً ثم العودة في صمت !
ممنوع كسر الصمت .. ممنوع رؤية الضوء ..
أمامه أسبوع كامل وينتهي هذا الملل للأبد .. سيتحكم فعلاً في الكثير من تفاصيل حياته !
مر الأسبوع الخانق ..
وفي نهايته جاء الجزء الأصعب ..
والأخطر !

****

عند منتصف اليوم السابع شعر بهم !
كان هناك ضوء خافت متسرب من اللامكان .. وكانوا يتحركون حوله في صمت ..
قلبه كان ينتفض في انفعال .. انهم حقيقيون ! انهم حقيقيون !!
زعماء القبائل السبع قد حضروا !
المفترض ألا يتحدث .. سيظهر الورق في أيديه بعد قليل .. وسيبدأون في أخذ الميثاق والعهد !
الآن أعصابه تكاد تنفلت ! ان البوني اللعين راح يشدد التحذير من انفلات الأعصاب في هذه اللحظات بالذات !
اياك وأن تظهر الضعف .. اياك وأن تنفلت أعصابك .. اياك والنظر اليهم بالطراطير الغريبة التي يلبسونها ! لا تنظر لوجوههم مباشرة وقم بابداء الطاعة والهدوء !
حاول التماسك .. كان على مشارف الانهيار العصبي .. ظهرت في أيديه الأوراق .. رغماً عنه رفع رأسه سريعاً ليلمح وجه أحدهم .. ندت منه شهقة مذعورة وأسقط الورق ثم تراجع للخلف قائماً من فوق الأرض في ذعر ..
أين مصابيح الضوء ؟ أين الضوء ؟
قام باعادة الضوء الى الصالة في انفعال .. لكن الصالة كانت فارغة تماماً بالفعل ..
لقد ذهبوا !
بلا مشاكل ذهبوا !
فعلام كانت تحذيرات ابن البوني الرهيبة ؟!

٥

ليلة فشل (عملية التحول لساحر) قضاها (فوزي بكار) في حيرة .. لم يخرج من المنزل وانما راح يطالع الكتاب الكبير عن مصير فشل هذه العملية .. لا فائدة .. مجرد تحذيرات مخيفة من الفشل دون أي أمل في الاستفاضة .
هل ينسى الأمر كأن لم يكن ؟
وماذا عما رآه .. أنت تذكر وجه من أفقدك صوابك وتعرف أنه من المستحيل أن يكون ما رأيته وهم .. هناك (أشياء) تجسدت في الغرفة فعلاً وكان لها وجود مرئي ..
اذن ما مصيره ؟

***

في الصباح الباكر جهز نفسه للخروج .. فتح النوافذ كلها وحاول نسيان الأمر .. انها تجربة ومرت وهو بخير .. فليستعلم من (أهل هذه الأمور) عن أبعاد ما حدث لكن ليس الآن .. هو بحاجة لاستنشاق هواء نظيف ..
فتح باب المنزل لكنه توقف مبهوتاً ..
هناك رجل أسود يلبس زي أفريقي واقف أمام الباب كالتمثال !
ظل لثوان متسمراً في مكانه وقد تلاعبت هواجس الليلة الماضية بعقله ، ثم قال في خوف :
- السلام عليكم ..
لم يتلق أي تجاوب من الرجل .. النظرة الثابتة والعيون غير الطبيعية التي لا تبدو آدمية برغم كل شئ .. كل هذا يؤكد هواجسه .. هذا من تداعيات (الليلة الماضية) .. لكن ما هي وظيفته !
الآن هو أمام تساؤل هام : هل يتحرك للخارج متجاهلاً اياه ؟
مستحيل .. الرجل أو (الشئ) يسد الطريق .. وهو لا يجروء على لمسه بكل تأكيد ..
اذن ماذا يفعل ؟
عاد الى شقته وأغلقها .. نظر من (العين السحرية) فلم يجد الرجل ! فتح الباب بسرعة مستبشراً فوجده واقفاً في مكانه كما هو !
انه منهم يا عزيزي ، فلا تضع وقتك في مزيد من التأكيد !
لكن ما هي الرسالة ؟ هل قرروا تحديد اقامته مثلاً ؟!
عاد الى شقته حائراً .. قضى طوال النهار يفكر وحاول مرتين تجربة حظه من جديد بالخروج فوجد الرجل ينتظره مرة قبل الدور الأرضي ، وفي المرة الأخرى صعد الى دور أعلى وطلب المصعد فوجد (الأسود) ينزل له بتؤدة من أعلى السلم ! في المرتين هرب الى شقته بسرعة البرق طبعاً .. ان الأسود قد يختفي لكنه دائماً يأتي قبل الهروب ليسد الطريق ! كأنه يعبث به !
ماذ يريد هذا اللعين ؟ ما الفائدة التي سيجنونها من تحديد الاقامة هذا ؟
في المساء كان قد قرر الاستزادة أكثر من الكتب .. ماذا يفعل لـ (يصرف) هؤلاء ؟ راح يقرأ من عدة مصادر ومن (منبع الأصول) اللعين .. لكن أعصابه كانت لا تقوى على تجربة ما يقرأه بصورة فورية .. راح يفكر ويدور في غرفته كالمجنون ..
في النهاية استعمل الهاتف للاتصال بأحد معارفة .. انه شاب متدين اسمه (خالد) لكنه يعرف في (هذه الأمور) في يأس راح يحكي لخالد ما يحدث معه طوال اليوم فسأله خالد في عدم اقتناع :
- طبعاً هو منهم .. لكن ماذا فعلت يا استاذ (فوزي) حتى يفعل ذلك ؟ من المستحيل أن يبدأ الأمر هكذا دون أي سبب !
صمت قليلاً وهو يفكر .. ماذا يفعل ؟ هل يحكي للشاب فيقال عنه (ساحر) لعين ؟ ان الشاب حساس للغاية ضد السحر وهو يؤمن بكفر السحرة ..
لاحظ (خالد) تردده فتنهد ثم قال :

- أستاذ (فوزي) .. ابق عندك وأنا قادم اليك .. السلام عليكم ..
أغلق (فوزي) السماعة وقد ارتاح أن وفر الشاب عليه عناء الشرح والتبرير في الهاتف .. وظل في الانتظار ..

***

مرت ثلاث ساعات .. في النهاية وجد جرس الهاتف يرن فهرع للرد .. كان صوت (خالد) فيه قلق وخوف :
- أستاذ (فوزي) .. الأمر خطير عندك .. لقد وصلت لعمارتك و رأيت أشياء مخيفة فيها وحولها تهددني .. من الخطر على شخص حديث التعامل في هذه الأمور مثلي أن يتدخل الآن .. أنا آسف لأني رحلت لكني لم أكن لأساعدك .. أنا بحاجة لاستئذان بعض المشايخ للحضور معي ..
رد عليه (فوزي) وقد ازداد الرعب في نفسه :
- يا (خالد) ماذا أفعل الآن ؟ الأمر خطير وأنت تتخلى عني !
حاول (خالد) طمأنته برغم أن صوته كان ملئ بالخوف هو الآخر :
- لا تقلق يا استاذ (فوزي) .. هم غالباً يقومون باثارة الذعر بتصرفات مخيفة ..وقدرتهم على اصابة الأذى الجسدي نادرة الحدوث .. لكني بالفعل لا أفهم الأمر وبحاجة الى بعض المشايخ الأعلى مني للمشاركة والمساعدة !
- ومتى يمكنهم الحضور يا (خالد) ؟
- ليس قبل ثلاثة أيام .. كامل اعتذاري لك لكني سأبذل ما بوسعي ..
وقبل أن ينهي المكالمة أعاد التحذير :
- استاذ (فوزي) .. أرجوك حاول أن لا تستفزهم وانتظر في مكانك حتى آتي اليك ..
الأمر ليس بهذه السهولة ..

***

مرت خمسة أيام وهو في شقته لا يغادرها .. حمد الله على الكم الهائل من المعلبات التي يحتفظ بها .. بينما ظل (خالد) يطمئنه أنه يقوم بتجميع ثلاثة شيوخ كبار .. لكن وقتهم لا يسمح الا في نهاية الاسبوع .. كابد العذاب في الانتظار ..
الأسود كما هو .. يختفي أحياناً فيركض الى الأسفل أو الأعلى فيجده صاعداً أو نازلاً ليواجهه من طريق الهرب ! فيعود الى شقته راكضاً !
ظل الحال هكذا .. ساءت نفسيته كثيراً .. البواب الفضولي حاول استكشاف الشقة بحجة تنظيفها لكنه سد في وجهه الطريق ..
وظل طوال الوقت يفكر في فعلة البواب هذه ..
هل هناك (أعراض) بدأت تظهر بوضوح في العمارة ؟
ان نظرات البواب كانت مليئة بالشك ، فلماذا جاءه البواب بالذات ؟ ان العمارة ممتلئة بالسكان وهناك شخصان عازبان مثله .. فهل ذهب اليهما كما جاء اليه ؟
في المساء كان لازال غارقاً في الكتب والتفكير ..

***

تباً .. صوت صرخة أنثوية مكتومة أمام شقته .. فتح الباب في حذر فوجد مشهداً شنيعاً ..
كانت (هدى) بنت أحد جيرانه مصابة بالاغماء على الأرض أمام بابه .. بينما يركع على قدم واحدة كائن رهيب على صورة بشرية لكنه مشتعل بالنار ! كان يمسك بيدها لكنه لا يؤذيها !
ظل ثابتاً مكانه كالمعتاد وقد اهتز قلبة من المشهد المخيف .. انها جارته ومن واجبه أن يفعل أي شئ .. ندت منه حركة نحوها فارتفعت رأس ذلك (الشئ) نحوه وبصوت عميق صارم أمره :

- هي لي ! عد !
المشهد رهيب .. ماذا يفعل ؟ هل هذا (الكائن) يمكن مصارعته ؟ هل يستسلم ؟ تراجع خطوتين الى الوراء وأغلق الباب .. كالعادة استخدم العين السحرية .. لكنه وجد الفتاة وحدها هذه المرة وقد أفاقت ! نهضت من فوق الأرض بصورة ميكانيكية قليلاً ثم ألقت نظرة طويلة مخيفة على باب (فوزي) المغلق فتراجع في ارتياع .. انها ليست هدى من كانت تنظر .. هذا الشئ هو الذي كان ينظر !
لقد استحوذ عليها !
ان الأمر يتطور بسرعة .. لابد من الاتصال بخالد واستعجاله ..
الوضع لم يعد يحتمل المزاح !

٦

خالد لا يرد !
مر يوم كامل على حادث الفتاة وخالد لا يرد ..
كانت روحه قد بلغت الحلقوم من السجن .. كان يريد أي حل ..
في نهاية هذا اليوم جاءه الاتصال أخيراً ، تحمل خالد اللوم ثم أخبره بأن ينتظره صباح اليوم التالي .. لقد استطاع المجئ بشيخ عظيم القدر في هذه الأمور من محافظة أخرى وهو السبب في التأخير ..
لكن صباح اليوم التالي كانت العاصفة !

***

العميد (خالد مندور) والد هدى كان أول من اكتشف الجثة ..
صعد في الصباح ليلتقي الأستاذ (موافي) يناقشه ويشكره ، فوجد باب شقته مفتوحاً .. تذكر كلامه عن سطح العمارة فصعد في قلق .. ليجد جثته منطرحة على الأرض ..
جاءت الشرطة واستجوب الكثير وخاصة البواب .. لكن الرجل كان مصراً أنه بات الليلة في غرفته ..
كان الأستاذ (فوزي) في هذه الأثناء خارج المنزل !
لقد استغل الحركة الكبيرة في العمارة ونزل وسط الجموع .. لم يجد الأسود هذه المرة .. كان بحاجة للتحرر قليلاً .. وبرغم كل شئ لم يربط بين وفاة العجوز وبين ما يحدث له ..
ذهب ليشتري الكثير من (المخزون) فتلقى مكالمة هاتفية من (خالد) يؤكد عليه أنه قادم بعد ساعة واحدة .. عاد الى المنزل فاستفسر من أحد الجيران عن وفاة الرجل .. لكن ما قيل له جعل وجهه يزداد شحوباً !
العمارة كلها مصابة بعدوى من الظهورات لاناس غريبة في أوقات غريبة من اليوم .. الليل أصبح محرم على أغلب العمارة النزول فيه .. بعضهم يفكر جدياً في استدعاء شيوخ بل وحتى النصارى يفكرون في استدعاء قساوسة .. هناك بلاء شديد من (العفاريت) أصاب العمارة يشتكي منه الجميع ومنهم الأستاذ (موافي) قبل وفاته بهذه الصورة المثيرة للقلق !
عاد الى شقته ملتاعاً .. هو السبب في كل هذا ؟ هو السبب ؟
ياللهول !

***

بعد ساعة رن جرس الباب .. ذهب ليستقبل (خالد) ومعه أربعة شيوخ .. الحقيقة أن الأربعة كانوا متجهمي الوجوه !
جلسوا في الصالة كما طلبوا .. وغلفهم الصوت لبرهة .. ثم بدأ الشيخ الأكبر سناً الكلام :
- أستاذ (فوزي) .. الآن تحكي لنا بالتفصيل ماذا حدث .. الصدق والصدق فقط هو ما نريد .. فعمارتك رأينا فيها أشياء شريرة كثيرة منذ القدوم ..
لا تخفي شيئاً ..
تردد (فوزي) في البداية .. لكن الضغط النفسي كان هائلاً .. فاندفع يروي كل شئ حتى وصل الأمر الى البكاء عند حادثة الأستاذ (موافي) .. راحوا يحوقلون في ضيق شديد .. وقال أحدهم في غضب :
- (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا) .. ألم تقرأ هذه الآية من قبل يا رجل ؟ ان محاولة الاستعانة بهؤلاء تفتح مجالاً مرعباً ولا تجعلك تصل الى شئ .. هل رأيت ساحراً من أغنى أغنياء الدنيا ؟
تنهد الشيخ الأكبر وقال له في هدوء مفسراً :
- ما فعلته أنت هو انك قمت باستدعاء رؤوس سبع قبائل من الشياطين لأخذ مواثيق معهم باعانتك على الكفر والسحر .. ثم لم تصرفهم فانتشروا بقبائلهم في مسكنك كله .. بل ولن تكون مفاجأة لو عرفنا أن المسكن المجاور لك هو الآخر مصاب بمشاكل ! هم قد عينوا أحدهم عليك ليمنع هربك ، ولو فعلت فسيجدونك وينكلوا بك .. لكن انتشارهم في عمارتك آذى الفتاة فهي واقعة تحت استحواذ أحدهم .. والرجل العجوز غالباً مات من مرآهم .. أنت مجرم في حق نفسك وفي حق الجميع يا بني .. فكيف السبيل للنجاة ؟
كان (فوزي) يبكي في حرارة بالغة .. كان لا يصدق حجم الكارثة التي تسبب فيها .. الأمر كله لم يكن يعدو المزحة .. لكن من الذي يمزح مع هؤلاء ؟
انتظر الشيخ الكبير قليلاً .. ثم قال له :
- تب الى الله .. لعله يقبل توبتك .. ان الساحر كافر لعين .. وفعلتك الخرقاء لم تجعلك ساحراً وانما جعلتك سجيناً مشاركاً في أذى الأبرياء .. تب يا بني ..
بعد دقائق من الاستغفار وأخذ المواثيق مع الله بالتوبة النصوح ، وقف الشيخ الكبير قائلاً في حزم :
- الآن انتهى الشق الأول .. فلنبدأ العمل ..
دلني على الفتاة التي رأيتها !

***

في صالة العميد (مندور) كان يتطلع الى هذه المجموعة المصاحبة لأستاذ (فوزي) في ريبة .. كان (فوزي) يحاول اقناعه بأن هناك مشاكل في العمارة وأن بنته لابد من الكشف عليها لكن والد الفتاة كان رافضاً بشدة .. مصراً ان هذه خزعبلات ..
سأله الشيخ الكبير بنفس الهدوء المميز :
- هل بنتك شاهدت رجلاً تشتعل فيه النيران ؟
صدم العميد .. ارتفع حاجبيه في دهشة ولم ينطق .. هز الشيخ رأسه ثم قال :
- بنتك ممسوسة .. وأنا قادم لمساعدتها مع اخواني هؤلاء .. وشفاء بنتك سيرفع الكثير من لعنة هذا المنزل .. فأت بها والا ظلت في حالة سيئة ..
ظل العميد متجمداً للحظات .. ثم نهض من مكانه بلا حرف واتجه متوكئاً على عصاه نحو غرفة نوم ابنته .. استفسر (خالد) من الشيخ على سبب البدء بهذه الفتاه .. فرد عليه :

- الذي مسها هو أشرسهم .. الخلاص منه يعني أن مهمتنا ستصبح أيسر ان شاء الله بتطهير العمارة وخاصة السطح المهجور الذي يبدوا أنهم كانوا قد اتخذوه مرتعاً لهم .. سنحتاج الى الكثير من الماء بالقرآن والكثير من الاستفسار عن الشقق المبتلاه .. لكن هذه الفتاة هي البداية .. والأمر سيكون شديد الصعوبة .. فاللهم سلم ..
راحوا يستفسرون عن تفاصيل أخرى لوقت قصير .. قبل أن تأتي الفتاة مع أبيها وأمها .. كان في عينيها نظرة قلق وخوف .. جلست أمام الشيخ الكبير فراح يحدثها بلطف .. لكنها لم تبد تجاوباً كبيراً ..
طلب الشيخ من العميد أن يجلس ويهدئ روع زوجته .. نظر اليهما قائلاً ف حزم :
- لا صراخ .. أياً كان ما سيحدث الآن فهو بداية الشفاء ان شاء الله .. اياكم ثم اياكم من الجزع لأي شئ يحدث .. عليكم بتلاوة القرآن ونحن أصلاً لن يكون علاجنا بغيره ان شاء الله ..
جاهزين ؟
أومأ كل من الأب والأم برأسيهما في صمت .. التفت الشيخ الى الفتاة وقد نهض اثنان ممن كانوا معه يقفون حولها استعداداً لأي خطر ..
بدأ الشيخ يتلو القرآن .. بصوت عال رتيب .. آيات معينة .. بدأت الفتاة تفقد وعيها ..
وفجأة أظلم النور !
انطلقت شهقة رعب من الأم لكنها كتمتها بسرعة بينما راح الشيخ يكمل التلاوة بصوت أعلى .. الشيوخ أمسكوا بالفتاة كيلا تهرب في الظلام .. بينما راحت تتشنج قليلاً ..
راحت أصوات فرقعة بعض التحف تدوي في الصالة ..
القرآن مستمر من الشيخ بحماسة وصوت أعلى ..
صمت صوت الفرقعة .. فأوقف الشيخ قراءة القرآن لثوان ..
في الظلام جاء صوت ذكوري عميق .. جاف :
- ها قد جئتك ..
أرني ما تستطيعه ..

أم مؤمن

للمرة الأولى يدخل (مؤمن) المسجد الكبير .. الجامع لكافة الأحياء المجاورة ومنه الحي الذي نشأ فيه ..
جلس مبتسماً في سعادة وهو يشاهد عشرات العمائم المختلفة رائحة وغادية .. عمائم بيضاء وعمائم سوداء وعمائم حمراء ! الكل يتحرك في نشاط والكل يجتمع في حلقات نقاش اسلامية .. باقي أقل من ساعة على صلاة الجمعة ومع ذلك الأفكار منهمرة بسبب اللقاء الكبير الذي لا يتم الا كل اسبوع .. وهو لم يجئ قبلاً برغم حضور أخيه الدائم الى هنا .. كان يفضل مسجد حيه الصغير ..
انتشت نفسه بروح الاخوة الدينية .. ارتقت روحه الى عنان السماء .. اقترب من حلقة كبرى يتوسطها شيخ مهيب الطلعة اسمه (أبو الأسود) من الحي المجاور لهم .. راح يتحدث بكلام جذاب عن الوحدة الكبرى واسقاط الظالمين والطواغيت والصمود أمام (هولاكو) الطاغية .. ارتقت روحه أكثر وثارت همته أكثر وأكثر ..
جاء وقت صلاة الجمعة .. الدور اليوم كان على الامام (أبو الأسود) بالذات .. صعد الى المنبر يفتتح الكلام بالصلاة على النبي والآل .. انطلق يحذر من امرأة سيئة السمعة .. خبيثة الطوية .. لوثت المدينة كلها بأفعالها المتهتكة .. راح يصف في تاريخها النتن.. امتعضت نفس (مؤمن) من هذه السيدة النجسة .. التفت حوله فوجد أغلب النفوس مشمئزة .. البعض جالس في هدوء كأنما لا يستمع والبعض بدا كأنه يكظم غيظه بصعوبة فآمن بأنهم ينوون قتل هذه الامرأة الخبيثة ..
تساءل (مؤمن) : كيف يتركون هذه المرأة بلا عقاب ؟ كيف تعيش وسط مدينة السمو دون مسائلة ؟
قبل نهاية الخطبة قام بعض الغاضبين يسبون الامام ! الغريب أنهم من حيه هو بالذات !
ما لهؤلاء المجانين ؟
ذهب اليهم ونفسه مشتعلة بالضيق والثورة ، عنفهم قائلاً :
ـ بدلاً من قطع الخطبة وشغلنا عن الامام .. الأولى بكم أن تذهبوا لتخرجوا هذه الفاسقة من مدينتنا وحينا !
نظروا له في دهشة كبيرة .. اقترب أكبرهم ووضع يده على كتفه قائلاً في توتر :
ـ الامام يتحدث عن أمك أنت يا (مؤمن) !

***

خرج من المسجد مسرعاً في ذهول ..
أمه !!
أمه ؟!
أمه هي فاسقة المدينة الخبيثة العاهرة ؟
كيف ؟ كيف ؟
ركض كالمجنون الى منزله .. وجد أمه جالسة في هدوء تقرأ القرآن .. انها دائماً تقرأ القرآن حين لا تجد أحداً تدرس له علوم الفقه والحديث من أبناء الحي !
ركع على ركبتيه يبكي كالمجنون ولم يزايله الانفعال بعد .. بكي قهراً وهو لا يقوى على الحديث .. رفعت عينيها اليه في حنان وفهم .. أمسكت المسبحة وأشارت اليه كي يقترب فهرع الى أحضانها .. همست في أذنه بهدوء :
ـ الآن عرفت ؟ لهذا كنت مشفقة عليك في الذهاب الى المسجد الجامع طوال هذه السنوات ..
من بين دموعه قال في مرارة :
ـ لكن كيف ؟ كيف يطعنون في شرفك يا أمي وأنت القرآنية الصوامة القوامة ؟

ربتت على شعره وبنفس الصوت الهامس الهادئ قالت :
- دعك منهم يا بني وأقم صلاتك .. حسابي معهم عند الله على افكهم وافتراءهم .. الآن استسمحك أن تدخل لغرفتك تصلي وتتركني لأكمل قراءة القرآن .. لا أحب هجره أكثر من دقيقة واحدة ..
نهض يمسح دموعه وألقى نظرة أخيرة عليها .. وجد في عينيها ألم دفين .. ان الأوغاد يؤذونها كثيراً لكنها تتحمل وتستعين بالصبر والصلاة .. الآن فهم سر نظرة أمه الحزينة من حين لآخر !
تباً لهم !
تحرك نحو غرفته وأقام الصلاة ..
لكن باله لم يهدأ ..

***

في الغد بعد صلاة الفجر تحرك نحو امام مسجد الحي الخاص به ، الشيخ (حافظ) الرجل الورع التقي .. ابتسم الامام في عطف عندما شاهد عينيه الحائرتين .. بادره قائلاً :
- اياك و الأنبياء الكذبة !
أخذته المبادرة ، لكنه أدرك أن الامام لا محالة وصلته أخبار المسجد الجامع .. رد في ثورة مكتومة وصوت خافت :
- لكنه قال دلائل ووقائع وأحداث .. عشرات الدلائل والأحداث .. كيف يختلق المرء كل هذا الكذب ؟
ابتسم الامام في سخرية من سذاجة (مؤمن) .. مد يده الى ورقة دعائية حديثة وقدمها لـه طالباً منه قراءتها .. كان مكتوباً فيها بخط فارسي أنيق :
- احذروا داعية جهنم .. الشيخ (حافظ) السارق النصاب .. روى غير واحد من أهل مدينته أنه الفاسق الأكبر وعهره معروف في جميع الانحاء .. و زوجته العاملة في الدعارة يستمتع بها أهل الحي جميعاً ويقبض (القواد) الثمن .. احذروه فهو مدلس منافق عدو للقرآن ويدمر عقول الشباب ويعلمهم القتل والبلطجة ..
فيا محبي الدين والشرف .. تخلصوا من الشيخ (حافظ) الكاذب السارق الداعر !
اتسعت عينا (مؤمن) في ذهول ! الشيخ حافظ لم يتزوج أبداً بسبب انشغاله في العلم والدعوة .. فأي زوجة تلك التي تعمل في الدعارة ! ثم انه يعلم شباب الحي القرآن والسيرة ولسانه عفيف وسيرته شريفة يقسم بنقاءها أهل الحي جميعاً .. فأين السرقة وأين الدعارة ؟
ألجمت المفاجأة لسانه .. فسأله الشيخ (حافظ) :
- بعيداً عن موضوع زوجتي الخيالية .. هل علمتكم يوماً السرقة والقتل والبلطجة ؟
لم يجبه مؤمن انما سأله في دهشة :
- يا امام .. هل يصدق أحد من العاقلين هذه الأكاذيب الرخيصة ؟
هز الامام رأسه قائلاً في مرارة :
- ما أكثر الكذب .. وما أندر العقل .. انهم لن يغفروا لي أبداً حفظي لسيرة والدتك وفضح كذبهم لجميع المدينة ..
- لكن كيف يا شيخي يكذبون ويجدون من يصدقهم ؟
- سلاحهم معروف .. استمرار الأكاذيب والمبالغة في حجمها ، والتربص للأفعال واساءة النية في كل خطوة .. مع استغلال ميل الكثيرين لتصديق الأفعال الخبيثه على خيار الخلق .. وبسرعة البرق تنشغل مدينتك كلها برواية الأكاذيب حتى تصبح الحقائق وتتحول الحقائق الى سذاجة وقلة فهم و معرفة بالحقيقة الخفية !
لكن بفضل الله ثم عبده لم يسلم سوى حينا الا شواذ الأفهام .
دارت الأرض بـ (مؤمن) أكثر .. استأذن شيخه في الرحيل وخرج من المسجد هائماً على وجهه ..

شاهد الأضواء النيون من بعيد و (عرعر) البلطجي الشهير اللعين يقف أمام خمارته (بين الحارات) يحميها من الدعاة الرائحين والغادين في المدينة ..
فكر في خاطرة ما لكنه استغفر ربه ورحل سريعاً الى منزله ..

***

اقترب منه أخيه الأكبر (محب) الذي عاد للتو من سفره السريع .. حاول معرفة سبب تغيره وكآبته فزاد من تملصه .. أمره بصرامة أن يطيع أخيه الأكبر ويحكي .. كان (مؤمن) خائفاً من أن يتهور أخيه ويذهب لقتل هؤلاء .. حكى له كل شئ وصوته يرتجف من هول ردة فعل أخيه القوي .. لدهشته لم يجد لما قال أثراً على وجهه.. ازدادت حيرته وشكوكه ..
- مالك تنظر لي هكذا ؟
- كنت أظنك ستنتفض غضباً !
وقف (محب) وتحرك نحو النافذة يلقي نظرة على مئذنة المسجد الجامع الظاهرة من بعيد .. قال (محب) بحكمة وهدوء :
- من مصلحة بقاء المسجد الجامع أن نتجاوز عن هذا يا (مؤمن) .. ان (هولاكو) يتربص بالمدينة وجيوشه على أهب الاستعداد لاجتياحها في أي وقت .. من أجل بقاء المسجد والمدينة لابد من اغماض أعيننا عن الأذى !
وقف (مؤمن) والذهول يعصف بنفسه :
- ماذا ؟ أكنت تعرف ما يقال ؟ هل أمنا كما قالوا ؟
دار (محب) على عقبيه وصفع (مؤمن) فجأة في غضب .. نهره في عنف :
- اياك أن تؤذي أمنا بحرف .. اياك .. انها أشرف النساء في الحارة والمدينة والكل يعلم ذلك منذ صغرها .. انها لم تخرج من بيت أبيك سوى مرة واحدة فقط وكانت لاطفاء حريق كبير في الحي .. انها لم تترك القرآن منذ نشأتها .. فاياك ان تؤذيها بالظن السئ !
في ألم ووسط دموعه هتف (مؤمن) :
- كيف تطالبني اذاً بالسكوت عن من يؤذيها ويطعنها في شرفها ؟
في ثورة غاضبة رد (محب) :
- انه الاتحاد أيها غبي .. انه الخطر الأكبر الذي يهدد المدينة .. اننا نؤمن يقيناً أن أمنا طاهرة .. لكن مع ذلك علينا أن لا نثير المشاكل مع الحي الآخر كيلا تتمزق المدينة في حرب أهلية فينهدم المسجد الجامع .. ماذا نفعل وقتها اذا دخلها (هولاكو) بسببنا ؟
افهم يا من لا تريد الفهم !
لم يطق (مؤمن) استمرار الحديث .. خرج من غرفته مسرعاً فوجد أمه وسط حلقة من البنات الصغيرات المحجبات يتعلمن القرآن .. مشغولة هي دائماً بقرآنها ومترفعة عن النيران المشتعلة بداخلك ! استمر في الركض المجنون الى الحي .. وصل الى (عرعر) البلطجي الستيني .. شاهده (عرعر) بلحيته وأثر السجود فتوثبت عضلاته للدفاع عن خمارته .. لكن توتر الرجل انقلب الى دهشة عندما سأله (مؤمن) مبادراً :
- اني استحلفك بالله يا رجل أن تصدقني .. هل رأيت من تلك المرأة التي تسكن في (بيت الضياء) بالحي المجاور أي فعل سوء ؟
استحالت دهشة (عرعر) عبوساً ، سأل مستفسراً :
- تقصد المرأة الصالحة (أم مؤمن) ؟
- نعم .. هي بعينها .. انك منذ أربعون عاماً وانت ملك العالم السفلي للحارة .. أي قبل أن تولد هي بعدة سنوات .. فهل رأيت منها ما يريب ؟

في غضب كور (عرعر) قبضته وهو يجيب :
- من الحقير الذي قال هذا ؟ .. ان أم (مؤمن) هي سيدة المدينة وأطهر نساءها .. أعرف انها تكرهني وتحاربني لكن والله منذ مولدها والمدينة لم تر أشرف منها ..
ثم أمسك تلابيبه فجأة وهو يهدد :
- من أنت أيها الكلب وكيف تشك في أم (مؤمن) ؟
- أنا (مؤمن) يا رجل .. أنا ابنها ..
أفلته (عرعر) فوراً وراح يعتذر له بشدة وعنف ، في النهاية تساءل في دهشة :
- أنت تعيش معها في نفس المنزل منذ أنجبتك صغيرة .. ولم تر منها سوى القرآن وملازمة السنن ..
فكيف يشك المرء في مثل تلك الأم ؟

***

بعد شهر ذهب الى المسجد الجامع مع أخيه .. إن (هولاكو) نشط جداً هذه الأيام والمدينة اتفقت على التوحد ..
في المسجد جلس واضعاً عينيه في الأرض شارداً ..
على المنصة الرئيسية جلس أخيه ممثلاً عن حيه بجوار الامام (أبو الأسود) ممثل الحي الآخر .. راح أخوه يتحدث عن ضرورة الوحدة ونبذ الخلاف .. ضرورة اتحاد المدينة للنجاة من غزو هولاكو .. ضرورة أن يترفع كل منا عن أذى أخيه والكف عن التعرض للمسائل المثيرة للمشاكل والنزاع ..
راح يتحدث كثيراً جداً .. بينما (أبو الأسود) وأهل حارته يهزون رؤسهم موافقين ..
كان (مؤمن) في عالم آخر .. سؤال واحد ملأ عليه عقله: ما الفرق بين الموت دفاعاً عن عرضه والموت دفاعاً عن أرضه ؟
فجأة نهض (مؤمن) واتجه الى المنصة ، سأل (أبو الأسود) في هدوء :
- هل لازلت تؤمن أن أمي عاهرة ؟
ثار أخيه غضباً وطلب منه عدم افشال الوحدة ، لكنه تجاهله و صمم على تكرار السؤال :
- هل لازلت تؤمن أن أمي عاهرة ؟
لم يجب الامام (أبو الأسود) وان فضح تبادل نظرات السخريه بينه وبين أبناء حارته الكثير !
بدون حرف زائد ، بصق (مؤمن) في وجوههم وخرج من المسجد الى الأبد ..

إنقاذ لاوس

واشنطن ـ ١٩٥٩

خلع السناتور (ب.مورتون) نظارته وألقاها على مكتبه بعصبية بالغة .. كان أمامه تقرير عنوانه (المساعدات الأمريكية لمملكة لاوس) .. في انفعال بالغ رفع سماعة الهاتف وطلب الاتصال بنائب الرئيس ايزنهاور مباشرة .. فما قرأه في التقرير كارثة حقيقية ..

جاء صوت (نيكسون) نائب الرئيس يحييه فبادره منفعلاً :

ـ سيدي نائب الرئيس .. لابد أن تتخذوا قراراً فورياً هاماً في مسألة المساعدات المقدمة للاوس .. ان ملايين الدولارات الأمريكية يتم العبث بها بلا داعي !

أجابه نائب الرئيس في هدوء :

ـ أنا أيضاً قرأت تقرير لجنة الكونجرس يا (مورتون) وأدرك مدى خطورته .. للأسف حتى (مكنمارا) متورط هناك في اضاعة أموالنا .. لكن عليك أن تطمئن .. الرئيس يتفهم تماماً ضرورة قطع هذه المعونة الضخمة الغير مجدية ..

هتف (مورتون) في انفعال أكبر :

ـ بل لابد من عقاب هؤلاء الخراف البربريين حكام لاوس .. لقد كنا نعطيهم معونة ضخمة جداً مقابل أن يمتلكوا جيشاً متطوراً قوامه ٢٥ ألف جندي ليتصدى للشيوعية .. فاذ بهم يسرقون هذه المعونة السنوية على مرأى ومسمع من مسئولينا دون وجود خطر شيوعي حقيقي !

بنفس الهدوء اكمل (نيكسون) :

ـ مورتون .. اهدأ الآن .. المعونة سيتم قطعها وسيحاسب الكثير على هذه السرقة الكبرى لأموال الأمريكان .. فقط انتظر وسترى ..

***

(سايسانجكي) هو أحد كبار قادة الجيش في لاوس .. تسربت اليه أنباء تقرير الكونجرس المرعب الذي سيقطع المعونة العسكرية الأمريكية عن لاوس .. أصيب بالذعر .. اتصل فوراً بكبار قادة الجيش للاجتماع ..

في موعد الاجتماع وصلت السيارات الكاديلاك الفخمة تحمل قادة الجيش المنتفخين غروراً .. ان لاوس بلد فقيرة للغاية بل انها من أفقر دول آسيا ، وأغلب الشعب يعيش على فتات الفتات .. لكن مع ذلك هؤلاء القادة العظام يركبون أحدث السيارات الأمريكية الفخمة ويسكنون في القصور ويملك كل منهم الملايين بفضل المعونة الأمريكية السنوية ..

في بداية الاجتماع وقبل أن يجلس على مقعده ألقى (سايسانجكي) القنبلة :

ـ أمريكا ستقطع عنا المعونة العسكرية !

انفجرت قنبلة من مشاعر الذهول والارتياع في وجوه الجميع ، الكل راح يتخيل نفسه واحداً من عامة الشعب الفقير الذي يعيش بصعوبة حياة أقرب للموت ، سادهم جميعاً شعور بالضياع فلم ينبس أحدهم بحرف لفترة ليست بالقصيرة بينما (سايسانجكي) يجول بعينيه في وجوههم المسودة اليائسة ..

في النهاية تمتم أحدهم وفمه يرتعش :

ـ مستحيل .. أنت لن تقبل معنا بالضياع .. بالتأكيد لديك خطة لمنع ذلك ..

عاد الأمل ينتشر في وجوه الجميع .. ركزوا الأبصار فوق وجه (ساي) في اهتمام لسماع رده .. ظل صامتاً بارداً لدقيقة كاملة ..
في النهاية سحب مقعده الى الوراء وجلس قبل أن يقول ببرود شديد :
- فكرت في شئ ما .. لعبة خطيرة لكن لا أمل غيرها ..
افتحوا آذانكم جيداً لما سأقول مهما بدا مخيفاً ..

***

أغلق رئيس تحرير جريدة الواشنطن بوست سماعة الهاتف وعيناه جاحظتان .. استدعى الى مكتبه كل الصحفيين الكبار فوراً .. دخلوا جميعاً في وجل منتظرين قنبلة صحفية جدية تستدعي تلك اللهفة في تجميعهم ..
في توتر بالغ قال لهم :
- كارثة .. لاوس تم اجتياحها بواسطة الشيوعيين المجانين ! امريكا في خطر داهم !
نظروا لبعضهم في قلق ودهشة في حين تجرأ أحد كبار الصحفيين وتساءل :
- لاوس ؟ من بحق الجحيم لاوس هذه ؟
أشار رئيس التحرير بيده مستنكراً وقال :
- لا يهم .. المهم أنها كارثة كبرى .. وزير الدفاع نفسه أكد لى على أن هذا أمر شديد الخطورة على الولايات المتحدة .. الشيوعيون يتقدمون !
لابد أن يعي الشعب هذه الكارثة الكبرى .. لابد أن يدعم لاوس بكل قوته ..
ثم دق على منضدته منفعلاً وهو يقول في حزم :
جهزوا أنفسكم بعشرات المقالات في صحيفة الغد .. أمريكا كلها ستقف بجوار لاوس !
خرج الصحفيون بسرعة بينما ذهب أحدهم ليتفقد خريطة للعالم بحثاً عن موقع لاوس ..راح يتفقد الخريطة وهو يغمغم :
- اللعنة .. أين تقع لاوس بنت الـ (...) هذه ؟
في النهاية وجدها .. كانت دولة حبيسة بين الصين وفيتنام وكمبوديا !
هرش في رأسه ذاهلاً .. نظر الى زملاؤه الذين اندفع كل منهم الى مكتبه يجهز المقالات والتحقيقات عن انهيار أمريكا الوشيك أمام الشيوعية ان انهارت لاوس .. عاود النظر الى الخريطة محاولاً الفهم .. في النهاية هز كتفيه بلا مبالاة وتحرك الى مكتبه يجهز مقاله الخاص عن خطورة سقوط لاوس !

***

خرجت صحف اليوم التالي بعناوين مثيرة للهلع .. الشيوعية تتقدم .. الولايات المتحدة في خطر .. هل أصبحنا على وشك الحرب النووية باجتياح لاوس ..
هل يبادر الشيوعيون بقصف أمريكا بالنووي ان انتصروا في لاوس أم لا ؟ ثم كيف تحمي أولادك من القصف النووي ان سقطت لاوس !
الشعب كله أصيب الهلع .. الكل أصبح يتحدث عن لاوس .. الكل يدعوا الهه كي لا تسقط لاوس وأن تصمد ..
طفل صغير جالس أمام تمثال الهه يدعوه باكياً أن ينجي لاوس من الدمار كي تبقى أمريكا ويبقى والداه على قيد الحياة ..
كلنا لاوس ..

***

طرقع الأدميرال (بوركه) قائد العمليات البحرية الأمريكية أصابعه في توتر .. انها من المرات القلائل التي يجري فيها حديثاً صحفياً .. لكن الأمر شديد الخطورة .. كان الصحفي يسأله عن التدبيرات التي ستتخذها أمريكا لوقف الغزو المرعب .. حاول اخفاء توتره وهو يجيب بحزم :
- سلاح البحرية الأمريكي كله سيتدخل في الأزمة اللاوسية ان اقتضى الأمر .. الأسطول السابع بالفعل تحرك نحو المناطق الخطرة لمساندة لاوس ..
لن ندخر أي قوة لمواجهة هذه الكارثة .. اننا خلف لاوس مهما حدث !

***

طالع قائد القوات الجوية عدسات كاميرات القنوات الأمريكية في حزم وكبرياء ، ثم قال بنبرة قوية قاطعة :
- أريد للشعب الأمريكي أن يطمئن .. يمكننا ارسال قواتنا المسلحة ونقل طائراتنا القاصفة الى لاوس في خلال ٣٥ ساعة فقط .. ان الشيوعيين لا يعرفون مع من يعبثون !
اطمئنوا تماماً .. لاوس ستصمد للنهاية !

***

اليوم موعد اللقاء الصحفي مع الرئيس الأمريكي (ايزنهاور) ، دخل الى القاعة مهموماً عالماً بما سيسأل عنه ، وبالفعل كانت كل الأسئلة عن لاوس .. ما مصير لاوس يا سيادة الرئيس ؟ كيف ستنجو أمريكا يا سيادة الرئيس ؟ الى متى نكبت غضبنا العسكري عن تقدم الشيوعية يا سيادة الرئيس ؟
في هدوء لكن بجدية تامة أجابهم ايزنهاور :
- أمريكا هي الأقوى .. سأتحدث مع رئيس الاتحاد السوفيتي (خروتشوف) وأطالبه فوراً بايقاف هذه المهزلة الشيوعية ..
صدقوني لن تسقط لاوس !

***

فوضى هائلة في الكونجرس هذا اليوم .. الكل يصرخ وعشرات المشادات قائمة .. صعد السناتور (ب.مورتن) للحديث وسط عشرات النظرات الغاضبة اللائمة .. قال في عصبية :
- أعرف أنني أحد الاشخاص الملومين بسبب موقفي من المساعدات العسكرية لـ(لاوس) ! لكن صدقوني لن نتخلى عنها بهذه السهولة .. لقد بعثنا لها في الأيام الماضية معدات عسكرية أمريكية متطورة بعشرات الملايين .. حولنا لهم عشرات الملايين الأخرى لاعادة اعمار نتائج الاجتياح الشيوعي الغاشم .. لقد أغدقنا عليهم الكثير وكان لي دور هائل في هذا .. أعتقد انني كفرت عن خطيئتي !
في غضب هتف أحد الأعضاء متسائلاً :
- وهل تظن هذا يكفي لايقاف الشيوعيين ؟
في غضب مماثل رد عليه (مورتن) :
- ان لم يكفي فسنتدخل نحن .. سنذهب بمقاتلينا وأسلحتنا لايقاف الشيوعيين ..
لن نسمح أبداً بسقوط لاوس !

***

نزل المراسل الحربي الأسترالي (دنيس وارنر) من الطائرة في مطار العاصمة اللاوسية (فيينتيان) .. شعور هائل بالضيق ينتابه بسبب تأخره في المجئ الى لاوس لمشاهدة الحرب المرعبة التي زلزلت أمريكا طوال الأسابيع الماضية .. لكن تلك الظروف العائلية اللعينة حرمته وأخرته ..
يعزيه على أي حال أنه جاء والحرب لازالت مشتعلة بشدة كما تعلن الحكومة اللاوسية في ارتياع مستمر ..

قابل (كونج لي) وهو المرافق المحلي له من لاوس .. كان صحفياً شديد الثقافة ، وبرغم اللقاء الودي لم يفهم سبب تلك النظرة الغامضة في عينيه ولا تحفظه الشديد في الكلام عن الحرب المدمرة .. طلب منه أن يذهب الى جبهة القتال فوراً بلا تأجيل ..
نظر له (كونج) بنظرة غامضة فيها لمحة تهكم ، وسأله في جدية ظاهرية :
ـ أي مدينة من جبهات القتال (المشتعلة) تريد الذهاب اليها فوراً ؟
لم يفهم (دنيس) ما اذا كان (كونج) يسخر أم يسأل بجدية ، فأجابه جاداً :
ـ أريد الذهاب فوراً الى (سامنيو) .. هي مسرح العمليات الأكبر والأكثر تعرضاً للقصف كما يقول المراسلون ..
هز (كونج) رأسه بنفس الطريقة المحيرة التي لا يفهم منها (دنيس) هل هو جاد ام لا ، وفي المساء كان (دنيس) في سيارة (كونج) متجهاً الى (سانيو)..
ساحة القتال المخيفة ..

***

في الطريق الى خارج (فيينتيان) شاهد (دنيس) ثلاثة قصور جديدة في طور التشييد .. لكن الفخامة الهائلة كانت بادية عليها ، التفت الى (كونج) متسائلاً :
ـ من صاحب هذا المزاج الرائق الخالي البال الذي يبني قصور شديدة الفخامة وسط الحرب ؟!
ببرود شديد رد (كونج) :
ـ انها قصور جديدة للسادة العسكريين و الحكومة !
عقد (دنيس) حاجبيه متسائلاً في استنكار :
ـ أليسوا مشغولين بالحرب المهلكة ؟
التفت (كونج) اليه بسرعة ليلقي نفس النظرة الغامضة الغريبة ثم عاد يهتم بالطريق مجيباً بنفس البرود :
ـ نعم .. انهم مشغولين للغاية بالفعل !
ولزم الصمت باقي الطريق !

***

عند الوصول الى (سامنيو) تساءل (دنيس) عن مكان المبيت للصحفيين ، للمرة الأولى يضحك (كونج) ثم يصمت دون تفسير .. سأله (دنيس) عن سبب ضحكه فقال ساخراً :
ـ أصلاً لا يوجد أحد هنا شاهد من قبل مراسلين أجانب يا عزيزي !
اتسعت عينا (دنيس) في دهشة وذهول ، تساءل في انفعال :
ـ والمراسلين الأمريكان ؟ انهم دائماً ينقلون أخبارهم من الجبهة ! من سامنيو بالتحديد !
هز (كونج) رأسه هازءاً ثم قال :
ـ الأمريكان كلهم في الفندق الذي أتيت منه أنت في العاصمة ولا يعرضون حياتهم أبداً للخطر ! انهم يتلقون (تقارير الجبهة المشتعلة) من الحكومة وقادة الجيش مباشرة !
ألجمت المفاجأة لسان (دنيس) .. ظل صامتاً حتى توقفت السيارة وسط المزارع والمنازل الفقيرة ..
ترجل (دنيس) من السيارة و راح يطالع المدينة الخضراء الهادئة .. فلاح فقير من لاوس جالس وسط حقل بعيد يتحدث في هدوء وسلام مع أحد الجنود ..
التفت (دنيس) الى (كونج) يسأله في توتر وارتباك :
ـ كونج ! أين الحرب ؟
رسم (كونج) علامات الجدية التامة على وجهه ورد متسائلاً :

- عن أي حرب تتحدث ؟
- !!!

أشلاء

١

من الصعب أن تفهم حمزة !
هل هو شاب ثائر مناضل ضد الاحتلال ؟
هل هو شاب ساخر لا يكترث بأي احتلال ؟
هل هو جاد ؟ اذن ماذا عن ضحكاته الساخرة المجلجلة اللامبالية ؟!!
هل هو لا مبالي ؟ اذن ماذا عن فدائيته المتهورة المجنونة المهمومة ؟!!
من هو حمزة حقاً ؟!

***

في الجامعة الكل يعرف حمزة ..
و الكثير لا يعلم ما هي كليته بالظبط !
تجده واقفاً مع طلبة الآداب .. طلبة العلوم .. طلبة الكليات كافة !
ساخر دائماً .. دعاباته المتتالية مضحكة دائماً ..
ملامحه الوسيمة الطفولية لم يفلح الشارب الأنيق في تخفيفها ..
تميل (عفاف) على صديقتها لتخبرها كم يبدو حمزة وسيماً .. الفتيات يعشقن تلقائيته و لا يجدن فيه عيباً .. حتى تحاشيه اياهن كطفل محرج يزيدهن جنوناً به !
حمزة المحبوب من الجميع ..
هنا تعرف عليه (ابراهيم) .. هنا أصبح صديقه ..

***

في مساء ممطر كان حمزة يصحب ابراهيم عبر طرقات القاهرة الى اجتماع الحزب الذي ينتمي اليه ..
كان ابراهيم بعيداً عن السياسة و قد فوجئ بوجه آخر من صديقه الجديد .. وجه جاد لا يعرفه الكثيرون ..
- الى أين تصحبني يا حمزة .. مالي و مال السياسة يا أخي ؟
- انتظر يا رجل حتى نصل .. صدقني ستتغير حياتك ..
- لهذه الدرجة ؟
- و أكثر .. الأستاذ لا مثيل له في البيان ..
وصل حمزة و ابراهيم الى مبنى ضخم احتشد مئات الشباب حوله ، أثار استغرابه أنهم جميعاً يرتدون قميصاً موحداً فوجئ بأنه نفس قميص حمزة ، كذلك يرتفع على المبنى علم غريب بجوار العلم الملكي المصري الأخضر ..
كان الأستاذ واقفاً في الشرفة و قد بدأ الخطبة .. أنصت ابراهيم اليه متابعاً نظرات الشباب المتحمسة ..
الأستاذ خطيب مفوه بالفعل .. يشهد ابراهيم بهذا .. كان يتحدث عن مكانة مصر في التاريخ .. عن تمازجها مع الدين الاسلامي و قدراتها الفذة به .. عن رغبته في بعث الشباب في مصر كي تنهض من غفوتها و تزيل المستعمر الانجليزي و أذنابه الأوغاد .. الملاعين اعتصروها حتى أصبحت ملامحها عجوز مكرمشة .. لابد من

العمل يا اخواني .. لابد من النظام .. لابد من القسوة على المستعمر و على كل من يسبب عجز مصر .. لابد أن تعود مصر الشابة العفية القوية .. لابد أن تعود مصر الفتاة ..
هنا هتف المئات في حماس مجنون ، لا ينكر ابراهيم أنه تأثر بشدة من الجو الحماسي المشجع على الإندماج في القطيع و كذلك من كلام الأستاذ خاصة و هو يستخدم ملامحه و تعبيرات وجهه و يديه بصورة فنية لا مثيل لها .. لكن ما فعله حمزة من صراخ حماسي مجنون باسم مصر الفتاة أصابه بدهشة بالغة ..
انتهت خطبة الأستاذ و بدأ الكل ينصرف بطريقة منظمة تثير الاستغراب ، كأنهم مجموعة من الجنود المتراصة !
بدأ في السير مع زميله متورد الوجه من الحماس .. سأله عن معنى هذا الذي حدث ..هذا المشهد المسرحي المبهر غير طبيعي ..
رد عليه حمزة بجدية مشتعلة بالحماس :
- ألم تفهم بعد ؟ انني أنتمي الى حزب سيعيد الى مصر فتوتها .. سنجعلها فتاة تسحق المستعمرين .. بالنظام و العمل و الجد و الاسلام سنجعلها الأعلى بين الأمم ..
- ما زلت لا أصدق يا حمزة ! أنت المرح الساخر تفعل هذا ؟
- المرح و السخرية لا يمنعان وجود عقل يقظ و روح ثائرة .. أنتم فقط من لا تعيشون حياة الكفاح الشريف التي تبدأ بنهاية وقت الجامعة ..
- و لماذا أصطحبتني ؟
- كي أطلب منك يا صديقي الانضمام الينا .. يا أخي ان لم ينضم الشباب أمثالك لحزب مصر الفتاة كي يقاوم الغاصب و المستعمر و ينشر الحق و العدل و يقاتل الملك و الرأسمالية و يعيد نشر الاسلام الحق العادل فمن يفعلها ؟
- أنا لا أفهم في السياسة يا حمزة .. و حتى ان فهمت فسأختار الوفد حزب الشعب ..
تقلص وجه حمزة في اشمئزاز و قال :
- الوفد يختار الطريق الذي يحبه الانجليز .. طريق السياسة و التفاوض .. هم من سمحوا له بهذا التضخم .. هم من اختاروه عدواً .. مادام لابد من أن يكون في عبيدك عدو .. فانتق منهم العدو الهادئ العاقل التفاوضي .. و اسحق عدوك الثائر الحر الذي لا يهادن .. هذه هي الحقيقة التي لا تتفطن لها جموع الدهماء ..
قال ابراهيم في ارتياب :
- معنى هذا أنك لا تتفاوض و لا تريد السياسة ؟
- الى الآن نلعب سياسة حتى الوقت المناسب .. في نفس الوقت ننشئ جيشاً .. الأستاذ أحمد قام بتوحيد الزي و توحيد الراية و النشيد .. آه لو رأيت صور هتلر زعيم المانيا التي جعلنا الأستاذ نقرأ الكثير و الكثير عن تجربتها مؤكداً أن بسياسات هتلر هذا وحده تخلصت ألمانيا من مستغليها الإمبرياليين الأوغاد مستعيدة شبابها متخلصة من قادتها الرأسماليين الجشعين .. ان هتلر هو المثل الأعلى الذي نتمنى الوصول الى تجربته الناجحة في النهوض بألمانيا .. طبعاً بعد تهذيب فلسفته كي تلائم اسلامنا و بلدنا ..
- والملك ؟
- ملك ؟!! اذن تبيت معي الليلة ! هناك الكثير و الكثير نحتاج للتحدث فيه !
***
تعرف ابراهيم على الجانب الآخر المسائي لحمزة .. يعترف بأن صديقه لا مثيل له في الفصل بين الشخصية المرحة الجامعية و بين الشخصية السياسية الثائرة الجادة ..
انه منخرط في عمل دؤوب .. توزيع منشورات .. تعلم تدريبات القتال .. تعلم الوقوف في طوابير عسكرية نظمها لهم الأستاذ أحمد حسين بمساعدة بعض أصدقائه من الضباط المؤمنين به و بحركته ..

و لم يظهر هذا الجانب الخفي جامعياً الا في يوم عصيب !

***

الجامعة كلها تغلي ، المظاهرات مندلعة في كل مكان ، أحزاب الأقلية المرتبطة بالملك و الجيش الانجليزي تدبر انقلاباً آخر على حزب الوفد صاحب الشعبية الكبرى في مصر ..
البوليس التابع للانجليز و الملك يحاصر الجامعة ، حكمدار القاهرة نفسه يقود القوات المقتحمة التي تضرب الطلاب لتهدئ ثائرتهم !فلتكونوا دواجن يا حمقى و لا تقحموا أنفسكم في سياسات السادة !
تحذيرات البوليس متتالية كي ينفض الجمع و تتوقف المظاهرات .. الطلبة يسبونهم و يخبرونهم أنهم لو كانوا رجالاً حقاً لانضموا اليهم ثائرين على قادتهم الانجليز .. البوليس يثور و الضباط يطلبون من عساكرهم البدء في الضرب و تفريق المظاهرات بخراطيم المياه ..
هنا انقلب المشهد الى جنون مطلق .. المياه المتدفقة العنيفة تغمر الطلاب بينما البوليس المتمرس اختار أماكن تمركزه في مخارج الساحة الجامعية متسلحاً بالهراوات ينهال بها على الهاربين من تدفق المياه و قنابل الصوت التي زودها بهم الانجليز لتفريق الشغب ..
الكل يركض .. البعض يشتبك في جنون ..
هنا فوجئ الجميع بأغرب مشهد رأوه يومها !
حمزة قام بضرب ثلاثة من الجنود آخذاً منهم خرطوم المياة الرئيسي .. فجأة ظهرت روح قتالية لا مثيل لها انفجرت كقنبلة ظهرت من العدم !
و كأنما ليزيد المشهد غرابة ، وجه حمزة خرطوم المياة نحو الجنود و الضباط فراحوا يركضون هم في ذعر !
المدهش هو رد فعل حمزة وسط هذا المشهد العصيب !
لقد فقد قدرته على تمالك نفسه و قوات البوليس تهرول أمامه فراح يضحك بلا انقطاع !
ضحك متواصل و زملاؤه يراقبون هذا الثائر المدهش في ذهول ..
الثائر الضاحك ..

***

هكذا أصبح حمزة نجم الجامعة ، أصبح هو الرمز الثائر كما كان الرمز الساخر ..
و مع نهاية العام فوجئ ابراهيم بقرار صدمه و صدم كل الجامعة ..
حمزة الثائر حول أوراقه الى الكلية الحربية !

٢

في البداية لم يكن بأثقل على نفسه من الوقوف تعظيماً لقائد الكلية الحربية الانجليزي!
في الأيام الأولى لحمزة كان هذا الأمر يقتله قتلاً .. هو الثائر المناضل يقف بهذا الذل أمام الانجليزي الغاصب المتعجرف ؟!
لكن الأيام تمر .. تتكون صداقات .. رهبة الجو العسكري الجديد تزول و طبعه المرح يبدأ مرة أخرى في الظهور .. يهون الأمر مع الأيام و مع تشربه (روح الجندية المطيعة الحقة) المهندسة بدقة لتغيير أشد العقول و النفوس حرية إلى ترس في آلة كبرى ..
يتعلم روعة إعطاء الأوامر و بريق السلطة التي تثيرها نجومه النحاسية .. يسير في الشارع متباهياً بشرائطه الحمراء على بذلته وبداخله عجب و فخر مما آل اليه .. الآن هو (مشروع سيد) من سادة المجتمع .. هذا الشعور المذهل بالقوة و بأن لا أحد في مصر قادر على أن يؤذيه الا قادته .. انه في الجيش الآن .. الموطن الحقيقي للسلطة و المختبئ دائماً في استرخاء خلف المشهد المسرحي المبهرج لأهل السياسة !
كان في البداية بداخله حزن لإنتقاله الى الكلية الحربية من فرصة هائلة مفاجئة جاءت لوالده .. شعر وقتها بأنه انتهازي خان مباده عند أقرب فرصة للرقي المغري .. لكن مع الأيام هدأ روعه نظرات الأعين المنبهرة الخائفة المنكسرة ..
ياللقوة و يا للعظمة .. متضايق يا حمزة من العسكري الانجليزي ؟ مع الوقت ستتعلم أن هذا الانجليزي قائد مثل أي قائد .. عليك اطاعة أوامره بلا تفاهم .. في الكلية تتعلم أن الأمر أكبر بكثير من أن يفهمه الشعب الأحمق .. من يقدر على انجلترا ؟!
ثم بدأ الأمر يهون في نفسه عندما رأى أحد الضباط الانجليز يحيي الملك الصغير تحية عسكرية ، شعر بروحه المعنوية ترتفع لعنان السماء و قد حسب نفسه حسم كل التناقض النفسي بداخله .. اليس الانجليز يطيعون الملك ؟ اذن فملك مصر حر مستقل ! فقط الرعاع السياسيون لا يفهمون هذا لأنهم منشغلون بالمغانم و الصراع على مقاعد البرلمان ! أو ربما يفهمونه لكنهم يرفضون توضيحه كي يستمر تلاعبهم بالمدنيين !
هكذا حاول اراحة ضميره بتفسير تافه ساذج بعد عناء طيلة الدراسة .. وبالتالي أصبح يؤدي التحية لقائده الانجليزي بأريحية .. بل إنه قد راح يسأل نفسه كيف كان يسمح يوماً للسياسيين الأوغاد بالتلاعب به ؟!
كانت الأمور تسير بهدوء بعد تخرجه .. طباعه المرحة مستمرة لكنها أصبحت مغلقة على أقرانه الضباط فقط .. لقد تعلم أن يحدث المدنيين بوجه جاد لا يعبث بينما لا تظهر شخصيته الحقيقية الا بين السادة .. بين اخوانه الضباط !

***

بداخله صراع مرير يتجاهله لكنه لا يزول ، صراع يبدأ بسؤال :هل كان ثائراً حقاً ؟ هل كان في صف الشعب حقاً ؟
ما هو الآن الا واحداً من (السادة الضباط) أعوان الانجليز لضبط مصر .. هذه الحقيقة العارية و مهما كذب على نفسه فهو غير قادر على تصديق الكذبة لفجاجتها !
لقد كان بداخله ثائر حولته خدمة المستعمرين رغبة في السيادة الى مجرد أشلاء ثائر !
يخونه قلبه في لحظات نادرة فيحدث عقله بيقين أن هناك شلو ثائر هنا أو هناك باقٍ ، فهل ينمو من هذا الشلو ثائر كبير ، أم يستمر التمزق إلى قطع أصغر ؟!

***

بدأت المأساة بمزحة !

في إحدى الحفلات ، داعب حمزة زميليه فأخرج أحدهم مسدسه ، راح يهدده ساخراً .. هكذا سحب حمزة سلاحه الفارغ يأمره بتسليم نفسه و الا قتله .. نهض الآخر الغير مسلح يركض ممثلاً الهروب فهرول حمزة خلفه في الشقة ..
وسط الضحكات العالية من الجميع قام حمزة باطلاق مسدسه الفارغ نحو زميله كي يوقفه تمادياً في التمثيل ..
دوى الصوت المرعب مسبباً الفزع في القلوب قاتلاً الضحكات وسط رائحة الموت المتصاعدة في شكل دخان البارود ..
سقط الزميل و رصاصة مسدس حمزة قد اخترقت يافوخه مباشرة !!
لقد كان المسدس فيه رصاصة أيها الأحمق ! أيها المجنون ! أيها التعس !
القلب نفسه في حالة ذهول و يأس من القادم ..

***

سنوات و هو يعالج آثار هذه الحادثة ..
أثبت الجميع خطأه نعم لكنهم كذلك أثبتوا خطأ الآخر و القالب المزاحي الثقيل ..
قتل خطأ .. نجاه الأمر و ان كان لم يقبل أهل القتيل هذا الا بعد سنوات ..
لكن روحه مرضت و تلوثت .. هناك شئ ما تغير ..
الأشلاء تزداد تبعثراً بداخله !
قلبه المريض المشفق يخاف إجابة السؤال ، لكن عقله الصارم يحسم الأمر : نعم أنت مستمر في التحول إلى أشلاء متناثرة صغيرة !

***

كان لابد من شئ يطهر نفسه .. كان لابد من محاولة أخيرة لمعالجة الأشلاء المتبقية قدر الإمكان ..
هكذا عندما بدأت حركة الضباط الأحرار السرية انضم اليها ..
انه بحاجة الى أن يثبت لنفسه أن الثائر لازال حياً .. بحاجة الى صنع المعجزة و بعث الروح في الأجزاء المتناثرة بداخله ..
لهذا كانت أعظم لحظة في حياته يوم نجحت الثورة و طُرد الملك ..
الآن شعر بأن الثائر أصبح هو السيد الحقيقي و لا تعارض .. الآن أصبح في قمة المجد الجامع بين هيبة الحكم و هيبة الجيش و حب الشعب و لقب الثورة ..
أقسم على نفسه ألا يسمح لكائن كان بالمساس بهذا الوضع الجديد ..لقد قام بالمعجزة و حلت عليها البركة الإلهية بنجاح الثورة ..
لن يسمح لحزب ولا لفريق أن يخطف منه قمة المجد أبداً ..
وبرغم أن مجلس قيادة الثورة كلفه بادارة السجن الحربي الكئيب بعيداً عن مشهد الحكم المحجوز للكبار ، إلا إنه مع ذلك اعتبرها الفرصة المناسبة ليثبت أن السجن الحربي سيكون هو درع وسيف النظام الجديد ..
انه يعرف عقلية زملاءه العسكر .. و يعرف أنهم جميعاً يرفضون المعيشة دون سمع و طاعة من هو أدنى بلا نقاش و لا رد .. و في عرف العسكريين السري فالمدنيين جميعاً هم رتب بين العسكري و أصغر رتبة ضابط !
أي أنهم سيضيقون يوماً لا محالة بالنقاش و الاعتراض الذي تعود عليه هؤلاء الرعاع و سيلجأون للسجن و قمع أي منافسة على السلطة والمجد ..
سيلجأون لمدير السجن الحربي .. سيلجأون لحمزة البسيوني ..
وقتها سيحول نفسه الى رجل ينافس نجيب و ناصر في النفوذ ..
فقط الصبر الصبر ..

في ظلام تلك الليلة من عام ٥٣ تسلقت مجموعة من ضباط الشرطة و الجيش أسوار المقر العام لجماعة الاخوان المسلمين في حزم صامت مدجج بالسلاح ..
انهم من (قسم الوحدات) في جماعة الاخوان المسلمين وقد قرروا احباط الانقلاب الداخلي على الهضيبي ..
تم الإقتحام .. صالح عشماوي الزعيم التاريخي قائد الانقلاب تم التمكن منه و باقي الاخوان المشاركين ..
رؤوس كثيرة ستطير بالتأكيد .. ستبدأ بعشماوي و السندي و لن تنتهي بالشيخ محمد الغزالي !
لقد أحبط قسم (الوحدات) المسلح ذلك الانقلاب العسكري السلمي الذي قام به التنظيم الخاص ..
بعد أيام قليلة فُصل الجميع و اعتقد مكتب الارشاد أن الفتنة قد انتهت .. بعودة الهضيبي و تصفية التنظيم الخاص و طرد القادة الكبار المدبرين مثل العشماوي و السندي و عادل كمال و الغزالي خلصت جماعة الاخوان للجناح المؤيد للعلنية الكاملة و رفض وجود مخلب جهادي سري في الاخوان ..
لقد أصبح الهضيبي زعيماً منفرداً للتنظيم العلني و نجح في فرض رأيه بوقف التنظيم الجهادي الخاص ..
لكن الكارثة الحقيقية وقتئذ كانت تخرج من المهد ضاحكة في سخرية ..لقد ساعدها هؤلاء بغفلتهم !

***

هكذا جاء عام ٥٤ الرهيب !
الاخوان قاموا بالقضاء طواعية على مخلبهم و أصبحوا تنظيماً علنياً معروف الأعضاء .. كانوا يحتفلون بهذا الأمر برغم علاقتهم المتوترة بعبد الناصر ظانين أن ما فعلوه هو الصواب ..
لكن ما جاء بعد ذلك أثبت لهم أن ما فعلوه كان أكبر خطأ في تاريخهم !

***

ناصر يقضي على محمد نجيب و يتخلص منه بالإعتقال بعدما كان رئيساً للجمهورية ليصبح هو الزعيم الأول توطئة ليصبح الزعيم الأوحد !
ناصر يقضي على القضاء بعدما حاول القضاة إعادة الحياة الحزبية رغم رفضه .. قام بضرب كبير القضاة المصريين عن طريق عساكره كرسالة بليغة لكل من هم أقل منه مكانة .. هكذا ينتهي دور القضاء مبكراً !
ناصر يبدأ في احالة السياسيين المصريين المؤيدين والمعارضين للملك قبل الثورة الى محاكمات سياسية و يجعل عساكره يضربون أحمد حسين الزعيم السياسي الذي كان قائداً لحزب مصر الفتاة يوماً !مدهش أن حمزة مر على هذا الخبر بلا تأثر برغم حبه الجنوني له سابقاً ! كان يعتبر الرجل مسئولاً بشكل ما عن التمزق السابق !
ناصر يقبض على البلد كلها بيد من حديد .. يقضي على كافة الاصوات المعارضة مهما كان مقدار خفوتها ..
عام ٥٤ يشارف على الانتهاء و قد أنجز فيه مالم يستطعه الآخرون في عشرات السنين ..
لكن تبقت عقبة واحدة استبقاها للنهاية ..
جماعة الاخوان المسلمين ..

***

كان (حمزة) يراقب ما يحدث بنفاد صبر .. القادة الكبار يزدادون سيطرةً على مصر كلها يوماً بعد يوم حتى صار كل منهم يملك قوة لم يحلم بها الملك ذليل الإنجليز نفسه يوماً !
الكل أصبح يعرفهم .. الكل أصبح يخشاهم ..
لكن من الذي يعرفه هو ؟ متى يحصل على القوة و النفوذ و هو مدير لهذا السجن الحربي يعاقب العساكر المتمردين فقط ؟ هل كانت حساباته بشأن هذا السجن كفرصة صعود متفائلة فوق اللازم ؟!

لكن فجأة جاءته الفرصة على طبق من ذهب ..
ناصر قرر القبض على جماعة الاخوان المسلمين ..
و آمن حمزة بأن الطريق قد تمهد له أخيراً ..

*****

لم يستغرق القبض على الجماعة الا وقت قصير !
لقد كانوا قد أعلنوا كافة أسماء الأعضاء و جعلوا مقراتهم علنية .. هكذا كان التحفظ على كافة المقرات فالقبض على جميع اخوان المنطقة المسجلة أسماءهم في الدفاتر العلنية سهل يسير !
لقد تسببت الفتنة في كارثة لم تتخيلها الجماعة اطلاقاً !
ناصر لم يعد يهاب الاخوان المسلمين منزوعي المخالب !

*****

فتل حمزة شاربه الكث بينما على وجهه ابتسامته الغامضة الساخرة ..
كان واقفاً على باب زنزانة الهضيبي الرجل العجوز الذي انكمش على نفسه في آخرها و على وجهه نظرة مهزومة ..
كانت الزنزانة و اسعة ليس فيها بشري سوى الهضيبي .. و خمسة عشر كلباً من كلاب السجن !
المشهد مخيف بنباحهم المجنون و تبولهم و تغوطهم و استمناءهم على الشيخ كأنما هم يتآمرون مع البسيوني لتعذيبه ..
ساخراً قال له :
- ما رأيك يا ولد يا هضيبي ؟ هل تعجبك الاقامة هنا في زنزانة الكلاب الأمراء ؟
نظر العجوز حوله بلا تعليق بينما طوح حمزة رأسه الى الوراء يقهقه .. علام يقهقه ؟
لا يدري أحد ! انه يسخر طوال الوقت و لا يفقد روحه المرحه اطلاقاً !
- ألا تصدق أنهم أمراء ؟! أتدري يا ولد أن الجنود الأربعة القائمين على رعاية هؤلاء الكلاب هم من خريجي كليات كبرى !
ثم نادى على المجندين الذين امتثلوا أمامه صاغرين و هو يأمرهم بأن يذكروا كلياتهم أمام الهضيبي .. فقال كل منهم بصوت مرتعش :
- آداب .
- طب .
- علوم .
- هندسة .
- وما مصير من يجروء منكم يا أوباش على أكل نصيب الكلب الذي يخدمه من اللحم ؟
تحسسوا جميعاً أقفيتهم و ظهورهم في صمت فالتفت البسيوني الى الهضيبي مكملاً بطريقة جادة هزلية :
- يا هضيبي قد نلت شرف الاقامة مع تلك الكلاب الرفيعة في زنزانة واحدة .. اياك يا رجل أن تتجرأ يوماً و تحاول مس نصيبها من اللحم ! أقسم أنها هائجة و سأجعلها تغتصبك قبل أن تأكلك !
لم يرد الهضيبي فظل حمزة واقفاً يتطلع اليه في صمت متحفز منتظراً أي بادرة اعتراض ليأمر جنوده حاملي الكرابيج بعقاب الرجل ..
لكن العجوز نال كفايته منذ اعتقل .. التعذيب الوحشي المستمر جعله يعرف أن من الحكمة الصمت و قد قيل الكثير و الكثير سابقاً بلا جدوى ..
في النهاية دار حمزة حول نفسه مغادراً الزنزانة .. الى زنزانة أخرى ..

كان بداخله ضيق لأن الهضيبي لم يعطه الفرصة للتحدي المناسب .. لذا فما ان دخل زنزانة أحد القيادات حارة الدماء حتى سبه بأمه : قم يا بن العاهرة !
انتفض الرجل قائماً في غيظ و هو يعلم ما سيحدث له ، لكن لم يستطع باقي اخوانه إيقافه !
انهال العساكر عليه بالكرابيج و الشوم بينما حمزة يضحك في سادية .. غادر الزنزانة بعدما أشار للظابط الجلاد الخاص به أن يجلد جميع المسجونين ٥٠ جلدة هذه الليلة بلا سبب كالمعتاد !
تحرك عبر الممرات مع ثلاثة عساكر نحو مكتبه يتفقد غرف التعذيب ، كانت هذه مقامة على الجانبين معلق في بعضها رجال بالمسامير في الحوائط ، في البعض الآخر كانت مجموعة من العساكر يمارسون رياضة اخترعوها بجر أحد المساجين بالحبال المربوطة في خصيتيه .. هناك في غرفة ثالثة بضع مساجين معلقين من أرجلهم في السقف و يقوم العساكر بغمس رؤوسهم في براميل مليئة بالغائط بصورة دورية ..
وقف على باب احدى الغرف حيث كان أحد المعلقين منذ فترة قد أمتلأ جسده بالدود الذي راح يعبث في جروحه التي سببها الجلد المستمر ..
سأل العساكر المسئولين عنه عما اذا كان اعترف بأي شئ ..
- لا يا فندم .. يصر أنه ليس له علاقة بالاخوان !
نظر البسيوني الى الرجل الذي بين الحياة والموت ثم قال ببطء :
- لن يكذب أحد في هذه الحالة من التعذيب .. أنتم تضربونه منذ عدة أيام ..
ثم التفت اليهم آمراً :
- انه برئ .. ادفنوه في ساحة الموتى فاقدي الأهلية !
لم يندهش العساكر على الاطلاق بل قاموا بانزاله و التحرك به فوراً ، تحرك البسيوني مع مرافقيه حتى المكتب و دخل ليجلس عليه مفكراً ..
هل كان أحد ليصدق ما آل اليه ؟
هل يصدق هو نفسه ما يفعله ؟
لكنه يعرف ما يفعله فعلاً ..
يعرف أنه يضرب عدة عصافير بحجر واحد ..
انه يصبح الرجل المرعب ذا الصيت في بر مصر كلها .. أكثر صيتاً و ارهاباً من مجلس قيادة الثورة نفسه !
سيخاف المصريون اسمه بأكثر مما يخافون اسم صلاح سالم أو اخوه جمال .. سترهبهم ملامحه الوسيمة بأكثر من ملامح ملك الموت نفسه !
ثم انه سيصبح يد النظام الباطشة القذرة التي لن يستطيع التخلي عنها أبداً ..
لقد قرر حمزة أن يجعل من نفسه اسماً مرعباً مرادفاً لإبليس .. إن لم يستطع أن يضع اسمه بجوار القديسين فليجعل اسمه مخيفاً حتى للشياطين !لقد تجمعت الأشلاء و هو يقنع نفسه بأنه ثائر الآن و هؤلاء أعداءه و لن يسمح لهم بتمزيقه مرة أخرى ..
سيحول السجن الحربي الى هيدز الاغريقية .. و سيصبح هو رمز الشيطان الذي يهابه ناصر نفسه لو أمكن !
هكذا قرر في صرامة منذ فترة .. و هكذا قتل من قلبه أي شعور بالتسامح أو التعاطف .. هو الآن في طريق طويل لبناء جهنم على الأرض .. و لن ينجح في هذا الا اذا أصبح التعذيب على يديه اسطورة لا مثيل لها على الاطلاق .. قلبه مشمئز قليلاً غير راض عن التحول إلى سفاح محذراً من تمزق البشرية ذاتها بداخله .. لكنه يعاقبه أشد عقاب بتعمد تحطيمه و نزع أي تأثير بداخله ..
لهذا يتفنن في التعذيب .. اغتصاب نساء و رجال .. قطع الاوصال و الاطراف .. كل هذا سيفعله بأكثر الطرق ايلاماً ووحشية .. انه يمزق روحه البشرية ذاتها هذه الأيام .. و هو مدرك جداً لما يفعله ..

ان ناصر ديكتاتور .. و سيحتاجه بشدة ..
و هو ينوي أن يكون الشيطان الذي يخافه أعداء ناصر و أصدقاءه ..
و ناصر نفسه إن أمكن !

٤

أربع وخمسون .. خمس و خمسون .. ست و ستون !
الآن نجح حمزة في تحقيق ما سعى إليه طوال العقد الأخير .. أصبح كبير ملوك جهنم الأرضية ..
صحيح هناك شمس بدران وزير الحربية الأسطوري في الإجرام الممنهج و التعذيب الدموي .. و صحيح هناك صلاح نصر رئيس المخابرات المخيف صاحب أبشع أساليب التعذيب التي نقلها من النازيين .. لكن أيا منهما لم يصل الى حمزة و مكانته في العالم السري !
أصبح حمزة يؤمن أنه هيدز الإغريقي إله جهنم بلا منازع .. انه يأمر بضرب أحدهم مائتي جلدة لا لشئ سوى لأن مزاجه متعكر قليلاً ! يفتل شاربه باتجاه فيفهم الحراس أن المعتقل الواقف أمامه سيتمر ضربه عدد مرات معين بالكرباج .. يفتله في اتجاه آخر فيتغير العدد .. وهكذا !
كم من شاب أمر بنزع مكامن رجولته فقط لأن وجهه أظهر صموداً ضد التعذيب أو لمح فيه اهانة لذاته السامية !
هذا اليوم كان عائداً من قريته .. دخل السجن فنادى بأعلى صوته على أحد المساجين الواقفين في طابور التذنيب .. هرع اليه المسجون فوراً .. قال له حمزة بنفس اللهجة الساخرة الملازمة له دائماً :
- ابوك يا ولد طلب من أبي في القرية أن أترفق بك .. هل أنا ممن تجدي معهم الوساطات يا حيوان ؟!
ثم التفت الى حراسه هاتفاً :
- اجلدوه مائتي جلدة فوراً !
راح الشاب النحيل يصرخ متضرعاً لكن الحراس شدوه بقسوة الى احدى غرف التعذيب .. تحرك حمزة أمام الطابور ليتفقده .. كانت هناك مجموعة من الاخوان يعتبرهم النظام خطراً مثل سيد قطب و رفاقه .. تجاهلهم حمزة الآن فقد علم أن النظام قرر تصفيتهم و هم منهكون منذ سنوات عديدة في أغلال الاعتقال و نار التعذيب..
انه يبحث عن مجموعات جديدة ممن يحتاجون لمزيد من (التربية) و (التأديب) !
يريد أن يُبدع - بخبرته الواسعة - في تعذيب البشر و ابقائهم على قيد الحياة في نفس الوقت ..
هكذا انتقى مجموعة من الاخوان الجدد و أمر الحراس بسحلهم على الأرض الى غرفته المفضلة ..
لقد انتقى الذين سيسهر عليهم هذه الليلة !

***

هل كان حمزة مؤمناً حقاً ؟
لطالما تسائل هو نفسه عن هذه القضية !
صحيح أن كافة المسجونين كانوا يؤمنون يقيناً أنه مجرم كافر تجاوز منذ عهد قديم كل ما سمعوا عنه في الطغيان البشري .. لكن من داخله كان يسأل نفسه بالحاح عن علاقته بالإله !الآن لا شئ لديه سوى العقل المتسائل فقد تحول القلب نفسه إلى أشلاء منذ زمن !

انه ليس حيواناً بلا عقل كما يظنون .. انما هم فقط للأسف كانوا مجرد وسيلة لتحقيق حلم داخلي عنده .. حلم أن لا يكون مجرد بشري شرير أو شيطان .. بل أن يكون مرادفاً نقياً متجاوزاً لمعاني القسوة .. يريد أن يكون (ضد الاله) ، كما آمن الايرانيون قديماً بقوتين متناحرتين في الكون هما الخير والشر .. إنه يقدس هذه العقيدة التي طورها بداخله .. لذا كان يسعى لأن يصبح رمزاً للشر النقي .. الأسود القاتم .. ماذا فعل راسبوتين حتى يتفوق عليه ؟ ماذا فعل هملر ؟ انه تجاوز كل هؤلاء الحمقى منذ زمن ! مصر كلها الآن بكل أطيافها السياسية و الاجتماعية ترهبه أشد من الموت !

لقد آمن بأن الله إن وجد في السماء فعلاً .. فهو في المقابل إله هذه الأرض التي حولها لجحيم .. تماماً كما فعل النصارى المؤمنين بأن الشيطان ملك الدنيا و الله ملك السماء !عبر منذ زمن طموح مشاركة ناصر الحكم ، عبر منذ زمن طموح بناء ذات ثورية ، عبر منذ زمن طموح كونه بشري صالح ، بل إنه عبر منذ زمن طموح كونه بشري أصلاً !

لهذا كله يمكننا فهم ما بدأ يردده هذا العام أثناء تعذيب الاسلاميين ..

" لو نزل ربكم من السماء لوضعته في القيود و عذبته معكم !"و " أتصرخ منادياً ربك ؟ ألا تدري أن الله مسجون في الزنزانة المجاورة ؟! "

هكذا كان يقول حمزة ساخراً بينما من أمامه يتم تقطيع جسده ..

حمزة الآن يؤمن فعلاً أنه أكبر من مجرد مدير للسجن الحربي ..

حمزة الآن هو مدير للجحيم و إله ضد الاله ..

لقد تحقق حلمه الأكبر ..

هكذا كان يجلس في مكتبه آخر اليوم وحيداً يربت على ظهر كلبه المفضل متأملاً لفترة طويلة بينما أصوات المعذبين ترج المعتقل ..

في النهاية قال لنفسه بحسم :

- لا وجود لإله .. فان وجد فهو يخافني و لا أخافه !

***

سبعة وستون .. مصر تلقت ضربة قاصمة مهينة .. الجيش الذي تجبر على شعبه تم سحقه بلا رحمة من اليهود أجبن جنود الأرض !

بدأ ناصر في التخلص من الحرس القديم المحيط به .. أو كما يقول العامة (البحث عن كبش فداء) !

هكذا وجد حمزة نفسه في لحظة جنون واقفاً في قفص الاتهام بينما قضاة المحكمة العسكرية يتهمونه بتعذيب المواطنين في العهد البائد !

صرخ مندهشاً .. صرخ غاضباً .. إله الشر لا يُسجن .. إله الشر لا يسقط ..

لكن صرخاته لم تتجاوز شفتيه !

بل العجيب أن جسده كان يرتجف بلا توقف ! صلاح نصر سيحاكم في الجلسة التالية .. شمس بدران يقف معه في القفص عاقداً حاجبيه في صرامة يخفي بها الغضب المجنون بداخله .. المشير انتحر و هو أكثر من غيره يعلم أن المشير عاشق الدنيا مستحيل أن ينتحر !

النظام قرر التخلص منهم جميعاً .. وجد نفسه فجأة مجرد بشري يتم التضحية به .. بل هو مجرد كبش يفتدي به عبد الناصر نفسه !

لم يكن يتخيل هذا الإنقلاب الجنوني !

إن كان مجرماً حقاً فعبد الناصر هو زعيم المجرمين ! هو قائد الجيش و قائد السجن و قائد المخابرات ! هو صلاح نصر و شمس بدران و عبد الحكيم عامر و حمزة البسيوني ! لماذا يضحك الشعب الغافل فرحاً بمحاكمة أفراد العصابة بينما زعيم العصابة المهزوم المسعور يلقي كل التقدير و الحب ؟!
أي جنون ؟!
انتهت المحاكمة الصورية بسجنه .. تحرك في بطء فجذبه عسكري صغير السن من قفاه بغلظة هاتفاً في صرامة :
ـ تحرك يا كلب !

***

في السجن الحربي قضى وقته في زنزانة مجاورة لزنازين الاسلاميين ! كان صوت دعاؤهم عليه يصله طوال الليل فيحرمه النوم ..
كان في حالة غريبة ! إله مذبوح ؟!
اكتشف أنه مجرد كبش .. حيوان .. لا الوهية و لا شئ !
هكذا بدأ يكيف نفسه بصورة غريبة ! بجرأة عجيبة مزق الإله الداخلي الى أشلاء ليلحق بأشلاء الثائر القديم ..
الآن هو حيوان و سيتصرف كالحيوان !
في اليوم التالي فوجئ به المساجين يرجو العساكر الصغار متزلفاً أن يقوموا باعطاءه برتقالة ! قطعة لحم !
فوجئوا به يركض مهرولاً في ذعر و خوف ان أمره أحقر عسكري في السجن بأن يسرع الخطا لأمر ما ! يزداد حيوانية و عبودية لأحقر حقير في السجن من أجل خدمة لا تذكر !
أراد الكثيرون فعل الأفاعيل به إن واتتهم الفرصة .. لكن مشهده الحيواني الذليل العجيب كان يصدمهم و يثير اشمئزازهم فيرحلون عنه في صمت !

***

مات ناصر .. خرج حمزة من المعتقل أخيراً .. استعاد بعض آدميته و راح يفكر في عشرات الفرص المتاحة للتعاون مع النظام الجديد .. لن يصبح إلهاً مرة أخرى بعدما علم موقعه الحقيقي من السلطة .. لكنه أمل أن يرهب بعض الفلاحين بنفوذه القديم و أصدقائه المنتشرين في مراكز عليا .. انه كائن طفيلي قادر على النجاة دائماً ..أشلاء الثائر اختفت و أشلاء الإله انتهت و أشلاء الحيوان لابد أن تنتهي .. سيبني نفسه من جديد ..
استقل سيارته هذا اليوم في طريق الاسكندرية القاهرة مع أخيه .. كان يفكر في الكثير و الكثير .. يفكر في أن الله لم يهزمه برغم كل شئ ! ها هو مرة أخرى يعود الى الحياة معه ثروة تكفيه للبدء كرجل أعمال أو ربما خدمة النظام الجديد .. في مصر يغفر الجميع لك الكثير بشرط أن تكون زعيماً معروفاً و تجيد اللعب بالعواطف .. و هو قد قرر البحث عن الزعامة في مضمار جديد ..
كان يفكر و يفكر .. لم ينتبه لسيارة نقل الحديد التي كانت تسير أمامه و التي اقترب منها بصورة خطيرة ..
فجأة أفلت الزمام من يديه بدون تفسير .. السيارة التي أمامه تقف فتنهمر أسياخ الحديد على سيارته لتخترق جسده و جسد أخيه ..
لم يفكر و لم ينطق كثيراً .. اخترق سيخ غليظ رقبته و نفذ من الجهة الأخرى ..

***

تجمع العشرات من الأهالي الجزعين .. كان حمزة يخور كالثيران بينما يتدفق الدم من فمه بغزارة متتالية ..
المشهد مؤلم و عجيب .. في النهاية همدت جثته بعدما وصلت الاسعاف .. حاولوا تخليص جثته من الأسياخ فلم يقدروا على ذلك الا بقطع رأسه و بعض أجزاء من جسده .. لقد تحول الى أشلاء حقيقية هذه المرة !
فجأة دوى صوت عجوز من الذين اعتقلوا قديماً يصرخ في جنون :

- يا ألطاف الله .. يا ألطاف الله .. هذا رأس حمزة ..
هذه أشلاء حمزة البسيوني ..
يا الله .. يا الله ..
و بين نظرات الواقفين المذهولة انهمرت دموعه و هو يقول في انهيار رافعاً رأسه للسماء :
- أنت الواحد المنتقم .. أنت الواحد المنتقم ..

الثيوقراطور

اتصل الشيخ نفسه بي في هذا الصباح !
لقد قرر أن يضمني الى مجموعة من الاخوة يقومون على حمايته وحماية حركته (نداء الاسلام) .. وهؤلاء الاخوة هم المجموعة المقربة منه ..
سيتاح لي ، وللمرة الأولى .. القرب الشديد الملاصق للشيخ ..
كنت في حالة من النشوة لا مثيل لها .. كدت في غمرة نشوتي أن أرقص لولا انني استغفرت ربي على تفكيري هذا ونبهت نفسي : هل كان الشيخ ليرضى عن مسلكك هذا بالرقص ان رآك ؟
استغفرت ربي مرة أخرى وجلست أقرأ القرآن ليهدأ روعي ..

***

ان الشيخ هو أول من تعلمت ديني على يديه ، انه مرب فاضل ، غزير العلم فقيه وعالم نحرير ، يعتبره أهل الأرض علامة عصره ، منذ صغره وهو يعمل للدعوة الاسلامية بكل قوته ، سجن مرات واعتقل مرات وصمد أمام الطواغيت مرات ومرات ..
محب للحق والعدل .. لا يخاف فيهما لومة لائم .. لامثيل لشيخي في زمني .. يعترف بهذا الأعداء قبل الأصدقاء ..
واليوم يختارني شيخي (حفظه الله) لأصبح من الدائرة المقربة ؟!
يا الهي الرحيم .. اللهم قوني على هذه المهمة الصعبة .. أن أكون أهلاً لملازمة الشيخ العظيم ..

***

دخلت الى المسجد خلف الشيخ ، قمت بابعاد الاخوة المتحمسين بغلظة ، ان الشيخ لن يتحمل هذا التدافع المجنون ، أظهرت الحزم مع من رأيتهم يتجاوزون الحدود ، لكن شيخي نظر لي في صرامة وأمرني ألا أتجاوز في حق هؤلاء ..
في ثوان شعرت بالرعب من غضبته .. هلل المحيطون بنا من أدب الشيخ وشعرت أني أخطأت في حقه وحقهم ..
تمنيت أن تبتلعني الأرض ، لكن الشيخ ربت على كتفي وواساني وأفهمني بهدوء أن ما فعلته خطأ .. لكنه ليس غاضب مني .. في ثوان راح الضيق .. العلامة الحنون .. الأب العظيم .. هذا هو شيخي ..

***

كان موضوع الخطبة اليوم عن مقومات الدولة الاسلامية وصفاتها ، أوضح الشيخ أن الاسلام ليس فيه دولة (ثيوقراطية) .. وهي الدولة الدينية التي يحكمها ويتحكم في مفاصلها القساوسة أو الشيوخ .. فالشيوخ في الاسلام هم بشر مثلهم مثل غيرهم .. لا قداسة لأحد .. لا حرمة لانتقاد أحد ..
كانت عدسات كاميرات التلفاز تنقل الخطبة على الهواء مباشرة لبلدي كلها .. لا أعرف لماذا شعرت أن الشيخ يحدث العدسات قبل أن يحدثنا ! لكني استغفرت ربي على هذه الخاطرة الخبيثة واستمررت في الاستماع الى الخطبة مبهوراً ..
نحن لسنا دولة ثيوقراطية .. نحن دولة اسلامية ..
هكذا يجب أن نؤمن جميعاً .. وعلى هذا الأساس سنعمل ..

***

كانت البداية عندما سقطت في يدي هذه الجريدة .. انها جريدة اسلامية ومع ذلك وجدت فيها مقال يهاجم الشيخ .. شعرت بغليان في عروقي .. قرأت المقال المكتوب فوجدت من كتبه هو الشيخ (مجاهد) الأقل شهرة .. أرجعت ذلك الى الحقد المتأصل في قلوب هؤلاء على نجاحات الشيخ المتواصلة والشعبية الجارفة التي يتمتع بها ، ان التاريخ مزدحم بمثل تلك الأفعال في كافة المجالات والحضارات ..
كان الرجل يؤكد أن أتباع الشيخ يحولونه الى (رمز) ممنوع المساس به .. ويصر أنه برغم رفض الشيخ لدعوى (الثيوقراطية) وان الاسلام ليس كذلك .. الا أنه (عملياً) ينفذ ذلك بسرعة منقطعة النظير ! انه يزرع (عمداً) أو (سهواً) في محبية التقديس له ولذاته ، وسيصبح هذا شديد الخطورة فيما بعد !
غلى الدم في عروقي .. مزقت الجريدة شر ممزق ..
شيخي التقي الزاهد العابد تقول عنه هذا أيها الحاقد ؟
اللعنة عليك وعلى حقدك ! اللعنة عليك وعلى تهجمك على العلماء الأفاضل !
تمنيت لو ألتقيه .. سأمسك أعصابي وأحاوره ..
سأحاول تخفيف غليان الدم في عروقي ..
لكنني لن أكن واثقاً من عدم الانفجار !

***

في ذلك اليوم وأثناء حراستي للشيخ في لقاءه مع احدى القنوات ومتابعتي لتنظير الشيخ عن رفض الثيوقراطية .. جاء الأخ (مجيد) يطلب مني الحديث على انفراد قليلاً ..
الأخ (مجيد) هو أحد كبار المسئولين عن (نداء الاسلام) .. ومرتبته أعلى مني وأقرب للشيخ .. ذهبت معه فبادرني بقولته :
- ما رأيك فيما فعله الشيخ (مجاهد) ؟ لقد غضب شيخنا كثيراً من هذا المقال ..
عادت الدماء تغلي أضعافاً مضاعفة ، لقد غضب شيخي بسبب هذا النكرة ، رددت عليه في غيظ :
- تمنيت لو قابلت هذا الحاقد لأعطيه درساً لن ينساه !
هز (مجيد) رأسه رافضاً وقال في هدوء :
- يجب أن تتحكم في أعصابك أكثر من هذا .. ستجد أمثال هؤلاء الملاعين الحاقدين في كل زمان ومكان .. المهم أن تكشف ضلال منهجهم وحرمة سب العلماء الأفاضل و عظم قدر الشيخ ..
نحن لسنا بلطجية لنذهب اليه ونضربه ! هو الآخر له أتباع .. ومنهجه نقوم بالرد عليه بالورقة والقلم .. حتى الآن !
فكرت قليلاً ثم أجبته وقد أضاء عقلي :
- أنا حفظت مقاله .. امنحني عموداً في جريدتنا الرسمية وسأفضح عوار منهج هذا الرجل وأتباعه في سب العلماء ..
ابتسم (مجيد) وربت على كتفي قائلاً :
- أنت لها يا أخي ..
تهللت أساريري وذهبت أشاهد باقي لقاء الشيخ في القناة ، كان يقول للمذيعة في حسم :
- ان (الثيوقراطية) التي ابتدعها الحكم الكنسي تجعل من (القسيس) قديساً يحرم انتقاده .. وتجعل أتباعه يقتلون كل من يفكر مسه ولو بحرف .. فأين هذا من الاسلام ؟ ان الاسلام جعل البشر سواسية وجعل هناك فضل للعلماء لكنه لم يجعل لهم قدسية ولا حرمة تزيد عن حرمة باقي المسلمين ، وكل يؤخذ منه ويرد الا رسول الله .. فلا نسمح بوجود أتباع متعصبين مجانين .. هذا هو الفارق بين الاسلام والثيوقراطية ..
انتشت نفسي بسماع هذا الرجل المجاهد لايضاح حقيقة الاسلام ، يالك من عالم عظيم يا شيخي ..

أقسم أن أسحق هذا الذي يعاديك !

***

نزل مقالي فكان كالصاعقة ، انه مفصل بالأدلة الدامغة على حرمة التعرض لأهل العلم وأهل الفضل واحتوى على تاريخ شيخي في الجهاد من أجل الكلمة ، ولمحت فيه لأفعال حدثت لكبار العلماء من الصغار في كل زمان ومكان ..

كنت أعرف أنه ستحدث هجمة مرتدة ، فأتباع الشيخ (مجاهد) وان كانوا أقل منا في (نداء الاسلام) فهم لا يقلون علماً عنا بكثير ، برغم اختلافنا الجذري في بعض المسائل الجوهرية في الحاكمية وغيرها من الأمور الشائكة ..

حدثت مقالات ضدي ، وانبرى آلاف الاخوة للدفاع عني ، انني مقرب من الشيخ وبالتالي أخذت التزكية منه ، ومعنى ما فعلته أن الشيخ راض وليس غاضب .. ومعنى رضاه أن الشيخ (مجاهد) قد آذى شيخنا فعلاً .

اشتعلت الحرب الكلامية ، لكن الأمر انتهى بأن رفض الشيخ (مجاهد) وأتباعه الحديث أكثر من هذا ، تراجع الجبناء وانسحبوا من السجال وفضلوا الحديث عن جوانب أخرى من الدين .. هزمتهم أدلتنا الدامغة ..

في النهاية كان هذا درساً لكل من سيحاول بعد هذا التطاول على العلماء الأفاضل ..

قابلني مساء يوم الانتصار الأخ (متأمل) فسألني في حيرة :

- أليس ما فعلناه من الهجوم على الشيخ (مجاهد) هو هجوم وتطاول على عالم فاضل ؟

!

***

وقفت مع اخواني نحتفل بوصول شيخي الى المنصب الكبير ، كنت أشعر بسعادة هائلة .. أخيراً رجل عاقل وعالم يصل الى منصب الزعامة الكبرى .. مربينا وعالمنا أصبح هو (الزعيم الأكبر) للدولة ؟

هذا أجمل من الحلم ..

أكد عالمنا في أول خطبة له كرئيس أن (الثيوقراطية) لا مجال لها في برنامجه وفي دولته القادمة .. أكد على وعده للناس بالدولة الاسلامية الحقيقية حيث الناس سواسية كأسنان المشط ..

احتفلنا انا واخواني كثيراً.. وعلمت مساءً أنه تم تعييني قائد جهاز (حفظ الدولة) ..

***

كانت مهمة الجهاز القبض على كل من يحاول (قلب النظام) و (معاداة الولي) ..

سقط أول من سقط الشيخ (مجاهد) وأتباعه ! لقد كانوا يجاهرون في كل مكان بمنهج سموه (الاسلامية) كمضاد لمنهج ولي أمرنا وشيخنا (الزعيم الأكبر) الذي سموه (الثيوقراطور) !

اعتقلناه وباشرنا معه التحقيقات .. كنت أنا شخصياً من أحقق معه .. هالني أن وجدته شيخاً كبير القدر والهيبة عظيم الهدوء والرزانة ..

شعرت بغصة في حلقي من هيبته ، سألته مبهوتاً لا أدري ما الذي انتابني :

- كيف تهاجم العالم النحرير و شيخنا العظيم ؟

رد علي بنفس الهدوء :

- هل شيخك هو الشريعة ؟

- لا .. لم أقل هذا .. وما علاقة سؤالي بالشريعة ؟!

- انه الرد على سؤالك لكنك لا تتأمل ولا تبصر ..

شعرت بالضيق من المراوغة و كدت أنهره فأكمل :

- دعني أوضح أكثر ، تاركاً المهمة للشاطبي رحمه الله .. يقول " أن رأى المقلدة لمذهب إمام يزعمون أن إمامهم هو الشريعة، بحيث يأنفون أن تنسب لأحد من العلماء فضيلة دون إمامهم، حتى إذا جاءهم من بلغ درجة

الاجتهاد وتكلم في المسائل، ولم يرتبط إلى إمامهم رموه بالنكير، وفوقوا إليه سهام النقد وعدوه من الخارجين عن الجادة... وكان هؤلاء المقلدة قد صمموا على مذهب إمامهم بحيث أنكروا ما عداه، وهذا تحكيم الرجال على الحق، والغلو في محبة المذهب "
ابتسمت ساخراً و قلت له :
- كلامك خفيف لا وزن له .. و إسقاط في غير محله .. فأنا غير مقلد و لا أحاكمك الآن لمذهبك ..
- بل هو مذهب .. تمحورتم حول شيوخكم فجعلتموهم مذهباً بل دينا عليه ولاء و براء .. هكذا أصبحتم ثيوقراطيين من حيث لا تدرون ..
- من أجل هذه الكلمة نحاكمك .. أنت غافل عن ورطتك ..
- هي الحقيقة كاملة شئتم أم أبيتم ..
ثم تراجع إلى الوراء قائلاً بإبتسامة واسعة :
- ألا تدركون أنتم الورطة التي أوقعتم أنفسكم فيها ؟ إنكم باعتقالي أثبتم التهمة .. تهمة تقديس الشخوص .. بالإفراج عني ستبدون ضعفاء و سأكمل تنبيهي للأمة .. أما بسجني أو إعدامي تجعلونها حقيقة لا تهمة .. أنتم من ضعتم باعتقالي ..
قمت برن جرس على المكتب فدخل بضع إخوة غلاظ الوجوه بأيديهم سياط .. لم يأبه بهم و ظل بابتسامته المستفزة .. قابلتها بابتسامة أخرى و أنا أنهض في طريقي للخارج قائلاً :
- هل تجد الأمر يستحق ؟
بثقة و ثبات :
- هدم تقديس البشر ؟ هدم الثيوقراطور و إفاقة مُقدسيه ؟
نعم يستحق ..

سوات مصر

"أبدى الجنرال بتريوس والقادة العسكريين الأمريكين اعتراضهم على استمرار الجيش المصري في التدرب على القتال (جيش - جيش) على اعتبار أن الجيش الآخر هو اسرائيل فقط كعقيدة ثابتة منذ الستينيات !
يتسائل (بتريوس) : أليس هناك سلام بين مصر واسرائيل ؟ أليس من الضروري أن يتدرب الجيش المصري على أنواع جديده من الحروب الحديثه لمواجهة التحديات المعاصره ..
مثل .. مثل ..
مثل الحرب على الارهاب مثلاً ! "
نقلاً بتصرف - ويكليكس ٢٠٠٨

***

يقف العجوز (ميراج خان) خارج خيمة الايواء ملتحفاً ببطانية مهترئة ، ينظر في تأمل مرير الى الأفق حيث تدور ثلاث طائرات هيلكوبتر باكستانيه فوق احدى القرى كالصقور تبحث عن المجهول .. ومن آن لآخر ينطلق صاروخ من احداها ليدوي انفجار محدود يعني تمزق أحدهم .. مع ذلك البحث لا يتوقف والطائرات لا تهمد !
أهذا هو جيش بلده ؟!
أهذه هي بلده؟!
مستحيل !
انه جندي سابق بالقوات المسلحه ، بل لقد كان أحد العسكريين الكوماندوز النخب الذين شاركوا في عملية (جبرالتار) ضد الهند في عام ١٩٦٥ ! انه عجوزٌ جداً الآن .. لكنه يتذكر هذه الأيام كأنها الأمس .. يتذكر كيف تخفى بين أهل كشمير .. كيف راح يحدثهم عن الاسلام والأخوة الدينية وضرورة مقاومة الهندوس المجرمين ليرحلوا عن أرض الإسلام .. يتذكر كيف ظل الجيش الباكستاني المسلم لا عدو له في العالم سوى المشرك الهندوسي عدو الاسلام ، ولا هم له في العالم الا تحرير مسلمي كشمير والبنجلاديش من قبضة المشركين ..
كيف كان كل منهم يذهب لجبهة القتال ضد الهندوس وهو يقسم بأنه سيفعل ما بوسعه كي يوقف تلك الغطرسه الهندوسيه الكافرة عند حدودها ..
هكذا ظل في الخدمه لسنوات طويله .. شارك في حرب ١٩٧١ ضد الهند مرة أخرى .. انهم أعداؤه .. أعداء بلده .. هذه هي عقيدته التي نشأ عليها في الجيش الباكستاني والتي تدرب من أجلها كثيراً .. جيش أعداء الله هؤلاء هو همنا الأول والأخير .. حماية أهل الاسلام والمسلمين في كشمير وغيرها هو همنا الأول والأخير ..
هذا جيشنا ..
هذه عقيدتنا ..
ثم جاء الأمريكان ..
وجاء معهم ساسة وجنرالات يستمعون الى نصائح أمريكا بشغف .. لم يكن بمقدورهم شئ فالضغط شديد وهم اناس ضعيفوا الاخلاق والمبادئ أصلاً ..
يقترح الأمريكان اقتراح هام .. يعترض عليه الكثيرون .. لكن يتم اخراج المعارضين من الخدمه العسكريه !
ما هو هذا الاقتراح ؟
طوروا جيشكم .. أضيفوا الى عقائد الجيش عقيدة هامة وجديدة لمواكبة العصر الحديث : مكافحة الارهاب والحروب الأهليه .
لماذا تعترضون ؟ ان كل جيوش العالم الحديثة عندها ذات العقيدة .. انها صفات الجيش الحديث المعاصر ..

صدق الجنرالات على كلام الامريكان .. قاموا بتدريب جيوشهم على مكافحة (الارهاب) .. ألف باء مكافحة (الارهاب) و (قمع النزاعات الأهليه) هي أن الجندي الباكستاني سيوجه ـ للمره الأولى في تاريخه ـ مدفعه نحو باكستاني مثله بصوره رسميه .. للمرة الأولى سيقتل مسلماً مثله .. حتى لو كان ارهابياً أو خطيراً فلم يكن بمقدور الجيش اطلاق قذيفه على أبناء وطنه .. سابقاً !
في بدايات هذه التدريبات والتغييرات الدراماتيكيه في عقيدة الجيش كان (ميراج خان) متحمساً .. كان يجادل أبناءه وأحفاده بأن الارهابيون ليسوا مسلمين ولا يستحقوا الجنسيه الباكستانيه أو الشفقه .. كان مؤمناً بجنود باكستان الشرفاء وعقيدتهم القويه .. لم يأبه كثيراً لتساؤل زوج ابنته الرائد (زولماي سغال) المنطقي : نعم سنحارب الارهاب .. لكن أي ارهاب ؟ ألا تسمى أفعال الهنود (ارهاباً) ؟ إن الارهاب الذي يقصدونه ـ يا حماي ـ هو الارهاب الجديد .. الارهاب بالمفهوم الأمريكي .. كل مسلم سيفكر خلاف أمريكا سيصبح ارهابياً علينا قتله !
أعترض (ميراج خان) أيامها عليه .. مستحيل .. مستحيل أن يصبح جيشه المسلم سليم العقيده عميلاً للغرب .. انهم يستطيعون تمييز الارهاب جيداً ..
الآن يبكي .. انحدرت الدموع من عينيه بغزاره .. لقد قُتل (زولماي) فيما بعد على يد مجموعه من بني بلدته .. حينما صدر القرار (الامريكستاني) بشن الحرب على ارهابيي وادي سوات (حيث يسكن هو واسرته) ، اندفعت الدبابات بجنون ليثبت جنودها حسن تدريبهم للقادة .. انطلقت آلاف القذائف وذبح مئات المدنيون أمام اسرهم .. ارتكب الجيش فظائع مبررة بالنسبة له .. فكل من يعاون القتله الارهابيين هو ارهابي بالمثل .. أياً كان عمره أو جنسه .. هؤلاء الارهابيون المجرمون يريدون تدمير باكستان الجميلة .. انهم ضد (الدولة المدنية) والحضاره وأنصار الدوله الدينيه الارهابية .. لابد من القضاء عليهم وعلى من يقف بجوارهم ..
بينما ازدادت وحشية كل مواطن عادي نجا من مذابح الجيش وفقد اسرته .. وارتكب فظائع مبررة بالنسبة لهم .. قتل المدنيين مئات الجنود .. فجروا عشرات المدرعات .. يريدون الانتقام من هذا الظلم البين لهم ..
بدأت المذابح تشتد .. والحرب تستعر بين الجيش وأهل البلد .. باكستان تحولت الى جحيم ..
انه عام ٢٠٠٩ الكئيب المحزن على أهل باكستان .. العام الذي تحول فيه وادي سوات مضرب الأمثال على الجمال والخضرة المبهرة التي تنتثر جداول المياه والبحيرات الخلابه في كل أنحاؤه .. تحول هذا الوادي الى خراب .. الى جحيم فوق الأرض .. تشريد عشرات الآلاف ومقتل وذبح آلاف المدنيين الآخرين ..
لقد تغيرت عقيدة الجيش فعلاً .. قبل عشر سنوات فقط خاض حرب ضد (الهند) من أجل حماية (المسلمين من غير مواطني بلده) .. الآن أصابه الجنون بالعقيده الجديده فيخوض حرباً ضد (مسلمي بلده) بالتعاون احياناً مع (الهندوس) و (الأمريكان) !
ياله من تطور رهيب يا (ميراج خان) !
دخل (ميراج) الى خيمته .. استمر في البكاء بلا توقف .. لقد فقد اسرته كلها في هذه الحرب .. لم يتبق له أحد كي يحكي الماضي الفاخر .. يحكي له عن يوم ما كانت عقيدة الجيش هي محاربة العدو الهندوسي من أجل مسلمي بلده ..
فقط !

***

طائرة مصرية من نوع الأباتشي تصوب صاروخها .. إنهم يحتمون بالمسجد .. أي مسجد سيحميكم منا أيها الإرهابيون ؟
إنطلق الصاروخ تلو الصاروخ .. تحول المكان إلى جحيم .. الجثث تفحمت من شدة اللهب .. صاروخ الهيلفاير الأمريكي يستحق أسمه (أضرب و انسى) .. هو يعرف وجهته بسهولة ..
" تمام العملية .. جاري تمشيط باقي سيناء من الإرهابيين "

و قفلت الطائرة عائدة .. بينما صرخات النساء على أزواجهن تشق الليل ..

معركة أرض الحضارة

" أرض الحضارة .. فلنذهب إلى أرض الحضارة "
هكذا ظل العجوز (بهير) يهتف .. طوال أشهر لم ينقطع عن هذا الحديث في الواحة ..
لكن الجميع ظل ينظر له بإستغراب .. لماذا يتركون الواحة ؟ إن فيها الطعام والماء والحماية الطبيعية من المخاطر .. ثم إنها لم تخض يوماً و لو معركة واحدة ولم تعرف مفهوم الصراع في تاريخها .. لماذا يتركونها اذن ؟
لكن العجوز (بهير) ظل مُصراً .. كان يهيم على وجهه عدة أيام ثم يجئ هاتفاً بأنه رأى أرض الحضارة .. وما أدراكم ما أرض الحضارة .. استعدوا للرحيل جميعاً إليها !
العامة بدأت تتجاهله .. في مجتمع بلا صراع على الاطلاق لا حاكم حقيقي هنا .. ما هو إلا عجوز آخر يثقون في رأيه أحياناً ليفصل بينهم في المنازعات التافهة ..
نعم .. لماذا يتركون الواحة ؟

***

للمرة الأولى يجئ مثل هذا الاعصار الرهيب ليضرب الواحة .. إنقلبت كلها رأساً على عقب .. لم يواجه أي منهم هذه الظاهرة القاسية من قبل .. و كانت الكارثة مخيفة .. لقد تدمر كل شئ .. حتى البحيرة العذبة جف نصفها ..
لكن ذلك الجفاف فاجأهم بجبل ذهبي كبير مختبئ تحت الماء .. لم يهلل أحد .. ليس في قدرتهم معرفة قيمته ولا فائدته .. في حياة وادعة متكافلة ها هنا لا غني أو فقير فلا صراع ..
العجوز مازال يدور مبشراً بأرض الحضارة .. أوقفه الحاكم العرفي للواحة وسأله عن سبب واحد يدفعهم للرحيل .. أخبره العجوز (بهير) :
- لأنكم بلا مواهب .. كلكم عقول تابعة للفراغ .. لا أمل في صمودكم أمام الزمن القادم .. زمن الحضارة والقوى الكبرى ..
- وكيف ظللنا في هذه الدنيا طوال هذا العمر يا مُخرف ؟
- ظللتم كما أنتم .. بلا صراع و بلا تحديات فبقيتم بلا ابداع .. كلكم تابعين فاذهبوا الى أرض الحضارة .. هناك قادة ينقصهم الأتباع !
- مجنون و مخرف .. تريد تأجيج الفتنة بين أهل الواحة .. كلنا نشعر بالمساواة ونرفض الصراع ..
- ترفضون الابداع .. ترفضون التقدم .. ترفضون الحضارة ..
أثناء الحديث دخل الخيمة أحد رجال الواحة مولولاً .. مملكة الحديد قررت الحرب ضد الواحة .. وهم اناس متوحشين لديهم حضارة همجية قائمة بالأساس على الصراع .. تركوا الواحة الصغيرة طوال الزمان لأنها بلا فائدة .. والآن ظهر أن هناك جبل من الذهب لابد من الحصول عليه ..
هتف الحاكم في العجوز :
- أنت خبير بالبلدان .. أخبرنا كيف ندفع الشر ؟
- تدفعون الشر بلا حضارة ؟! تدفعون الشر و ما عشتم سوى كالأنعام تأكلون وتشربون بلا تطور ؟ ادفعوا الشر بترك الواحة لهم مادمتم غير قادرين على الصراع .. اتركوا الواحة لهم والا حدثت مجزرة .. هيا بنا الى أرض الحضارة حيث المبدعين في انتظار المُخلصين ..
بدأت سهام النار تنهمر على الواحة .. خرجت النسوة والأطفال صارخات بينما الرجال أصابهم الهلع ولم يعرف أي منهم ماذا يفعل .. لم يكن أمام الحاكم مفر :

- هيا الى أرض الحضارة بلا ابطاء !

****

بعد يومين من السير في الصحراء وجدوا أنفسهم أخيراً أمام أرض الحضارة ..
واجهتهم أسوار عالية مكهربة .. تقدم العجوز اليها في ثقة ووقف يطلب الاذن بالدخول .. هم آتين في سلام ..
ظهرت مراية فيها رجل يتحدث فأصاب الجميع الذهول التام .. أخبرهم الرجل أنه يرحب بهم في المدينة لكنه حذرهم بأن من سيمر من البوابة وفي نيته العدوان سيحترق بلا نقاش !
هكذا فُتحت البوابات ودخل أهل الواحة الى المدينة ..
وأصيبوا بالانبهار مما يرونه ..
كل المباني ضخمة لامعة .. كل الأرض لونها سوداء ومستوية .. المدينة ليس بها سوى قلة من السائرين لكن الغريب أن أياً منهم لم يأبه لهم ولم يعترض أو يرحب ..
هكذا أرشدهم العجوز الى مبنى ضخم في وسط المدينة اسمه (مجمع البناة) .. هناك رأوا حكام المدينة للمرة الأولى : البنائون !

****

رحب بهم البنائون .. عشرون رجلاً فذاً قاموا بصنع هذه المدينة بالكامل .. لكنهم وجدوها غير ممتلئة بالسكان فرحبوا بكل قادم .. هكذا طلبوا منهم أن يلتزموا باحترام قوانين أرض الحضارة فقط .. و أن يختاروا ما يشاء أي منهم من المباني والمرافق !
هكذا بكل بساطة أصبحوا من أهل أرض الحضارة ..
وهكذا بدأت الحياة الآمنة حقاً تحت حكم البنائين ..

****

أربعون من فتيان أهل الواحة قادهم العجوز (بهير) في حركة سرية .. كانوا يشعرون بالغيرة من كل هذا التقدم .. ما السر وراء هؤلاء البنائون ؟
كان (بهير) يحثهم على تتبع البنائين .. كل اثنين منهم يراقبون بناءاً واحداً ويطلبون التتلمذ على يديه ..
يحاولون فهم عمله .. أخبرهم بأن هؤلاء قاموا بخلق هذه المدينة من الفراغ .. كيف فعلوها ولم ؟
هكذا رحب البنائون بالشباب المتحمس .. بدأ الشباب يتعلم ويعرف تاريخ هذه المجموعة .. لقد كانوا عصبة من العباقرة لم يطيقوا أرض الحديد فهربوا منها .. ضاعوا في الصحراء حتى وجدوا قبيلة بدائية استقبلتهم ..
استغلوا بنيان أجساد أبناء القبيلة القوي فقاموا بانشاءات هائلة في الصحراء .. عقولهم ساعدها توافر كافة مصادر الصناعات .. فأنشاوا المدينة كي يقوموا بسيادتها .. فقد كانوا من داخلهم يرفضون سيادة البدائيين عليهم ..
هكذا راحوا يطورون المدينة .. جاءت العواصف فقاموا بتحديها وأنشأوا مبانٍ قوية من الأسمنت .. هاجمتهم الذئاب والضواري فصنعوا الأسوار .. حاولت أرض الحديد الهجوم على مدينتهم فقاموا بصنع كهرباء تسري في الأسوار واشعاع يحرق المعتدين ..
و بدأت مع مرور السنوات عقول شباب أهل الواحة تفهم الخطة .. خطة التطور .. ان البنائين في خطر مستمر .. كلما واجههم خطر قاموا بتحديه وتساعدهم عقولهم على اجتيازه .. حتى ان امتنع التهديد اصطنعوا حالة من التنافس الودي الداخلي تخلق صراعاً يقود لتطور وكشف جديد .. و مع ذلك هم في النهاية مسالمين يرحبون بالغرباء التائهين تعاطفاً معهم و تقديراً لمحنتهم التي مروا بها من قبل ..
العجوز (بهير) راح يستقي المعلومات من الشباب الذي يتتلمذ على يد العباقرة البنائين .. بدأ يضع قوانين وحسابات .. بدأ يضع تحديات لتلاميذه ويخلق بينهم منافسات يحاول كل منهم سحق الآخر فيها ذهنياً وبدنياً ..

برغم الحساسيات الكبرى التي بدأت تتولد الا أن الحقيقة الناصعة أن الفتيان تطوروا بالمنافسات السرية .. هكذا فهم (بهير) اللعبة .. وهكذا بدأ تنفيذ الشق الأخير من خطته ..

***

في ذلك اليوم دعا (بهير) البنائين الى اجتماع .. في القاعة الكبرى التي يحكمون منها المدينة طلب (بهير) بحق شباب أهل الواحة في الحكم معهم !
انتفض كبير البنائين غاضباً ووقف يسبه ويذكره بأنهم أنقذوا أهل الواحة من الضياع .. فكيف يطلبون الحكم معنا الآن ؟
في هدوء وبرود قال (بهير) ان أرض الحضارة تؤمن بالمساواة .. هكذا يقول قانونها .. لذا فمن حقهم الحكم وتداول السلطة ..
دمدم أكثر البنائين في غضب .. سخر منه كبيرهم وطرده محذراً اياه من العودة الى مثل هذا التفكير .. في هدوء غادر (بهير) مجمع البناة ليتجه الى الجانب الآخر من المدينة .. كان الشباب في الانتظار فما ان رأوا وجهه حتى فهموا ما حدث .. وبلا ابطاء أصدر لهم الأمر بفعل ما اتفقوا عليه ..

***

كرات ضخمة من اللهب راحت تسقط على مجمع البناة .. في هلع ركض البنائون في كل مكان يفكرون في مصدر هذا القصف .. أهل المدينة القلائل اختبأوا في منازلهم في ذعر ..
صعد كبير البنائين الى برج عال .. بمنظار متطور شاهد مصدر القصف : انه الجانب الآخر من المدينة !
الجانب الذي يعيش فيه أهل الواحة !
هكذا نزل غاضباً يخبر باقي البنائين .. استشاطوا غضباً واندفع كل منهم الى مبنى صغير يحوي مدافع راحوا يطلقونها بلا هوادة نحو الجهة الأخرى ..
في الأعلى فوجئ كبير البنائين بعشرات الكرات تطير في الهواء لتصطدم بالقذائف قبل سقوطها على أهل الواحة !
التفت الى من بجواره وأخبره عما يراه فعض البناء على شفتيه قائلاً في غيظ :
- اذن تأكدنا الآن أن الفتيان الذين قمنا بتعليمهم خانونا .. انهم يستخدمون علومنا الذين تشربوها ضدنا !
في صرامة قال الكبير :
- اذن بدأوا معنا الصراع .. جميل .. هذا ما نبرع فيه .. أذيقوهم الويل أيها العباقرة !

***

شهور طويلة من القصف والقصف العكسي .. البنائون استخدموا عبقريتهم كلها في صنع أفضل ما عندهم و شباب الواحة استخدموا كل العلوم التي تعلموها لصد العدوان وفرض عبقريتهم على البنائين ..
في البداية كان أهل الواحة مع شبابها يرجون نصرتهم و أهل المدينة القدامي مع البنائين يرجون نصرتهم .. لكن الأمد طال ..
الصراع لا ينتهي ..
كل عقل يبتكر شئ جديد هنا يقابله عقل يبتكر شئ جديد هناك ..
بدأ الكل يشعر بالملل .. المتصارعين فقط قرروا خوض المعركة للنهاية .. اما أن ينتصر البنائين أصحاب المدينة الأصليين الرافضين لترك حكم مدينتهم التي بنوها بعرقهم وجهدهم ، واما أن ينتصر شباب الواحة الذين يرفضون التسليم بتفوق عقول غيرهم عليهم ويصرون على حقهم في المشاركة في الحكم بل والسيطرة عليه ..

النار راحت تتصاعد من كل مكان .. الخراب في كل ركن .. المدينة كلها تنهار .. قام البنائين باللجوء لأسلوب قذر بقطع مياه الشرب عن جانب أهل الواحة .. فقام شباب الواحة بقطع الكهرباء عن الأسوار كلها ..
حاول البعض التفاوض والتهدئة .. لكن كلاً منهم متربص برأيه .. هذا يقول :حقنا وهذه مدينتنا .. و الآخر يقول حقنا في المساواة وهذه مدينتنا أيضاً !
لم يوافق أي منهم على اعادة المياه أو الكهرباء .. أهل الواحة وأهل المدينة بدأوا في الموت لكن كلا الجانبين لا يتوقفان .. (بهير) يشعر بدنو السيطرة و كبير البنائين يشعر بدنو التخلص من الشباب المتهور الطماع ..
وفي وسط أحد أيام القصف المتبادل فوجئوا بجيوش لا حصر لها تجوب شوارع المدينة .. تقصف الجانبين بلا هوادة ولا رحمة .. من هؤلاء ؟! من أين أتوا ؟!
لكن الراية المرفوعة أنهت التساؤلات .. انه جيش أرض الحديد !
متى دخل هؤلاء ؟ كيف ثقبوا الأسوار دون أن يشعر أحد ؟
هكذا راح البنائين يركضون هرباً محاولين ترك المدينة لكن أهل أرض الحديد راحوا يقصفونهم ويقومون بابادتهم عن بكرة أبيهم .. بينما في الجانب الآخر كانت المذبحة أشد وأبشع .. ذبحوا كل الشباب لايقاف طموحهم وطمعهم في السلطة ..
على أسوار المدينة فوجئ العجوز (بهير) الهارب من أحد الشقوق التي دخل منها جيش الحديد ، بكبير البنائين الهارب هو الآخر من نفس الشق !
نظروا لبعضهم في كراهية .. صرخ كبير البنائين في (بهير) أنه لم يكن يتخيل أن تبلغ العداوة ونكران الجميل الى الحد الذي يصل به الى الاستعانة بأعداء أرض الحضارة .. صرخ فيه (بهير) بأنه يتهمه هو بأنه من أدخل جنود أرض الحديد لابادة ابناءه بعد ظهور تفوقهم .. اشتد غيظ كبير البنائين فتناول قذيفة من الأرض ورفعها ليقذف بها (بهير) ، بينما فعل الآخر نفس الشئ بقذيفة أخرى ..
هنا صرخ كبير البنائين هاتفاً في ذعر وذهول :
- مهلاً ! هذه التي تحملها قذيفتنا !
رد عليه (بهير) مندهشاً :
- وهذه التي تحملها قذيفتنا !
استدار الاثنان في ارتياع لتأمل الشق الضخم المصنوع في سور المدينة ..
الشق الذي تناثرت أسفله قذائف المتصارعين في المعركة الأخيرة !
معركة أرض الحضارة !

سلومون .. لامفر

"انها اللحظات الأخيره يا سليمان "
هكذا يتردد النداء في عقله.. يركض الجميع هنا وهناك في محاوله لانقاذه ، يحاول بكل جهده أن يبقي عيناه مفتوحتين .. لكن النداء لا يتوقف .. يبدوا أنها اللحظات الأخيره بالفعل ..
أغمض عينيه للحظه .. رأى عرفات ينظر له في لوم وشماته !
لماذا يلومه ؟ لماذا يشمت فيه ؟
في اللحظه التاليه تذكر هذا الموقف .. عندما اتصل به عرفات وقت بداية حصار اسرائيل لمنزله تمهيداً لقتله ، كانت أيدي عرفات المرتعشه تدير قرص الهاتف وهي في ثقه أن سليمان سينقذ الموقف ، سيجري اتصالاته باسرائيل ويوقف الحصار القاتل ..
هرع موظف الهاتف لمدير المخابرات ليخبره بأن ياسر عرفات ينتظره على الهاتف .. لكن سليمان نظر له في سخريه وقال : دعوه على الهاتف للأبد .. في ستين داهيه !
هكذا ترك عرفات وحده يلقى مصيره أمام اليهود .. هكذا رفض مساعدته في المحنه الأخيره .. لهذا ينظر له في لوم وشماته .. الآن فهم !
فتح عينيه في ذعر .. ماذا حدث .. لماذا تذكر هذا الموقف الآن .. غلبه الألم فاضطر لاغماض عينيه مرة أخرى ..
هذه المره شاهد صدام حسين يتحسس ذلك الحبل الغليظ حول عنقه .. ينظر لسليمان في سخريه قائلاً : على الأقل أعطاني الله مهله لمراجعة نفسي يا أحمق .. أعطاني مهله لنطق الشهاده .. فهل ستنطقها ؟!
لماذا يسخر منه صدام ؟ لماذا يشمت فيه ؟
وراء صدام كانت هناك آلاف الانفجارات .. عشرات الآلاف من القتلى .. جثث احترقت حتى العظام .. مئات الفتيات المغتصبات يبكين تحت أقدام الجنود الأمريكان الذين ينظرون له جميعاً في امتنان .. على أكبر دبابه هناك يقف دونالد رامسفيلد وزير الدفاع الأمريكي في غرور رافعاً رأسه في شموخ .. لكن ما ان رأى سليمان حتى انحني له في احترام وتقدير قائلاً له : سيدي عمر سليمان .. لقد استغللنا نصيحتك خير استغلال .. أنت من اقترحت علينا أن ندعي ارتباط العراق بالقاعده كحجه لاحتلاله .. وهاقد نفعت نصيحتك بصوره لم نكن نتخيلها .. فألف شكر لك أيها العظيم ، وانتظرنا في الجحيم فسنقابلك هناك لنشرب نخب هذا الانتصار !
مرة أخرى فتح عينيه في ذعر .. ماذا قال هذا الأحمق ؟ أي جحيم .. اللعنه .. لا يريد اغماض عينيه .. يحاول المقاومه بشده .. لكن الألم كان شديد القوه و .. آي ..
هذه المره كانت هناك حضانه لطيفه جداً ، عشرات الاطفال يلعبون المساكه وألعاب أخرى في ساحتها الواسعه .. البعض يضحك والبعض الآخر ذهب يشكو لمدرسته صغيرة السن من أن زميله (غلس يا أبله) !
فجأه حدث شئ يشبه البرق في السماء .. نزلت عشرات الالعاب في ساحة الحضانه .. ذهب الاطفال يركضون نحوها في سعاده وفضول كل ليأخذ لعبته بينما مدرستهم تصرخ في ذعر محاولة ابعادهم عنها .. لكن الاطفال كان أغلبهم قد أمسك كل منهم بلعبته .. وفجأه انطلقت عشرات الانفجارات .. راحت جثث الاطفال تتناثر والدماء والأشلاء تنتشر .. انهارت المُدرسه وهي تصرخ .. لقد كانت فكرتها هي فتح هذه الحضانه الآن حتى تبعد الاطفال الصغار عن أجواء الحرب الدائره في غزه .. كانت فكرتها أن تبتعد بهم عن مئات الانفجارات وانهيارات المنازل فوق أهاليهم .. أغلبهم فقد أهله فحاولت أن تنسيهم وتواسيهم .. لكن اليهود كانوا يمتلكون قنابل لكل سنوات العمر ! قنابل على شكل ألعاب وقنابل على شكل قنابل !

وسط صراخها نظرت اليه .. وقفت في غضب مجنون وركضت اليه هاتفة : أيها العميل القذر .. اسرائيل كلها تتحدث في سعاده عن قبولك وسعادتك بهذه الحرب علينا لاسقاط حماس التي تكرهها .. أيها القذر .. سأذبحك بأظافري !
في سرعه فتح عينيه مرة أخرى .. متى ينتهي هذا ؟ سيحاول ايقاف اغماض عينيه المفاجئ قدر الامكان .. سيقاوم الألم حتى النهايه .. المهم ألا يغمض عينيه مرة أخرى .. لابد ألا يتكرر هذا ..
كان هناك طبيب قلق ، مد يده بمحقن غليظ نحو صدره ، نظر الطبيب في سرعه اليه فوجده يبادله النظر بخوف ورعب ، قال له مبتسماً :
- تحمل يا سيدي .. لاتخف فلن تؤلم كثيراً !
في سره راح يهتف ضد الطبيب ، ليس المحقن ما أخاف يا أحمق ، ليس الألم ، بل اغماض عيني هو ما آخـــا .. آي !
هذه المره كان في قبو مخيف .. انه يعرفه جيداً فقد قضى فيه سنوات طويله ينتزع الاعترافات .. انفتحت عشرات الزنازين فجأه وخرج آلاف الشباب .. بعضهم فقد اطرافه وبعضهم تقيحت جروح التعذيب في جسده حتى لعب فيها الدود ! ما ان رأوه حتى لمعت أعينهم في تصميم .. لقد شارك بنفسه في تعذيب الكثير من هؤلاء .. هذا الفتى البريطاني المسلم الذي أعطته لك بريطانيا كي تعذبه عندك بالوكاله .. هذا العالم الأمريكي ذو الأصول الباكستانيه الذي قطعت جسده بالسياط بعدما طلبت منك أمريكا أن (تتوصى عليه) ! هذا وهذا .. كل هؤلاء يتحركون نحوه في غضب وبطء .. لقد فعل بهم الأفاعيل ولن يتركوه .. تراجع بظهره حتى وجد الجدار الرطب القذر فصرخ في ذعر .. انه كابوس .. انه كابوس ..
للمرة الأخيره يفتح عينيه .. لقد أصابه الانهاك .. تعذيب وهو في وعيه وتعذيب وهو فاقد لوعيه .. هذه المره كان التعذيب أكبر .. سيصمد لفتره أطول دون أن يغمض عينيه .. سيحاول .. صمد كثيراً .. انهم يستخدمون جهاز الصدمات الكهربائيه .. جحظت عيناه في ألم وذعر .. لا لن يغلقها .. سيقاتل كي لا يغلقها .. لن يغلقها هذه المره .. لن ..
في النهايه جاءت السحب السوداء الكثيفه ، ثقلت عيناه رغماً عنه .. يرى وراء هذه السحب آلاف الشباب المصري الغاضب .. منهم من فقد عيناه ومنهم من تلقى عشرات الرصاصات في جسده .. الكل ينظر له في غضب وتصميم وترقب.. انت قادم الينا يا سليمان ..
انت قادم الينا ..
لا مفر ..

***

جلست المرأة الصعيديه الى الطبلية بعدما أعدت طعام العشاء ، راح زوجها يمزح مع أطفاله الخمسه قليلاً قبل أن يلتفت اليها قائلاً في قلق :
- البلد كلها في رعب .. هناك ثلاثة شباب من الجماعات يختبئون في القريه .. وهم يعتقلون الكثير بلا جدوى ..
ردت عليه في قلق مماثل :
- انهم سيختبئون وسط حقول القصب والمزروعات كالمعتاد .. لن يكون في مقدور الداخليه الوصول اليهم .. ربنا يستر ..
وفي توتر أخذت رضيعها في حضنها ، وهي تنظر الى السماء راجيةً ..
على بعد كيلو متر واحد وقف هذا الظابط ذو الرتبه الكبيره جداً يتحدث في اللاسلكي .. كان الشحوب قد علا وجهه وهو يتلقى الأوامر الجديده .. راح يردد بلا انقطاع : - يا عمر بيه أرجوك .. يا عمر بيه أرجوك .. هناك عشرات الفلاحين بيوتهم وسط المزروعات ..

لكن أوامر عمر بيه كانت صارمه حاسمه .. سيستعمل أسلوباً جديداً لمكافحة اختباء شباب الجماعات في الحقول .. سيحرق الحقول بمن فيها .. سيلقن هؤلاء الفلاحين درساً لن ينسوه .. اذا اختبأ بعض الشباب في حقلك فاعلم انك ستحترق مع أسرتك وأطفالك .. فابذل جهدك كي لا يختبئ أحد عندك !
وفي يأس أصدر الظابط الكبير الأوامر الجديده ..
أما تلك الأسره .. فقد راحت المرأه تتشمم الهواء في استغراب .. قالت لزوجها في ارتياع :
- هناك رائحة دخان .. المحصول يحترق ..
هرع الفلاح الصعيدي كالمذعور نحو الباب ليفتحه .. لكن النار هبت فجأه داخلة الى منزله كأنها كانت تنتظره في لهفه .. اشتعلت النيران في أطفاله بينما راحت زوجته تصرخ .. هذا (عمر) الصغير ذو الثلاث سنوات يتلوى ويصرخ من النيران .. بينما (أحمد) ذو السنوات الخمس و (محمد) ذو السنوات السبع يدوران حول بعضهما في عجز وصراخهما يصم الآذان .. زوجته تحاول انقاذ الرضيع لكن النيران اشتعلت فيها هي الأخرى .. لم تستطع تركه فاحترقت هي ورضيعها .. الأب يسقط وسط الصراخ غير قادر على انقاذ (محمود) ذو السنوات العشر الذي حاول القفز من الشباك فوجد شعلات النار في انتظاره .. غير قادر على انقاذ نفسه ولا انقاذ أحد .. أغمض عينيه للمره الأخيره من الألم والحريق .. وهو يصرخ في عقله :
أنت قادم الي يا من فعلت هذا ..
أنت قادم الي ..
لامفر ..

المكتاتور

الفاتيكان - ١٥٥٩

ليلة أمس قُتل سيدي الدون (جيوتو أليجييري) مسموماً !
سيدي الدون الايطالي الثري المفكر العظيم قتل أمامي أنا خادمه الأثير عبر عشرات السنوات و صديقه الوفي الوحيد .
طلب مني ليلتها العشاء فأمرت الطهاة باعداده .. وما ان تناول القليل من الطعام حتى أمسك بمعدته ، تلوى امامي متألماً وهمس في أذني بكلمة واحدة :
- لقد قتلوني يا ساندرو .. تخلص من الخدم ولا تبحث وراء موتي !
ومات بين يدي !
لا ورثة .. الدون وحيد تماماً .. هرعت ملتاعاً أجئ بالأطباء وابلغ السلطات لكنهم أنهوا الأمر بسرعة بالغة مريبة .. لم يبحثوا كثيراً عن القاتل وقدم أحد الرهبان الشكر لي على البلاغ وصرفني من قصر الدون الذي ستتصرف فيه كنيسة الفاتيكان مع باقي ثروته كما تشاء ..
أثناء انصرافي وأنا مازلت بين الصدمة والذهول أمسك أحد الطهاة بيدي ومال علي هامساً بعدما تأكد أن لا أحد يراقبنا :
- انصرف من هنا بلا حديث ولا تعد مرة أخرى .. غيسليري نفسه وراء ما حدث !
اهتزت جوانحي في رعب !
غيسليري !
مدير مخابرات الفاتيكان المرعب بنفسه ؟
يعلم الله أنني كنت أشعر بهذا ، لكني لم أعتقد جدية الأمر ..
سأرحل غداً الى قريتي الهادئة .. لن أعود الى روما أبداً بعد اليوم ..
ان غيسليري سفاح جزار ..
أو كما نسميه باللاتينية :
مكتاتور !

***

في اليوم التالي وقفت بحقائبي مستعداً للرحيل .. هناك عربة ستجئ بعد قليل لتأخذني ..
لماذا قتل الفاتيكان سيدي (جيوتو) ؟
ألح السؤال علي عقلي طوال الليل ..
هل بسبب بعض كتاباته الشخصية السرية المادحة للبروتستانت ؟
نعم قد قمت بالاطلاع على بعضها وأقسمت أن لا أبلغ أحداً ، ولم أفعل .. لكن كيف علم غيري بهذا ؟
اذن هناك جواسيس كانوا في القصر .. ولو صدقنا المرويات عن أسلوب مخابرات الفاتيكان المسماة (الحلف المقدس) فأغلب الطهاة كانوا من (الرهبان السود) وهم عملاء المخابرات التي يرأسها (ميكيل غيسليري) ..
وهذا يفسر سبب وصول السم الى طعامه !

مرة أخرى انتفضت في ذعر عندما خطرت ببالي حقيقة منطقية جداً :
ماداموا تخلصوا من الدون باعتباره مهرطقاً فبالتأكيد أنا التالي باعتباري المتستر عليه !
تلفتت حولي في ذعر .. لماذا تأخر السائق ؟ لماذا لا يسير أحد في الشارع ؟ لماذا يتحرك هؤلاء الثلاثة رهبان ذوي الأردية السوداء بذلك الأصرار ؟
تركت حقائبي وهربت راكضاً في حيوانية وذعر .. الآن كل اللعب على المكشوف .. الرهبان يركضون ورائي ..
ظهرت عربة مغلقة أشبه بالصندوق من اللامكان تجري ورائي معهم .. أين المفر أين ؟
هناك مجموعة من الأشجار المفضية الى الغابة على بعد مسافة قصيرة عند المنعطف القادم .. سأتجه اليها فوراً كي أصعب المأمورية على العربة .. وصلت اليها وانعطفت فاذ براهب ضخم الجثة قابلني بالأحضان مبتسماً في سخرية .. حاولت التملص منه كثيراً ..
لكني تلقيت ضربة قوية على رأسي ..
وفقدت الوعي بين أيديهم .

***

أفقت على بوابات الفاتيكان .. كانت يدي مغلولة وخمسة من الرهبان الأشداء التابعين لجهاز المخابرات يسحبونني الى داخل أحد الأبنية الرئيسية ..
كانوا قد أغلقوا فمي فرحت أبكي قهراً وأنا أحاول استرحامهم بصوت مكتوم .. لكن النظرات الصارمة في عيونهم لا تحمل أي شفقة ..
لا أعرف مصيري .. لكنني أعرف مصير كل من دخل الى هذا المكان الرهيب بصحبة (الرهبان السود) الى حيث الكاردينال الجزار (غيسليري) .. وهو مصير أفضل الموت الآن عن رؤيته !
دخلنا الى الطابق الأرضي بين المشاعل التي لم تفلح في تخفيف الظلام المنتشر في الممرات الطويلة .. تحركنا فيها وصوت السلاسل والجر هما فقط اللذان يكسران الصمت ، بينما الضوء البرتقالي المخيف يلقي ظلاله على وجوه الكهنة التي بدت كوجوه الشياطين بالنسبة لي ..
وصلنا الى قاعة صغيرة تستخدم كمدخل .. ياللرائحة القاتلة الرهيبة .. كانت هناك عشرة هياكل عظمية معلقة على الحائط .. توقف الكهنة وأشاروا اليهم قائلين لي في صرامة :
- هذا مصير من يتحدى مشيئة الرب !
فكوك الجماجم مفتوحة في صرخة صامتة .. الهياكل مثبتة في الحائط العفن بواسطة مسامير غليظة أكلها الصدأ بينما الجثة التاسعة لازال في عظامها بعض اللحم لم يتآكل بعد لكن الدود يعمل بهمة !
جحظت عيناي في هلع .. لا .. لا أريد هذا المصير .. أريد النجاة ..
حاولت التملص من بين أيديهم بلا جدوى برغم عنفي الشديد .. سحبوني الى ممر آخر طويل كان على جانبيه أفران سوداء ضخمة ومغطاة بالشحم .. وصلنا الى نهاية الممر فوجدنا باباً يجلس عليه كاهناً آخر .. هناك هيكلان عظميان مفروشان على الأرض بدلاً من سجادة الاستقبال !
نزع الكمامة من فمي بقسوة بالغة وأمرني بالسكوت وعدم الكلام قبل أن يفتح البوابة الرهيبة ..
دخلت لأجد كاردينالاً في استقبالي ..
من اللافتة التي كانت معلقة على باب القاعة عرفته وان لم أكن أصدق مثولي أمامه ..
انني أمام رئيس المخابرات بنفسه ..
غيسليري الرهيب !

***

كان غيسليري نحيفاً هادءاً جداً على غير ما توقعت .. قابلني بابتسامة ودود عجيبة في وسط القاعة المظلمة التي تفوح منها روائح نتنة .. قال لي بكل ود وتهذيب :
- أهلاً بعزيزي (ساندرو) .. انما استدعيتك هنا لاستجواب بسيط ..
اندفعت قائلاً بين دموعي :
- أيها الأب العظيم .. أقسم بأن أجيبك بكل ما تريده .. فقط ارحمني .
هز الكاردينال (غيسليري) رأسه متفهماً بلا تعليق .. نظر للكهنة الحراس نظرة خاصة فأوقفوني في وسط القاعة ..
كان هناك حبلاً يتدلى في الهواء مثبت الى آلية غريبة غامضة .. قيدوا يدي خلف ظهري بطريقة مؤلمة .. وببطء راحوا يرفعوني بهذا الوضع الرهيب .. رحت أصرخ ألماً منادياً الأب (غيسليري) مسترحماً اياه .. لكنه ظل بنفس الهدوء والصمت حتى أصبحت على ارتفاع ثمانية أمتار في الهواء !
يداي تصرخان من الألم .. رحت أهتف له راجياً الرحمة .. لقد أبديت استعداداً للتعاون فلم التعذيب ؟
طبعاً حتى في وسط ألمي كنت أدرك تماماً (كمواطن كاثوليكي) مدى عبثية سؤالي الأخير ..
ان محاكم التفتيش تعذبك أولاً بل قد تقتلك بلا أي غاية سوى الشك في نوايا سيئة !
من أسفل قال الكاردينال (غيسليري) بهدوءه المثير :
- قل لي يا ساندرو .. لدي فضول بسيط للغاية .. كنت أريد معرفة من هو الذي أطلق علي لقب (مكتاتور) في حفلة الدون (جيوتو) التي أقيمت الشهر الماضي ؟
لقد ضحك الدون (جيوتو) كثيراً على اللقب ولا عجب فهو مهرطق .. لكني أعلم بأنه ليس هو من صاغ هذا اللقب اللطيف .. أخبرني باسم من أطلق اللقب وسأبقيك حياً !
اللعنة .. الألم لا يطاق .. أتذكر حفلة الشهر الماضي طبعاً وأعرف أن الدون (دي بوندوني) هو من أطلق التسمية .. لكن هل أشي به فيضيع ؟
بكيت في ألم وقهر .. أحد الكهنة من أسفل يرجوا (غيسليري) كي يرميني للذئاب .. لكن الكاردينال يهدئ من حماسته بنفس الهدوء ويخبره بأنني سأتكلم .. فقط الانتظار ..
الألم لا يطاق .. عذراً يا دون (دي بوندوني) .. انها حياتي أو حياتك !
صرخت قائلاً :
- انه الدون (دي بوندوني) .. أقسم انه هو من فعلها .. أرجوك ارحمني وانزلني ..
تمتم (غيسليري) في شرود محدثاً نفسه بصوت مسموع :
- كما توقعت .. انه دي بوندوني اللعين ! حسابه سيكون عسيراً للغاية !
ثم التفت لحراسه الكهنة آمراً :
- ألم تسمعوا طلبه ؟ أنزلوه !
قبل أن اتنفس الصعداء أُرخي الحبل فجأة .. نزلت ستة أمتار بسرعة البرق قبل أن يتوقف الحبل مرة أخرى على بعد مترين من الأرض ..
صرخة ألم هائلة أطلقتها ساعتها .. كانت ذراعاي معلقتان من خلفي وقد انفصلت العظام تماماً
عن كتفي .. وضع مستحيل تشريحياً لكن هكذا كنت أتدلى صارخاً بلا انقطاع من شدة الألم الرهيب وفقدان الاحساس بأطرافي .
صرخت كثيراً كثيراً ..
حتى فقدت الوعي ..

***

لا أموت !

هذه هي المفاجأة المثيرة للغيظ والغضب .. انني لا أموت !

مرت ليلتان وأنا مدلى في القاعة هكذا فاقداً الاحساس باطرافي بينما كتفاي بدآ في التمزق فعلاً من شدة الألم المستمر ..

لكن الألم لا يتوقف .. والموت لا يجئ ..

أفقت في أحد المرات على صراخ قادم من الخارج .. فتحت عيناي فوجدت الدون (دي بوندوني) البدين يدخل القاعة برفقة زوجته الأكثر بدانة و المستمرة في الصراخ ..

كان وجهه ممتقعاً بشدة ولكنه تحول للون الأسود عندما شاهدني ..

ملجوم اللسان وقف لدقيقة قبل أن يدخل الكاردينال الهادئ .. السفاح (غيسليري) ..

قال له (غيسليري) ببروده المثير :

ـ أنت متهم بالهرطقة يا دون .. لدينا عشرات الدلائل أنك كتبت مراسلات مع مهرطقين بروتستانت كثيرين .. منهم الدون (جيوتو) نفسه .. لدينا اعترافات كثيرة جداً تثبت هذا .. والأسوأ أن زوجتك تمارس السحر الأسود .. لهذا حُكم عليكما بالتطهير .. ستُعدمان حالاً!

صرخت المرأة في ارتياع تُكذب الاتهام .. بينما ظل (دي بونديبه) صامتاً يذرف دموع القهر .. انه يدرك بأن لا فائدة من المقاومة .. بل أكثر من هذا .. انه يفضل الصمت الآن كيلا يمتد الانتقام والعقاب الى أولاده !

أمر الكاردينال بانزالي فأنزلني الكهنة المرافقين .. سقطت على الأرض بلا احساس في اطرافي لكنهم رفعوني بقسوة وعنف فصرخت من ألم كتفاي .. جذبوني الى مشاهدة الدون وزوجته وهما مقيدان بسلاسل غليظة ملقيان بداخل فوهة أحد الأفران الضخمة .. الكاردينال واقف بجواري يتمتم بنفس الهدوء :

ـ سأتركك تعيش يا (ساندرو) .. لكن عليك أن تشاهد هذا المنظر اللطيف أولاً ..

اشتعلت النار فجأة في الفرن .. راح الدون وزوجته يصرخان ويحاولان التحرر بلا جدوى .. النار ضخمة هائلة والصرخات مفزعة .. اللحم يحترق أمام (ساندرو) والكاردينال والجلد يذوب والمرأة تنادي الآلهة وتنادي ابنها بلا جدوى .. الصوت الآن يتوقف والأجساد تنتفض فعلى الأغلب الأحبال الصوتية نفسها احترقت .. همد الجسدان تماماً وظلت النار تأكل جسداهما لدقائق طويلة ..

في النهاية .. التفت الكاردينال الي قائلاً في همس مبدياً الأسف المصطنع :

ـ تخيل أنك أنت من وشيت بهما ! ياللأسف .. ستتذكر هذا المشهد باقي عمرك !

انحدرت الدموع الساخنة .. سابقاً كان الآلم في جسدي ، الآن روحي نفسها احترقت مع الكتل المتفحمة بداخل الفرن .. كم اتمنى الموت كي ارتاح !

لكن أين أطرافي التي أقتل بها نفسي ؟

***

زلزال ؟

هناك ضوضاء وصخب في الممرات ..

هناك فزع في وجوه الكهنة الحراس .

لقد أمضيت ثلاثة أشهر بداخل أحد الزنازين الفردية كمسكن دائم ارتضاه لي الكاردينال (غيسليري) كمكافأة لأقضي فيه باقي (حياتي) !

لكن صوت الصخب شديد ..

يا الهي .. حراس الزنازين يتفقون على الهروب !

انهم يهتفون في هلع بأن البابا قد مات .. والكاردينال قد هرب .. كل شئ ينهار .. المتمردون على أبواب جهاز المخابرات الفاتيكاني يستعدون لاقتحامه !
هربوا وتركوني مع المئات غيري .. راح سليمو الأطراف يدقون على الأبواب في هلع .. هناك رائحة حريق تنتشر في المكان ..
لكن دقائق ووجدنا أنفسنا وسط عشرات الأذرع تتقاذفنا الى الخارج وتهتف في سعادة من أجل الحرية ..
لقد حررنا الثوار !
في الخارج كان المشهد مثير للذعر .. تماثيل البابا السابق يتم تدميرها بقسوة وعنف .. النار مشتعلة في محيط الفاتيكان وعشرات الكهنة السفاحون يركضون في كل مكان بذعر شديد .. من يقع في أيدي الثوار يقتلونه فوراً ويقذفون بجثتة في المجارير !
لابد أن يدفع (غيسليري) اللعين الثمن .. لابد أن يدفع الفاتيكان الثمن ..
الهياج منتشر في كل مكان .. رحت أركض في سعادة فاقداً لرشدي واتزاني ..
هتفت بكل قوة :
- فلسيقط غيسليري السفاح ..
فليسقط المكتاتور !

***

الفاتيكان – ٢٠١٢

راحت الراهبة الايطالية الأنيقة تُرشد السياح بداخل كنيسة (سانتا ماريا ماجيوري) .. كانت نظرات الأنبهار بالعراقة ممتزجة بخشوع شديد من السياح المسيحيون ..
وقفوا جميعاً أمام قبر البابا (بيوس الخامس) المعروض للعامة .. شاهدوا جسده المسجى والقناع الذهبي الذي يغطي وجهه بينما يداه معقودتان على بطنه في قفازات بيضاء أنيقة ..
وقفت الراهبة أمام القبر المكشوف بخشوع .. وقالت في هدوء :
- أعزائي المسيحيون الأتقياء .. اننا الآن أمام قبر القديس (بيوس الخامس) .. بابا الفاتيكان العظيم المملوء بالمحبة والنعمة والتقوى والخشوع للرب .. والذي استطاع بالكفاح لم شمل الكنيسة والفاتيكان بعد تمرد شيطاني قاده البعض لفترة من الزمان حتى جاء البابا القديس وأسكته بواسطة كلمة الرب وبالتقوى والايمان وحدهما فقط لا غير ..
فالمجد في الأعالي لبابا الرحمة القدس المعظم ..
طالع أحد السياح المهتمين الكتيب السياحي الذي في يده قبل أن يسأل الراهبة مستفسراً :
- ايتها الأخت الطاهرة .. ان اسم البابا بيوس الخامس قبل التنصيب غير مذكور عندي في الكتيب، فهلا ذكرته ؟
بهدوء وبابتسامة فخور أجابت الراهبة :
- كان البابا قبل التنصيب اسمه الكاردينال ميكيل ..
ميكيل غيسليري .

التنظيم المُحرَّم

كانت تسير على الرصيف المواجه متأودة وهي ترتدي ملابس (حره) و (كاجوال) .. تظهر صدرها وسيقانها ..
لم أعلق وان ضايقني المشهد ، فكرت أن أذهب اليها لأشرح لها أن هذا مخالف للشرع خاصة انها تضع سلسلة على شكل مصحف ..
ما ان هممت بالتحرك حتى جاء خمسة من الشباب التفوا حولها ، استطال فم أحدهم وراح يعوي كالذئب ، بينما راح الأربعه الباقون يتقافزون حولها في فرح و ألسنتهم خارج أفواههم !
أصابها ضيق شديد وأخرجت فجأة من حقيبتها لافتة مكتوب عليها (امشوا بعيد يا حيوانات) !
ركضوا بعيداً وهم مازالوا يتقافزون ، فقد رأوا واحدة اخرى لاترفع لافتة ، بينما هي مازالت غاضبة ، وبعصبية أشد خلعت قميصها لتقف شبه عاريه ، وترفع يافطة أخرى (من حقي ألبس اللي عاوزاه وانت متبصبصش عليا يا حيوان!)
وجمت ، لم أستطع التحرك من الرصيف .. مر أحدهم بجواري وألقى نظرة .. ما إن رآها حتى توقف يهتف لها مشجعاً في فرح متقافزاً من السعادة .. سألته علام يحييها فنظر لي بغضب قائلاً : انت هتكفرها ؟!
صدمت ، أنكرت بشدة ، أوضحت له أنني أنكر فقط ما تفعله وترتديه فهو يغضب الله .. كور قبضته في غيظ وصرخ غاضباً : أيها الحيوان .. انها أفضل منك عند الله .. الدين في القلب لا في الملبس ! أنت ذو النية الخبيثه والا ما اهتممت بالنظر الى جسدها !
ارتج علي .. وهو ازداد في الصراخ .. مر آخر فرآنا .. وقف بجواري ليستمع في فضول .. نظرت له في أمل كي يقف معي .. لم يتكلم .. شجعته على أن يدافع عني أو يقول رأيه .. لكنه لا ينطق .. فقط ضرب كفاً بكف ومصمص شفتيه متصعباً !
وجدت شخصاً ملتحياً قادماً ، قلت لنفسي ها قد جاء المدد ضد هذا الهجوم وهذه السلبية ، لكن ما ان رآني و فهم الموقف حتى وجدته يركض بعيداً عني صارخاً في رعب: أنا مليش دعوة .. أنا مش ارهابي !
أثناء محاولتي الرد على الشخص الأول المهاجم ، فوجئت بشخص يقف بجواري .. يدعمني في كلامي .. الحمد لله جاء المدد .. لكن برغم مساندته فقد زاد الهجوم .. حتى ان صوت المُهاجم قد اسمع كل الشارع .. الكل جاء ليستعلم .. الفتاه مازالت رافعة لافتتها في سلام .. ظهر مذيع في يده ميكروفون وجريدة وراح يسجل كل كلام الأخ الأول المهاجم الذي راح يغني له في عذوبه ، وما ان جاء دوري لأتكلم في الميكروفون حتى انقطع الصوت وخرج منه صوت مزعج ممتلئ بالسباب بدلاً من كلامي .. صوتي الحقيقي لا يصل الى الجمهور ..
كدت أنفجر .. تحركت في عصبية نحو تلك الفتاة .. قررت أن أبلغها آية الحجاب .. فقط سأقولها لها وليكن ما يكون .. وقفت أمامها فنظرت لي في هدوء .. استبشرت خيراً وابتسمت قائلاً : يا أختي .. بسم الله الرحمن الرحـ ..
لم أكمل البسمله من الذعر ، فقد صرخت كأنها تذبح .. وفجأه وجدت شخص يمسك بيدي اليمني ، وآخر يمسك باليسرى .. هناك ثالث قام بحركه قتاليه ليجعلني أسجد .. وجدت أن الأول هو المهاجم .. والثاني هو السلبي .. والثالث (صدق أو لاتصدق) هو الشخص الذي كان يقف معي في النهاية ، بينما رأيت المتلحي في أول الشارع يهتف : والله أنا برئ منه .. والله أنا برئ منه !
المذيع ينقل المشهد واصفاً اياي بأني زعيم التنظيم !
أي تنظيم ؟ هكذا سألت ..
فصرخوا جميعاً في وجهي بغضب :

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. يا ارهابي ..
وأثناء ركوبي سيارة الترحيلات بعد وصول البوليس ، نظرت نظره أخيره الى الفتاه وسط نظرات العداوة والغضب المسلطة علي من كل الواقفين ..
لم تكن وحدها هذه المرة .. كانت تقف وسط عشر فتيات جديدات .. هن زوجات وبنات هؤلاء المهاجمين .. لقد اقتنعن بقضيتها وصمودها .. وانشغل رجالهن بالبصق علي ..

بولاشير جودهو

١

١٧٥٧م

(البنغال) !
قالها الجنرال (سميث واتسون) وهو يشير الى موقعها من خريطة الهند ، كان واقفاً امام مجموعة من الجنرالات والسياسيين الانجليز المسئولين في الهند وقد علا وجوههم الوجوم ، وتراجع اللورد (سكوت بيلامي) في مقعده مفكراً في عمق دون تعليق ..
قال السير (بكارد كلايتون) في انفعال :
- جنرال (سميث) .. أرجوك كن أكثر واقعية ..نحن في وسط حرب عنيفة ، و فتح جبهة قتال مع دولة البنغال المرعبة والقوية حالياً ربما لا يكون في مصلحتنا على الاطلاق ..
أكمل اللورد في هدوء :
- بل هو مغامرة مجنونة محتم عليها الفشل .. ان دولة البنغال تملك من المعدات والذخيرة والسلاح ما يقارب تسليحنا هناك .. والمصيبة أن ما نستطيع توفيره من الجنود لهذه الجبهة لن يتعدى الخمسة آلاف جندي لمواجهة عشرات الآلاف من البنغال .. فكيف تتوقع الانتصار وقتها ؟
لم يهتز جنرال (سميث) بهذا الهجوم ، بل أجاب بثقة هائلة :
- سير كلايتون .. لورد سكوت .. ما نمتلكه من مهارة عقلية و تفوق في العلوم العسكرية و التكتيك جدير بجعل الكفة تميل لصالحنا برغم كل شئ ..
لم يبد الإقتناع على وجه السير فتراجع صامتاً و نفخ غليونه بصمت و هي علامة على رفضه الاستمرار في الحديث ، بينما قام اللورد بمداعبة لحيته الكثة و هو يقول :
- سأبلغ دوق ديفونشاير رئيس وزراء جلالة الملك برغبتك هذه ، ومستعد أن أدعمك في حالة واحدة .. أن تضمن لي أن من سيقود هذه الحملة رجل مخلص للتاج يملك من العلم و الدهاء ما يكفي للتفوق .. و الأهم أن يملك الإيمان الروحي بالمغامرة ..
بنفس الابتسامة الواثقة رد (سميث) :
- لدي رجل يؤمن تماماً بذلك و لديه خبرة معقولة بالهند .. أعتقده الأنسب لهذه المهمة .. الكولونيل (روبرت كليف) .

***

مُرشِد آباد - إقليم البنغال

بتوتر شديد راح (زين الدين علي خان) يصعد درجات سلم قصر (منصور جانغ) الهائل المقام أمام بحيرة (الزمرد) رائعة الجمال ..
كان على موعد مع حاكم البنغال (ميرزا محمد سراج الدولة) الذي يعتبره أعز أصدقاؤه ..
دخل الى قاعة العرش فوجد كافة قادة الدولة و الجيش وقوف في انتظار الحاكم .. لم يكن يطيق أغلبهم ولا يشعر بالاندماج معهم فتعمد الوقوف بجوار أحد النوافذ الكبرى المزخرفة بعشرات الالوان الزاهية الجميلة يتطلع

الى عاصمة البنغال الهندية الخضراء بأشجارها الوافرة وعصافيرها الملونة عذبة الصوت وبحيراتها مختلفة الألوان وقصورها الشاهقة الجميلة .. راح يسبح الله خاشعاً كعادته كلما رأى هذا المشهد الجميل ..
لم تمر دقائق حتى دخل (سراج الدولة) محاطاً ببعض الخدم ، كان شاباً وسيماً في الرابعة والعشرين طويلاً نحيفاً زيتوني اللون ، له شارب معتدل الحجم ، وشعر أسود لامع يتهدل على كتفيه من تحت عمامته البيضاء المرصعة بالجواهر والياقوت ، مرتدياً قفطانه الأبيض ذو الحزام الذهبي المحبب اليه ..
بعد استقرار سراج الدولة على عرشه بدأ الحديث بلهجته المتوترة دائماً :
ـ طبعاً أنتم تعرفون نتائج اجتماعاتنا الأخيرة ، لقد قررنا أخذ المبادرة والذهاب للقاء الكولونيل (كلايف) في مدينة (بولاشير) .. لقد جهزت جيشاً ضخماً للغاية وسلحته بأفضل أنواع البنادق المتاحة .. فهل أنتم مستعدون لفعل ذلك خلال هذا الاسبوع ؟
رفع (مير جعفر) صديق الملك الشخصي رأسه في فخر وأجاب مبتسماً في ثقة :
ـ بل قادرون على التحرك غداً يا مولاي .. إن الأخبار القادمة من جهة معسكر (كلايف) طمأنتنا أن هذا الأحمق ليس لديه سوى ثلاثة آلاف جندي فقط .. منهم أكثر من ألفي هندي .. إنه متجه نحو مذبحة لكنه غافل ..
قال القائد العسكري (يار لوتوف خان) في هدوء :
ـ مولاي .. أنا أيضاً شديد الحماسة لقتال الإنجليز .. لكن يجب أن نأخذ حذرنا أكثر .. من الأفضل أن نؤخر الزحف حتى بداية الأسبوع القادم كي أُكمل الجيش الى أقصى طاقته .. أنا بحاجة لبعض الوقت و الـ ..
في ضيق تدخل (سيث جاغات) مقاطعاً :
ـ لماذا نتأخر يا (لوتوف) ؟ ان العقل والحكمة يقتضيان منا التحرك بسرعة بالغة قبل أن يفيق (كلايف) ويستدعي قوة أكبر ..
التفت (سراج الدولة) نحو قائد جيشه (ميرمدان خان) الملتحي ضخم الجثة وسأله عن رأيه فأجاب :
ـ سيدي النواب العظيم .. أنا تحت أمرك في أي رأي .. وأميل لرأي مير جعفر وسيث جاغات بالتبكير .. مع كامل تقديري لرأي أخي لوتوف خان ..
نهض (سراج الدولة) واقفاً وقال لهم بلهجة عصبية حاسمة :
ـ رأيي أنا هو الزحف بسرعة .. وأبشركم بأنني قد ضممت الى الجيش كتيبة مدفعية فرنسية بقيادة القائد العسكري الفرنسي (فرايس) ..
هز الكل رؤوسهم في استحسان ما عدا (زين الدين) .. فأمرهم (سراج الدولة) بالانصراف والاستعداد و استبقاه هو فقط ..
ما ان اطمأن (سراج الدولة) لرحيل الجميع حتى نهض متجهاً الى (زين الدين) شاهراً سيفه هاتفاً في انفعال مصطنع :
ـ أعتقد أنك تخالفني الرأي يا (زين الدين) .. سأقتلك هنا والآن جزاء معارضتك النواب العظيم حاكم البنغال (سراج الدولة) !
ابتسم (زين الدين) وخفض رأسه هاتفاً في انفعال تمثيلي مماثل :
ـ نعم أنا مجرم ومخالف لرأي النواب الأكبر .. اقطع رأسي يا مولاي !
غمد (سراج الدولة) سيفه وضحك بشدة قبل أن يحتضن صديقه قائلاً في مرح :
ـ سأعفو عنك هذه المرة فقط .. لكن عليك أن تعدني بأن تخضع لمشيئتي دائماً ..
بابتسامة هادئة قال (زين الدين) :
ـ أنت تعرف انني لن أفعل .. إن واجبي هو نصحك بما يرضي الله لا بما يرضيك ..
تحرك (سراج الدولة) نحو احدى الشرفات وهو يسأل في جدية :

- وما الذي قلته أنا لا يرضي الله يا صديقي حتى تعترض على كلامي وترفض التعليق عليه ؟
- تذهب لقتال عدو الله الانجليزي .. ومعك نصارى فرنسيين وهندوس ؟!
خطا (سراج الدولة) الى داخل الشرفة وهو يقول في انفعال وضيق :
- نفس القضية كل مرة ! نفس الكلام كل مرة ! جمود عجيب في تنزيل الأحكام على واقع مختلف .. هل يمكنك تفسير وجود هنود مع الانجليز بلا مشاكل و منهم مسلمون ؟ الزمن تغير يا صديقي ..
- ألفا هندي يعملون تحت امرة ألف انجليزي .. انهم لا يثقون فيهم أبداً ولا يعطونهم أي مركز هام .. هم مجرد عبيد عندهم ..
ثم دق على حاجز الشرفة واكمل :
- إن عقيدتنا غير عقيدتهم .. انك تحارب كمسلم لا من أجل دنيا ، و انما من أجل نصرة دينك .. وان ألف جندي مسلم يدينون بالولاء لدينهم خير لك من عشرة آلاف هندوسي يحاربون معك لأغراض الدنيا ويميلون لمن معه الغلبة .. ان ديننا يحذرنا بأن اليهود والذين أشركوا هم ألد أعداءنا .. فكيف تجعل من الهنادكة المشركين قادة جيشك و جندك ؟
هوى (سراج الدولة) بيده غاضباً على حاجز الشرفة وقال :
- ان جاغات ساث الهندوكي هذا هو أغنى رجال الهند ومع ذلك يدعمني بقوة .. ويعطيني النصائح العظيمة .. كيف بالله عليك أقوم بابعاد هذه الكفاءة لمجرد اختلاف بين ديني ودينه ؟ اسمع .. هذه المثالية المفرطة موردة للمهالك .. قد فتح المسلمون الأندلس و معهم في جيشهم أبناء غيطشة و ساندهم يهود .. انني قارئ جيد للتاريخ يا زين الدين و أنت تعلم هذا .. لو كانت الهزيمة محتمة لجيش ليس له ولاء تام على أساس ديني ما فُتحت الأندلس ..
- التاريخ لم يكن أبداً مصدراً لأحكام المسلمين .. جمع جيش على أساس الولاء الديني هو حكم إلهي عام واجب النفاذ و على المسلم عدم الجدال فيه .. إننا مأمورون بالحرص على موالاة المسلمين فقط ، و عليك أن تبرأ من هؤلاء لا أن تقربهم اليك في الجهاد ! كيف تجاهد في سبيل الله وأنت تستعين في جيشك بمن يقيم صلاته ودينه على الكفر به والعداوة له ؟ كيف ينصرك الله وقتئذ وقد نزعت عنك الرضا الإلهي ؟ هل ينصرك ليرقص الهندوسي جاغات فرحاً مع الفتيات على شرف ابن الله كريشنا الذي نصره ؟ أم ينصرك ليركع الفرنسي (فرايس) أمام الصليب ليمجد ابن الله يسوع على الانتصار ؟ اجعل جهادك خالصاً لله وطهر جيشك ومواليك ووقتها سينصرك الله ..
في ضيق هز (سراج الدولة) رأسه قائلاً :
- انت فقط شديد التعصب .. ان هؤلاء الهندوس يحبون البنغال وسيقاتلون من أجلها بكل قوة .. والفرنسيون يكرهون الانجليز وسيقاتلون ضدهم بكل قوة .. لماذا أرفض تلك المساعدات بسبب التعصب الديني ؟ كم فتح الله علينا و على جدودنا من بلاد بمساندة هؤلاء الذين تعاديهم على أساس ديني ؟ لماذا تتجاهل مثال الأندلس الذي ذكرته لك ؟
- التعصب لجناب الله و عباده ليس بجريمة .. إننا نقاتل من أجل نصرة إلهنا لا من أجل نصرة أرضنا .. نقاتل من أجل سماء لا من أجل أرض .. فان قاتلت تحت راية بلدك ألزمت نفسك بجند هذا القطر الصغير .. وان قاتلت تحت راية ربك ألزمت كل مسلم على وجه الأرض بالقتال من أجل هذا القطر الصغير .. فأيهما أفضل لك ؟ و ماذا كان مصير المسلمين في الأندلس حتى تستدعي هذا المثال ؟ ألم يكن مصيرهم إلى زوال بسبب ضياع عقيدة الولاء للعقيدة لا للمصلحة المرجوة أو القطر المحدود ؟
أشار (سراج الدولة) الى الأفق وقال منفعلاً :

- أي ولاء بين المسلمين ؟ تقصد أن المسلمين سيقومون بنجدتي ؟ تقصد أن ملك الافغان (أحمد شاه دوراني) سينقذني ؟ ها هو رجل يملك جيشاً هائلاً ومع ذلك كل ما يفكر فيه هو غزو مملكتي حتى و أنا معرض لخطر الغزو الانجليزي ! هذا هو المسلم الذي تريد مني موالاته !
- القرآن لا يؤخذ من أفعال قارئيه .. والمسلمون ليسوا كلهم (أحمد شاه دوراني) .. ان هناك ملايين في كل مكان بل وفي مملكة دوراني نفسها سيدعموك بأرواحهم في جهادك .. فقط طهر جيشك وأخلص نية جهادك وتوكل على الله ..
صمت (سراج الدولة) طويلاً .. التفت وتطلع الى الأفق لعدة دقائق .. في النهاية التفت الى (زين الدين خان) قائلاً في حسم منهياً النقاش :
- صديقي المتعصب الحالم .. عقيدتي مختلفة عنك في هذه النقطة .. أما بالنسبة للنصر أو الهزيمة ، فلدي خمسون ألف جندي مسلح بالبنادق .. مجموعة من أمهر القادة العسكريين والسياسيين .. أغنى رجل في الهند .. ٥٣ مدفع فرنسي حديث بأطقمهم وقائدهم .. كل هذا مقابل ثلاثة آلاف جندي انجليزي ..كيف أهزم بالله عليك ؟

٢

تطلع الكولونيل كليف إلى السهل الهندي الواسع أمامه .. إنه في طريقه لمعركة كبرى .. معركة خطيرة قد تجعل إسمه خالداً في التاريخ الإنجليزي ، بل العالمي ، و قد تنهي مستقبله في لحظة واحدة !
ثلاثة آلاف مقابل خمسون ألف جندي بنغالي ! ياللمهزلة ! و ياللمجد الذي يمكن أن يحققه إن انتصر !
مع ذلك ، يمتلك كليف إيماناً هائلاً بأنه سينتصر !
العصور القادمة ستكون أوروبية بلا شك .. و هو عنده ثقة ضخمة بأنه في غضون عقود قليلة سيبدأ الإنجليز في التحرك نحو قمة العالم .. يقينه من هذا ربما يكون لأمور عرقية عنصرية متعصبة للأنجلوساكسون بداخله .. لكن برغم كل شئ لم يكن ليسمح للعاطفة الداخلية أن تحكم في هذا الأمر بالتحديد ..
إنهم سينتصرون لأنهم يملكون من الدهاء و العلوم العسكرية الحديثة و الإيمان و الثقة بالنفس ما يفتقده البنغال .. سيناورهم بتحركات جديدة و تصرفات تكتيكية غير معروفة و سيقعون كالأفراخ بين يديه .. هو كإنجليزي يعرف كم نفعت هذه الأساليب بريطانيا في عشرات المعارك هنا في الهند .. جيوش ضخمة لكن بعقول طفولية لا تتعلم ..
ثم إن الأساس العقائدي الذي كان يحارب به المسلمون قديماً قد انتهى .. الآن يواجه جيوشاً أكثر تفككاً في البنية العقائدية من جيش صلاح الدين الذي واجه جده ريتشارد .. ربما لم يعد هو الآخر يملك الإخلاص للصليب كما كان ريتشارد لكن عقيدة الولاء للأمة تحقق له التماسك المطلوب على مستوى النخبة القائدة ..
هو مهتم جداً جداً بهذه النقطة بالذات .. لابد أن يكون القادة متحدين في العقيدة .. قد يجعل في جيشه نخبة هندية و قد يتحالف مع هذا و ذاك لكن نخبته القائدة إنجليزية تملك ولاء للملك .. عندما يقارن هذا بسراج الدولة و نخبته يشعر باطمئنان كبير .. فقط يلزمه العمل على استغلال هذا ..
و سيفعل ..

***

بولاشي - ٢٣ يونيو ١٧٥٧

بجوار نهر (قاسم بوزر) انتشر جيش (سراج الدولة) المهيب .. قام الفرنسيون بنصب عشرات المدافع في مخازن عالية محصنة في بداية الجبهة.. وبينهم الفرسان وأفضل جنود الجيش تحت إمرة (ميرمدان خان) قائد الجيش .. بينما في الخلف كان هناك تشكيل من قلب بقيادة (يار لوتوف) وميمنة بقيادة (راي دورلاباه) و ميسرة بقيادة (مير جعفر خان) ..
وسط ضباب الصباح .. بدأت المدفعية الفرنسية القصف في الثامنة تماماً .. وكانت هذه هي الاشارة ..
انطلقت عشرات المدافع الفرنسية والبنغالية تصب اللهيب المركز على الجيش الانجليزي الصغير .. لا يوجد موضع في الجبهة الانجليزية كان بعيداً عن كرات البارود ..
بعد نصف ساعة قام (كليف) بسحب قواته بطريقة شديدة التنظيم والانضباط نحو تحصينات خلفية قوية حمتهم من الجحيم المنهمر ..
ظل القصف ثلاث ساعات متواصلة !
ثلاث ساعات من النار والدخان .. راقب (كليف) بنظارته المعظمة ساحة المعركة ثم التفت الى الليوتنانت (هاتر) قائلاً في سخرية :
- مارد مزدحم العضلات لكن بلا عقل .. ثلاث ساعات نزيف للذخيرة والساحة شبه خاوية من جنودنا أصلاً !
سأجتمع بالقادة الآن وسآمرهم بالحفاظ على موقعنا الحالي حتى المساء ، وفي الظلام سنقوم بالهجوم الكبير ..

***

سقطت أول قطرة على كتف (ميرمدان خان) ..
عقد حاجبيه ونظر للسماء ..
السحب الرمادية والسوداء قد أغلقت منافذ الضوء .. وكان المطر قد بدأ ينهمر بالفعل على استحياء ..
توقفت المدفعية قليلاً .. انها الثانية عشر ظهراً الآن .. قرروا قطع القصف ..
نظر (ميرمدان خان) الى زميله (موهان لال) وابتسم .. قال له وهو يهتز بسبب تحرك خيله للامام وللخلف :
- بعد هذا المطر والقصف .. سنتوجه لنغزوهم بفرساننا في ضربة قاصمة .. سنعلم الانجليز درساً لن ينسوه ..
كان المطر ينهمر متواصلاً بكثافة و تركيز .. و براميل الذخيرة والبارود المكشوفة تتلقاه بلا أي حماية !
بمجرد هدوء المطر عادت المعركة للإشتعال .. راح الجنود البنغال يضربون المدافع والبنادق ..
لكن !
هناك مشكلة ما !
البنادق بعضها لا يطلق الذخيرة والبعض الآخر يطلقها في ضعف !
ماذا حدث ؟
قال (موهان لال) لزميله في ضيق :
- البارود و الماء ! وقعنا في خطأ فأصاب البارود الرطوبة !
وجم (ميرمدان) لثوان ..
- كيف وقعنا في هذا الخطأ الغبي ؟
- إهمال أو خيانة .. لا أدري لكني أشعر بالقلق ..
- أرى ضرورة صنع هجوم مباغت الآن .. تقديري أنهم مصابون بنفس المشكلة في البارود .. أي هجوم مباغت شجاع سيضرب قلبهم !
قال (موهان لال) في عدم اقتناع :

- هل تظن الانجليز يقعون في مثل هذا الخطأ العشوائي ؟
هتف (ميرمدان خان) مستنكراً :
- انهم بشر .. بشر .. يحاربون بالقوة مثل الجميع و يُخطئون مثل الجميع .. هيا جهز جنود فرقتنا للهجوم ..

***

دخل الميجور (جرانت) الى الكولونيل (كليف) في خيمته قائلاً في ارتباك :
- سيدي .. ان البنغال يقومون بهجوم قوي مفاجئ شبه انتحاري .. لا نفهم السبب الحقيقي في كشف أنفسهم هكذا ..
في سخرية قال (كليف) :
- لا تحاول التفكير كبنغالي يا عزيزي والا شعرت بالخطر على حالتك .. أزل أغطية المشمع من فوق البارود فوراً وقم بحصدهم بلا تردد ..

***

هل كانت السماء تمطر ناراً أم أن هذا بالفعل هو قصف انجليزي ؟
(ميرمدان خان) راح يدور بخيله في ذهول وارتباك .. يا الله .. الانجليز جعلوا السماء تمطر قطرات ضخمة من اللهب .. إن بارودهم أكثر فعالية .. نحن فقط من نصنع هذه الأخطاء الساذجة البشعة !
كان الفرسان البنغال يسقطون من حوله قتلى أو تنفجر أجسادهم وخيولهم من فعل القصف المخيف .. لهم طريقة قصف أكثر تنظيماً من عشوائية القصف البنغالي !
كان ميرمدان يحاول الانسحاب .. لكن لا .. الانجليز صنعوا ستاراً من النار خلفه يمنع قواته من الانسحاب !
ظل ميرمدان يدور بخيله وسط القصف ولازال يفكر ويفكر ..
حتى جاءته تلك القذيفة الهائلة كصاعقة تضرب قشة !

٣

كان وقع مقتل ميرمدان على سراج الدولة ثقيل الوطء .. إرتعشت يداه و ظل جالساً في صمت غير قادر على الحديث لفترة بينما الكل واقف في خيمته متهيب الحديث ..
ألم يقل له الجميع أنه آت في نزهة ؟ لماذا يشعر بصعوبة الأمر ؟
كان بعض القادة العسكريين في حالة دهشة و استنكار ، بينما قلب (جاغات ساث) يديه في ضيق ..
أسقط في يد سراج الدولة .. أنساه الذعر كيفية التصرف و ما هو الواجب تنفيذه الآن ! نعم إن جيشه ضخم و قادته كثيرون لكنه لم يكن يتوقع أن يموت قائده بهذه السرعة والسهولة ؟ انه لم يكن قد أعد في ذهنه شخص آخر لقيادة الجيش ..
حاول التماسك وسط الضياع .. أمرهم فوراً باستدعاء قائد الجناح الأيسر .. مير جعفر خان .. انه الأقرب اليه والأكثر قدرة على قيادة الجيش بعد مقتل (ميرمدان) المفاجئ ..
دخل مير جعفر الخيمة ووجهة بادي عليه الاكتئاب لمقتل القائد .. لم يكد يمثل بين يدي (سراج الدولة) حتى قذف الأخير عمامته الفاخرة على الأرض في انفعال وغضب هاتفاً :

- عمامة مُلكي سقطت يا مير جعفر خان .. دافع عنها بكل قوتك وليكن الله معك .. أنت قائد جيشي منذ الآن ..
انحنى مير جعفر فوراً امتثالاً للأوامر و وعده بالموت من في خدمته ثم خرج من الخيمة عازماً على أمر ما ..
ستبدأ الحرب في اتخاذ منحى جديد تماماً ..

***

لم يكد مير جعفر يخرج حتى دخل الخيمة قائد جناح الميمنة (راي دورلابه) وعلى وجهه علامات الخطورة ..
انحنى فوراً أمام (سراج الدولة) المصدوم الذي سأله في توتر :
- ماذا هناك يا راي ؟
رفع راي رأسه هاتفاً في توسل :
- أرجوك يا سيدي النواب العظيم .. أرجوك ارحل من أرض المعركة وعد الى مرشد آباد تاركاً الزمام لقيادات جيشك ..
وقف (سراج الدولة) غاضباً وهو يقول :
- ماذا تقول ؟ أتظنني جباناً لأترك جيشي في وسط المعركة ؟ قد يكون مصابنا كبير بفقدان (ميرمدان خان) .. لكن جيشاً قوامه خمسون ألفاً من الجند لا ينهزم أمام شرذمة ..
ركع (راي دورلابه) أمامه متوسلاً وراح يسجد ويقوم من على الأرض بصورة متتالية وهو يقول :
- مولاي النواب العظيم .. مولاي النواب العظيم .. هناك نذر شؤم في الجو وهناك أشياء خطيرة غير مفهومة .. أرجوك يا مولاي غادر الى مرشد آباد كي تكون سندنا إن احتجنا للإنسحاب بسرعة .. الأمر أكبر من (ميرمدان) !
عاود (سراج الدولة) الجلوس حائراً وهو ينظر الى قادته الذين خفضوا عيونهم في ارتباك فزادوه حيرة .. هناك شئ ما يحدث خطأ ينفي الصورة الجميلة التي كان ينتظرها .. قال في بطء وهو يدير عينيه في وجوههم :
- هل توافقون على هذا الطلب الغريب ؟
قال (جاغات) المرتبك :
- الأمر كما تشاء طبعاً يا مولاي .. لكني أميل للحفاظ على حياتك أولاً .. ولتجهيز مُرشد آباد لأي طارئ ..
وافقه أغلب القادة فخفض (سراج الدولة) عينيه مُطرقاً لدقائق ، ثم رفع رأسه قائلاً في ثبات أخفى به إنفعالاته :
- برغم ثقتي التامة في النصر ورفضي لمبالاغتكم .. الا انني سأنزل الى رأيكم وأرحل الى العاصمة تاركاً الأمر لأيديكم الأمينة .. دافعوا عن أرض البنغال بكل قوتكم .. دافعوا عن بلدكم وترابها بكل عزيمة .. لا تجعلو الانجليزي يهزأ بنا أبداً ..

***

الثانية ظهراً

أمر الفرنسي (فرايس) مدفعيته بالتوقف عن القصف لدقائق .. رفع نظارته المكبرة فشاهد جموع جيش البنغال تتراجع في ارتباك بلا أي نظام الى الخلف تاركة اياه في مقدمة الجبهة بلا مساندة ..
سأله أحد الظباط من زملائه عما يحدث فقال في ضيق :
- هؤلاء البنغال المسلمين الحمقى لا يملكون أي دراية بعلوم الحرب الحديثة .. ينسحبون بطريقة عشوائية خرقاء تاركين إياي في المقدمة بلا مساندة بل وبدون ابلاغي حتى !
اتسعت عينا الظابط المجاور في انزعاج هاتفاً :

- ياللهول ! ياللهول ! لقد ورطونا نحن أمام الجيش الانجليزي وجهاً لوجه !
أنزل (فرايس) نظارته قائلاً في اشمئزاز :
- طالما نبهت قياداتي أن هؤلاء يملكون القوة العسكرية بلا عقل ولا علم .. لكن للأسف اعتقدوا أنه من المستحيل لجيش بهذه القوة أن يكون فيه كل هذا التهريج العسكري ..
ثم التفت اليه قائلاً باستهتار :
- لا تحمل أي هم .. جهز قواتك للرحيل فوراً في حالة تقدم الانجليز الى تحصيناتنا .. لن نموت أو نضحي من أجل همج .. في حالة أي خطر سنستسلم للإنجليز فوراً بلا مشاكل و سنتفاهم معاً ..

***

بينما كان الميجور كيلباتريك يجهز بندقيته مناقشاً بعض صغار ضباطه فوق أحد التلال ، دخل عليه الكولونيل (كليف) ثائراً ..
أشار (كليف) للبندقية هاتفاً في غضب :
- كيف تجهز بندقيتك آمراً الفوج ٣٩ بالاستعداد للهجوم دون تشاور ؟
إرتج على الميجور (كيلباتريك) خاصة أنها المرة الأولى التي يشاهد فيها (كليف) ثائراً ، فقال في ارتباك :
- سيادة الكولونيل .. لقد رأيت فرصة سانحة لاحتلال الحصون الأمامية للبنغال واستخلاصها من الفرنسيين .. لم يكن هناك فائدة من تضييع الوقت ..
في هياج أشد هتف (كليف) :
- التشاور مع قائدك ليس تضييعاً للوقت .. مهما بدت الفرصة سانحة فلا خير في الفردية .. أين تعلمت علومك العسكرية يا ميجور ؟
في عصبية تناول الميجور كيلباتريك النظارة المكبرة ومد يده بها الى الكولونيل كليف قائلاً في ضيق بالغ :
- سيادة الكولونيل .. أرجوك شاهد بعينيك كيف أن هذا الأمر لا يحتاج لتلك الثورة .. الأمر لا يحتاج سوى التحرك السريع ..
تناول (كليف) النظارة غاضباً وراح يشاهد القوات البنغالية وقد تراجعت للخلف واستقرت في تحصيناتها بصورة عشوائية تماماً تاركة الفرنسي وحده بلا أي دعم .. بالفعل لا يوجد أي عقل عسكري يمكنه تفويت هذه الفرصة السانحة الا واغتنمها بلا تضييع ثانية واحدة !
أنزل النظارة المكبرة في ضيق ودفعها في صدر (كيلباتريك) وهو ينظر الى عينيه قائلاً في صرامة :
- ولو .. لن أتنازل عن مبدأ التشاور معي و باقي القادة قبل اتخاذ أي قرار .. فردية عبقرية قد تنصرنا .. و قد تهزمنا .. و كلنا سنتحمل نتاج تصرف فردي في النهاية ..

***

ما بعد الثالثة ظهراً

بانسحاب الفرنسيين الى الخلف اندفعت القوات الانجليزية لتحتل التنكات الفرنسية العالية المطلة على ساحة المعركة ..
الآن المشهد صار مثيراً للذعر .. الحصون الأمامية العالية الضخمة احتلها الانجليز . انكشف أمامهم الجيش البنغالي المصاب بخوار عجيب والذي اختبأ في التحصينات الخلفية الصغيرة ..
أمر (كليف) بفتح المدفعية بأقصى قوة ، كان لابد من اخرج الجنود البنغال الذين دب في قلوبهم الوهن و الرعب من تحصيناتهم واحتلالها ..

هكذا ظهر التفوق العسكري الأوروبي بقوة في تلك المرحلة بالذات ، فبقوات صغيرة وعدد من القتلى ضئيل للغاية كان يحاصر بعض أفرع الجيش البنغالي الذي يتعامل بعشوائية ويطلق النار بذعر من لا يدرك كيف يواجه هذا الانضباط التكتيكي الانجليزي الرهيب ، يمكن بسهولة لمائة جندي انجليزي محاصرة عشرة آلاف جندي بنغالي مسلم بتكتيكات عسكرية متطورة دون أن يعرف البنغال كيف ينقذون أنفسهم سوى بالعشوائية في اطلاق النار والمزيد من الذعر والفوضى ..
كان (وحيد الدين بهادور) أحد كبار الظباط البنغال ، استطاع الفرار من الحصار الانجليزي المفروض على الميسرة والتي يقودها مير جعفر .. هناك أمر شديد الريبة يشعر به بسبب رفض مير جعفر التحرك لفك الحصار بجدية .. هناك أكثر من خمسة عشر ألف جندي بنغالي عاطل تماماً ومحاصر من حوالي أربعمائة جندي من جيش كليف ! ماذا يجري ؟!
ركض خيله بأقصى سرعة حتى وصل الى خيمة (سراج الدولة) ودخلها هاتفاً في (راي دورلابه) و (جاغات ساث) :
- انقذونا .. الجيش سقط في شرك رهيب .. مير جعفر لا يتصرف ..
ظل جاغات ساث بارداً و قال :
- حذار من الإتهام بعدم الكفاءة الآن .. لا وقت لتبادل الإتهامات ..
- هذه ليست إتهامات .. أرجوكم ساعدوني .. أشعر بخيانة ..
أظهر راي دورلابه الإمتعاض وقال معترضاً :
- ليس لهذه الدرجة .. هل أصابك الجنون ؟
شعر وحيد الدين بالقلق فتراجع إلى الخلف حذراً و هو يقول في حسم :
- لابد من ابلاغ مولاي النواب .. ساذهب الى مُرشد آباد فوراً !
نهض راي دورلابه مسرعاً يهاجمه بالسيف فرفع سيفه يقابله و هو يهتف :
- تباً لكم يا خونة ..
عاجله جاغات ساث بطعنة في جنبه فسقط مذهولاً و قال وسط الآلام :
- لماذا فعلتموها ؟ كيف خنتمونا ؟
وضع راي دورلابه سيفه على صدره موضع القلب و قال ساخراً :
- الدنيا يا صديقي .. الدنيا ..
و أغمد سيفه في قلبه ..

٤

الخامسة مساءً

جاء الغروب مبكراً ، لا بسبب السحب الممطرة فقد تشتت و هدأ الجو ، و إنما بسبب سحابات البارود و التفجيرات الكثيفة المتناثرة في الميدان ..
المدفعية الانجليزية المتمركزة فوق الحصون العالية تدك كل خطوط البنغال الخلفية .. الفرنسي فرايس أمر قواته بالانسحاب تماماً من أرض المعركة قائلاً بحسم :
- فليذهب البنغال الى الجحيم !
الإنجليز يقتلون قوات البنغال المبعثرة بلا وجهة .. يحصدونهم بالمدفعية و بالرصاص حتى ليموت المائة بثلة قليلة من الإنجليز .. دب في قلوب الجيش العرمرم رعب هائل فأصبحوا كالفئران المذعورة ..
كانت المفاجأة الحقيقية أن القادة الكبار الذين بقوا على قيد الحياة .. يار لوتوف .. مير جعفر .. راي دورلابه .. التاجران امير شاند و جاغات ساث .. كلهم خونة متواطئين تركوا قوات البنغال و ضباطهم الصغار يواجهون الآلة العسكرية الانجليزية القاسية بلا أي توجيه نافع ..
أخيراً .. عند الغروب بدأ الجيش الانجليزي يحتل المواقع المتقدمة كلها .. تبعثر الجيش البنغالي الضخم في الغابات وفي كل مكان هارباً الى أقرب المدن والقرى في ذعر كفلول نمل هوت قدم غليظة على منازلهم ..
و في المساء كان (كليف) على موعد مع قادة جيش البنغال ..

***

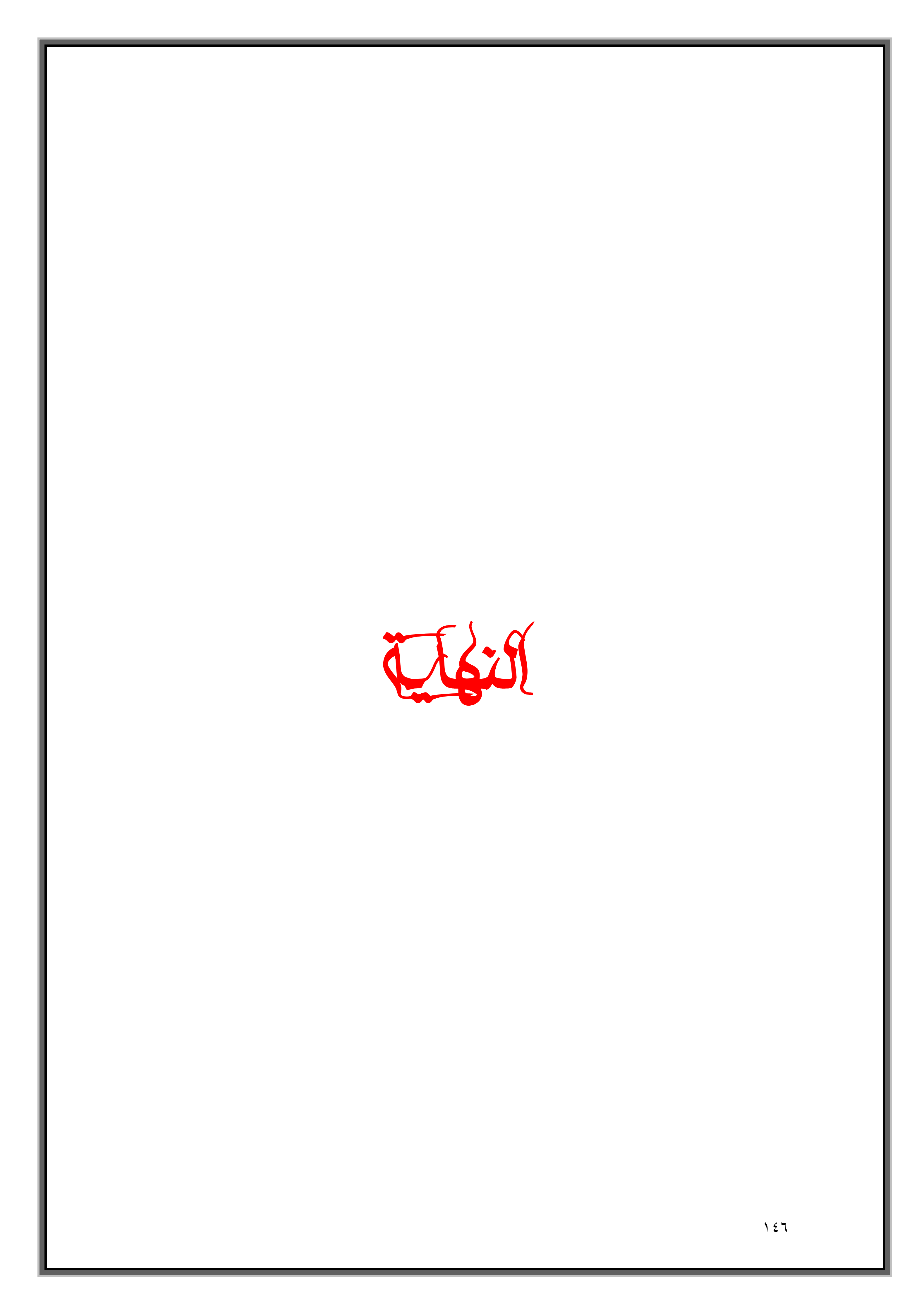
أمام خيمة (سراج الدولة) وقف (يار لوتوف) و (جاغات ساث) و (أمير شاند) و (راي دورلابه) صفاً وراء (مير جعفر) في استقبال الكولونيل (كليف) ..
ما ان ظهر حتى تهللت أساريره وأحتضن (مير جعفر) سعيداً ومهنئاً اياه على ولاية البنغال كما كان قد وعده إن انتصر .. فمير جعفر كان الرأس المدبر لعملية تعطيل الجيش لمساعدة الإنجليز في هزيمته بتكتيكاتهم المتفوقة .. لم يكن الإنجليز ليتركوا أي فرصة لإضعاف العدو مهما كانت دنيئة إلا و غنموها ..
هكذا بذل كليف العطاء لقادة الخيانة كما وعدهم .. يهمه المحافظة على سمعته و سمعة بلاده في هذا الأمر حتى يتشجع غير هؤلاء على مد يد المساعدة/الخيانة لهم في مواقع أخرى !
وما إن خرجوا من عنده حتى اقترب ليوتانت صغير السن من أقرباء كليف قائلاً :
- سيدي الكولونيل .. لم أفهم سبب تعيينك لهذا الأحمق حاكماً للبنغال الساقط أمامنا .. لماذا لم تقم بتعيين حاكماً إنجليزياً للمقاطعة ؟
طقطق (كليف) بلسانه معترضاً وقال بمزاج رائق كأنه ينصح طفلاً شقياً :
- ليس هكذا تدار الأمور أبداً .. الإنجليزي مهما كان عسكرياً فهو سياسي قبل كل شئ ..
ثم اشار إلى خارج الخيمة حيث كان يقف على بعد منها القادة البنغال أمام الميجور (اير كووت) في ذل يستمعون لأوامره الجديدة وتعليماته للمرحلة القادمة وقال :
- لا تنظر إلى هذا المشهد .. هذا هو المطبخ الخفي عن أهل البنغال .. ما لن يراه أحد منهم أبداً .. هم لازالوا قادة بالنسبة لهم .. لا تفقد هذه الميزة ..
ثم التفت إليه شارحاً باستفاضة عندما وجد علامات عدم الفهم على وجه قريبه :
لازال فلول جند البنغال في البلد .. و هم آلاف مؤلفة يمثلون خطراً .. و لا حل للقضاء على خطرهم إلا بإعلان أن القائد العظيم (مير جعفر) قد أنقذ البنغال !

سيعلن نفسه حاكماً وسيعدم سراج الدولة بتهمة الخيانة ! أكثر من هذا .. فإن دورلابه ويار لوتوف سيجمعان باقي الجيش المتناثر تحت إمرتهم لاستعادة مجد البنغال تحت قيادة الحاكم الواعي (مير جعفر) .. بينما التاجران الثريان (أمير شاند) و (جاغات ساث) سيقبضان على ميزانية الدولة ويشترون ولاء النخبة القابلة للشراء ! ستظهر البنغال أمام شعبها انها محررة تحت امرة نخبة عسكرية وسياسية و مالية شديدة الوطنية .. بينما هؤلاء جميعاً هم مندوبينا الأذلاء وتحت امرة أقل عسكري في جيش الامبراطورية ..
شاعت إبتسامة فاهمة على وجه الليوتنانت و قال بإعجاب :
- حكم غير مباشر .. ياللروعة ..
- طريقة قديمة جداً بالمناسبة .. ليست بدعاً خالصاً منا .. وعامة في الوقت المناسب و بعد مرور بضع سنوات من الهدوء .. سنجئ نحن لنحكم مباشرة !

***

٢ يوليو ١٧٥٧

وقف الجنود البنغال صفاً رافعين بنادقهم في وضع الاستعداد .. اتجه القائد العسكري (محمد علي بيج) الى السجين مقطع الثياب ذو الكدمات الكثيرة على وجهة ومال عليه هامساً :
- عذراً يا (سراج) .. أوامر زعيم الدولة و حاكمها الحالي (مير جعفر) قضت باعدامك للخيانة .. ليس لي شأن سوى التنفيذ ..
رفع (سراج الدولة رأسه بصعوبة وقال في انهاك وخور :
- مير جعفر خائن .. كلهم خونة ..
هز (محمد علي) رأسه رافضاً وتراجع قائلاً :
- لا يمكنني أن أعتبرهم خونة كما تصور أنت .. لقد كان ولاء هؤلاء لصاحب القوة و المال و المستقبل .. قد تغير الحال يا سيدي و جاء شخص آخر بعرض أكبر و مستقبل أفضل !
رفع (سراج الدولة) رأسه الى السماء بلا تعليق وقد تساقطت الدموع من عينيه غزيرة ..
وانطلقت الرصاصات تخترق جسده ..



النهاية